ماري - اميل بوامار

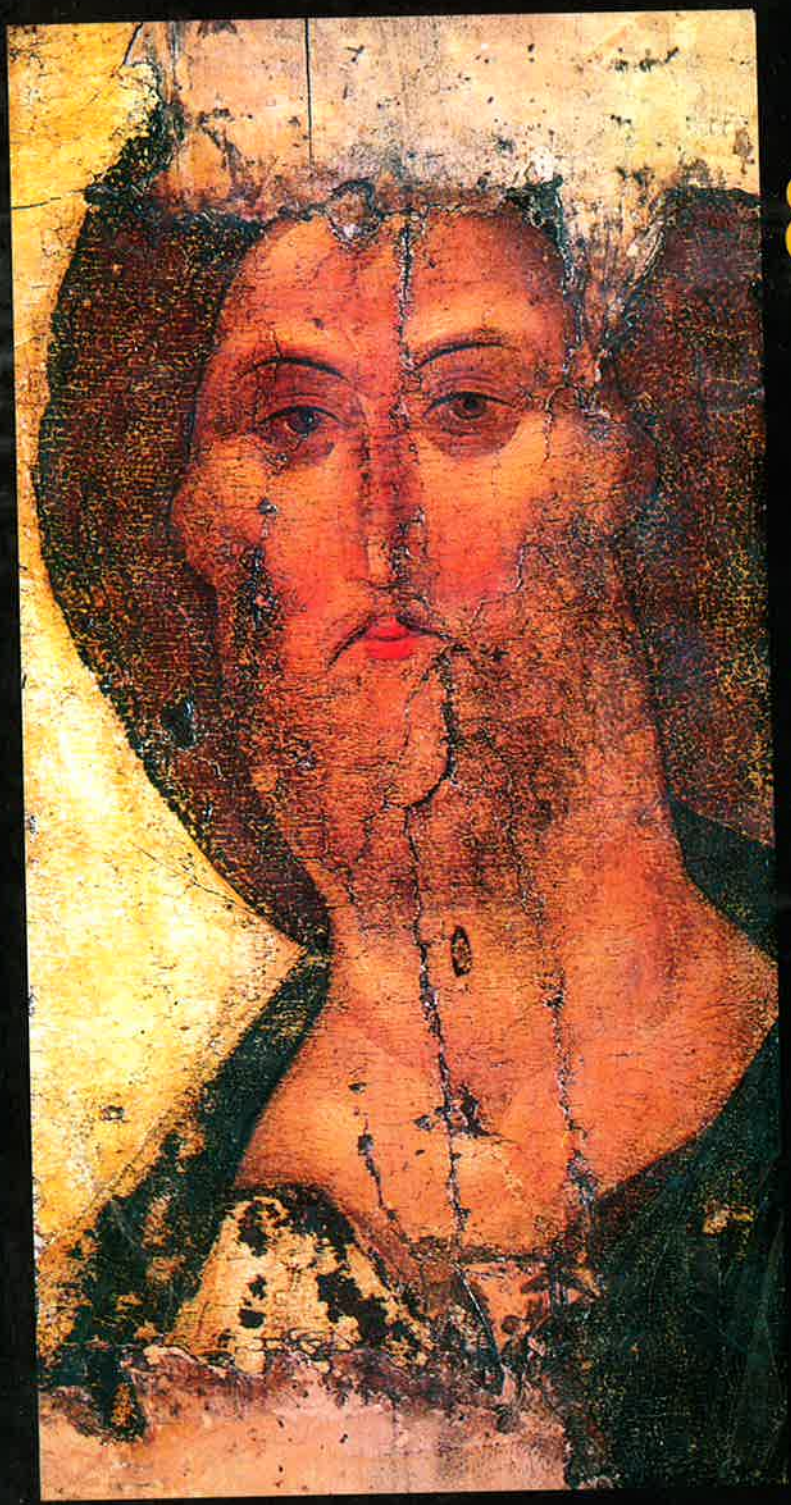

يسوع الذي من الناصرة

بقلم

مرقس الانجيلي

تعريبا

الاب بيوس عفاص

بغداد ٢٠٠٢

ماري - اميل بوامار
يسوع الذي من الناصرة

مركز الدراسات الكلدانية - الموصل

مع الانجيلي مرقس لقراءة بشرى يسوع الناصري

مرقس يعتبر قرّاءَه اذكياء ..

في القسم الاول من انجيله، كان قد طاب له ان يشـــدّد على غبـــاء التلاميذ الذين لم يتوصلوا الى فهم شخصية يسوع الحقيقية. وهوذا بطرس، على حـــين غرّة، يعترف ان يسوع هو المســيح. ولا يمكن ان يتم ذلك إلا بفضل وحي الهي، كما قالها متى بــوضوح، وكما يمكن ان يفهمها قارىء لبـيب (انظر القسم الثاني/ الباب ١٠).وهكذا هي الحــال في القســـم الثاني. فكل التلاميذ، من دون استثناء، وبضمنهم النســوة الثلاث اللواتي بَدَوْنَ اكثر امانة، كانوا تحت سيطرة الخوف، ولذلك هربوا.

الخوف والهرب! هذا كل ما كان بوســـع التلاميذ ان يقدّموه ليسوع في ســـاعة موته على الصليب! ومع ذلك، كان ينبغي لقـــراء الانجيل ان يتحققوا من ان رسالة المسيح قد نُقِلَت بامانة " حتى اقاصي الارض" (رســـل ١:٨)، بفضل هؤلاء التلاميذ انفســـهم الذين كان الخوف قد سمّرهم.

لم يكن بـــالامكان ان يتحقـــق كل ذلك، إلا بفضل تدخّل الهي. فكان ينبغي لقدرة الله (او المســـيح القـــائم) ان تقبـــض على التلاميذ لتمدّهم بالشـــجاعة والذكاء اللذين نقصاهم بشكل صارخ. انها معجزة الكنيسة الناشـــئة التي سيرويها لوقا في سفر اعمال الرســـل، ويترك مرقس لقارئه الفرصة لفهمها...

الأب م . إ . بوامار

يسوع الذي من الناصرة

ماري - اميل بوامار

مركز الدراسات الكتابية - الموصل

سعر النسخة ١٠٠٠ دينار فقط

منشورات مركز الدراسات الكتابية - الموصل ٢٠٠٢
الديوان للطباعة والتصميم ٨٨٦٥٢٧٧

صورة الغلاف: مسيح زفينيكورود

أيقونة للراهب الروسي الشهير أندريه روبلوف (حوالي عام ١٤٠٩)

متحف ترتياكوف (موسكو)

يسوع
الذي
من
الناصرة

سلسة أبحاث كتابية

تصدر عن مركز الدراسات الكتابية في الموصل

١. قراءة مجددة للعهد الجديد: تاليف الأب بيوس عفاص / الموصل ١٩٩٨

٢. يسوع الذي من الناصرة: تأليف الأب ماري – إميل بوامار
تعريب الأب بيوس عفاص / الموصل ٢٠٠٢

تطلب من:
مركز الدراسات الكتابية
كنيسة مار توما – الموصل (العراق)
ت ٠٦٠/ ٧٦٤١١١
٠٦٠/ ٧٧٦٣٠٧

ماري - إميل بوامار

يسوع الذي من الناصرة

بقلم مرقس الانجيلي

نقله الى العربية

الأب بيوس عفاص

منشورات مركز الدراسات الكتابية

(٢)

الموصل ٢٠٠٢

عنوان الكتابة بالفرنسية :

Marie-Emile Boismard
Jésus, un homme de Nazareth
Raconté par Marc l'évangéliste
Ed. du Cerf, Paris 1996.

ليطبع
المطران باسيليوس جرجس القس موسى
الموصل في ٣ تموز ٢٠٠٠

مقدمة المعرب

"يسوع، رجل من الناصرة"!

هذا هو عنوان الكتاب، كما أراده مؤلفه الأب ماري-لميل بوامار الدومنيكي، وقد سعى جاهداً إلى ان يكشف لنا عن وجه يسوع الانساني، برفقة دليل أمين عاش ولا شك خبرة ايمانية عميقة وشهد لها، هو الانجيلي مرقس الذي صفّه التقليد في المرتبة الثانية بين الانجيليين، ولكَم ظل انجيله في هذه المرتبة أو دونها قبل ان يحتل مكان الصدارة، ويُعترَف باولويته على سائر الانجيليين، كونه اول من ابتكر فن كتابة الانجيل، "هذا الفن الادبي الذي لا مثيل له في أي ادب آخر"، على حد تعبير الأب لاتين شرينتييه.

مرقس هو، إذن، رائد ذو وزن، استطاع ان يحوّل بشرى يسوع الناصري إلى "نص"، أي إلى "رواية" لأعمال هذا النبي الجليلي الذي كشفت القيامة عن هويته... رواية -تقرأ دفعة واحدة، ولا تستغرق قراءتها اكثر من ساعة!- تتيح للقارئ ان يكتشف "سره" المخفي وراء الظواهر المخيبة.

فانجيل مرقس، بشرى بكل عريها وصفائها، مع كل ما يرافقها من معاثر وصدمات. ولكنه في الوقت ذاته بشرى تتوجه إلى اعمق

ما في الانسان، طالما ان مرقس شاء ان يذهب بقارئه في مجازفة -وأية مجازفة سوف تكلّفه ثمناً باهضاً!- وراء يسوع من الناصرة، ذاك "النجار ابن مريم، اخي يعقوب ويوسي ويهوذا وسمعان" (مر ٦: ٣)، والذي كان "حجر عثرة" لأهلها! وهو ذاته "يسوع الناصري المصلوب" الذي استطاع قائد مئة وثني شهد الاحداث ان يعلن في النهاية: "كان هذا الرجل ابن الله حقاً"، مصدّقاً لما جاء في المقدمة التي تصدّرت الكتاب: "بدء بشارة يسوع، المسيح، ابن الله" (مر ١: ١).

ان مرقس يعرض، إذن، على قرائه، مغامرة اللحاق بيسوع على طريق الصليب: يسوع "ابن يوسف من الناصرة" الذي قال عنه نثنائيل: أمِن الناصرة يمكن ان يخرج شيء صالح؟" (يو ١: ٤٦)! يسوع الذي أُعجبت به الجموع، وتخلّت عنه من ثم، بعد ان خيّب آمالها! يسوع الذي هجره ذووه الذين لم يقووا على اكتشاف سرّه، فاعتبروه "ضائع الرشد"! يسوع الذي أشهر، منذ البدء، عظماء الكهنة والكتبة عليه الحرب، وقد كان مثاراً للمنازعات والمنافسات والشغب! يسوع الذي تركه اخيراً تلاميذه انفسهم وهربوا بعد ان عجزوا عن فهمه وتشخيصه، وكانت لهم آلامه وموته على الصليب معثرة لا تطاق!

بين فاتحة انجيله وخاتمته، هناك مسافة ارادها مرقس تكون طريقاً وعرة يشقها القراء -وهم مسيحيو روما في السبعينات، كما هم مسيحيو عام ٢٠٠٠!- نحو ذاك النبي من الجليل الذي ما انفك ينادي بحق الله، وهو في الوقت ذاته ذاك الملك الذي نصّبه الله على ملكوته الجديد. فإذا لم يعتلن "سر" يسوع إلا في نهاية مسيرة طويلة

اليمة، هي اشبه بمأساة اكتنفها الغموض وخيّمت عليها الظلمة، فهكذا سيكون خط سير المؤمن على هذه الطريق الموحشة ذاتها، والذي لكَم سيتوجب عليه ان يعاني ويتردد ويعثر -وقد يتراجع وينكر ويخون!- قبل ان يدرك ان ولاءه للناصري وتعلقه به هما من مستوى الخبرة الايمانية المنفتحة على الرجاء! ذلك لأن المسيح القائم هو ذاته يسوع الناصري المصلوب... ولن نلقاه إلا في نهاية الطريق.

الأب بوامار -وقد بقي اسمه عالقاً في ذاكرتي منذ التقيته في المعهد الكتابي الأثري بالقدس عام ١٩٥٧- تعهّد في هذا الكتاب ان يقرأ لنا انجيل مرقس برمته، ليدلّنا على وجه يسوع الناصري في عمق انسانيته. فمن هنا كان العنوان الذي اختاره، وهو يهدف ان يسلط الضوء على يسوع الذي هو "ابن الله" بقدر ما هو ذاك الرجل من ناصرة الجليل.. وهكذا لن يبقى لنا مبرّر للتنصّل عن السير وراءه والتمثّل به!

ولكَم سيتوجب علينا ان نتخلى عما نعرفه عن يسوع عبر سائر الاناجيل، كي تصبح معرفتنا به، بحسب مرقس، ذات مدلول عميق، وتصبح قراءتنا له اكثر قرباً والتصاقاً بقراءة الكنيسة الاولى وايمانها. إلا إني اتوقع ان تصدم هذه القراءة قارئاً يخشى ان تُمَسّ قناعاته الموروثة؛ كما اخشى ألا تروقه بعض الطروحات والمعالجات بشأن عدد من المشاهد التي دبّجها قلم مرقس وصوّرتها ريشته، فيتحول عنها ويحرم نفسه بالتالي من إضاءات لا تهدف، في الواقع، سوى ان تدلّه على قصد مرقس وما يرمي إليه، من وراء رواياته المجردة والتي كثيراً ما يُخيّل إلينا انه يقصد بها ان يصدمنا!

ولما كنت قد رأيت فائدة كبرى تُجنى من هذه القراءة المرقسية

–وهذا ما حدا بي إلى تعريب الكتاب، في يوبيل الالفين– اسمح لنفسي ان اشير على القارئ الذي لم يألف هذه الطروحات، ألاّ يأنف من الرجوع إلى كتابي "قراءة مجددة للعهد الجديد" ليحصل على عدد من المفاتيح يلج بها إلى بيئة الاناجيل ودوافع كتابتها ومراحل تكوينها وخلاصة مضامينها... فيسهل عليه من ثم ان يتعامل مع نصوصها تعاملاً مجدياً يحمل إليه مزيداً من النور.

وفيما ازفّ هذا الكتاب –وهو الرقم (٢) من "سلسلة أبحاث كتابية"– اتمنى ان يُتاح لمركز الدراسات الكتابية في الموصل ان يواصلها، تأليفاً كان أم تعريباً، لسدّ حاجة المكتبة العربية، والعراقية بنوع خاص، إلى أبحاث بيبلية من شأنها ان تضع في متناول القراء أدوات عمل ثمينة تمكّنهم من الدخول إلى قدس أقداس الكتاب المقدس، بعهديه، والغَرف من ينابيعه الصافية، في خدمة ايمان يكون اكثر عمقاً واصالة، وفي خدمة شهادة تكون اكثر بلاغة وإشعاعاً.

الموصل في ١٠ حزيران ٢٠٠٠ — **الاب بيوس عفاص**

مقدمة المؤلف

.. وكان لابد ان تتصدر الترجمة العربية للكتاب مقدمة يخصّها بها المؤلف ذاته، وهو يعيش على مقربة منا، في الارض المقدسة، ويتمتع بنشاط وحيوية بالرغم من بلوغه الرابعة والثمانين. وفيما كشف عن ارتياح القراء الفرنسيين بالكتاب، عبر عن شكره لنقله الى قراء العربية...

وشاء الاب بوامار ان تكون مقدمته للطبعة العربية مدخلاً الى الكتاب برمته، وقد اراده قراءة في انجيل مرقس تمكننا من استشفاف وجه يسوع الناصري في عمق انسانيته والتي من خلالها يتجلى وجهه الالهي.

*

كان المجمع الخلقيدوني قد حدد بان يسوع هو "إله حق وانسان حق". ومن بين الاناجيل الاربعة، نجد ان انجيل يوحنا يسلّط بالاكثر الضوء على الوهية يسوع. فمنذ مفتتح انجيله نعرف ان "الكلمة كان الله"، وانه جاء "ليسكن فيما بيننا" (يو ١: ١، ١٤). وقبل الخلاصة الاولى التي خرج بها الانجيل ذاته، نرى توما يتوجه الى المسيح الناهض بقوله: "ربي والهي" (يو ٢٠: ٢٨). كما نرى يسوع ذاته يعلن لليهود: "قبل ان يكون ابراهيم، انا هو" (يو ٨: ٥٨). وهذا الضمير يذكّر بالاسم الذي من خلاله كشف الله ذاته لموسى، في رواية العليقة المتقدة: "انا هو من هو. كذا تقول لبني اسرائيل: أنا هو أرسلني اليكم..." (خر ٣: ١٤-١٥). ويصبح بوسع يسوع من ثم ان يُطالب بهذا الاسم الالهي.

اما في انجيل مرقس، فعلى العكس، تبدو الوهية المسيح وكأنها مخفية، بينما يسلط الضوء على انسانيته. فالرجل الغني الذي يطلب إليه قائلا: "ايها المعلم الصالح، ماذا أعمل لأرث الحياة الابدية؟" يجيبه يسوع : "لم تدعوني صالحا؟ لا صالح إلا الله وحده" (مر ١٠: ١٧-١٨).

الأب ماري-- إميل بوامار اختصاصي ذو شهرة عالية في علوم الكتاب المقدس. وهو دومينيكي فرنسي من مواليد ١٩١٦، امضى حياته في البحث والتعليم.

بعد الدكتوراه في اللاهوت، تخصص في العلوم البيبلية واصبح استاذ العهد الجديد في المعهد الكتابي والآثاري بالقدس (١٩٤٨-١٩٥٠) ومن ثم في جامعة فريبورغ بسويسرا، ومن جديد في القدس عام ١٩٥٣ حتى استقالته من التعليم عام ١٩٩٣.

من ابرز مساهماته الكتابية مشاركته في طبعة اورشليم للكتاب المقدس (بالفرنسية) عبر ترجمة سفر الرؤيا، وعبر عضويته في لجنة مراجعة الترجمة لتلك الطبعة التي ظهرت

وتجدر الاشارة الى ان متى ولوقا يسقطان هذا الجزء من جواب يسوع. وهوذا يسوع، في اعقاب عماذه، يتلقى روح الله، وهذا الروح ذاته هو الذي "يلقيه" للحال في الصحراء حيث يجربه الشيطان. وبفضل الروح الذي فيه يتمكن يسوع من طرد الشياطين (مر ٣: ٢٢، ٢٦، ٢٩). لو كان يسوع، بالنسبة إلى مرقس، كلمة الله الذي جاء يسكن فيما بيننا، فلماذا يرينا اياه مُقاداً بروح الله وعاملاً بفضل قوته، كما لو كان انساناً اعتيادياً؟

غير ان رواية التراع في الجتسمانية تبدو اكثر تأثيراً واكثر مغزى على الاطلاق: ذلك ان يسوع، وقد استشعر كل الآلام التي تنتظره، نراه يصلي الى الله لكي "إذا امكن الامر، تبتعد عنه هذه الساعة" (مر ١٤: ٣٥). وتلفت انتباهنا عبارة "إذا امكن الامر". لوكان يسوع هو الله، لكان عرف مسبقاً كل ما سيحدث له، ولَعرف بالتالي انه "ليس ممكنا" ان تبتعد الساعة! نحن هنا، إذن، بازاء إخفاء كامل لألوهية المسيح: ولم يعد امامنا سوى انسانية يسوع، وهي تتعرض لأهوال مستقبل مرعب. ومن الجدير بالذكر ان يوحنا لم يروِ هذا المشهد، إلا انه لمحَ إليه في ١٢: ٢٧-٣٣ حين جعلنا نرى يسوع عارفاً بان الساعة الآتية ستكون ساعة تمجيده. فالمناخ مختلف جداً بين يوحنا ومرقس.

دوّن يوحنا انجيله لكي يرينا ان يسوع كلن "الهاً حقاً". اما مرقس، فلقد كتب انجيله لكي يرينا ان يسوع كان "انسانا حقا"، ولم يكن بوسع الوهيته ان "تخفي" انسانيته. فالمسيح بحسب يوحنا يكاد يسحقنا بعظمته الالهية.. ونأمل ان تكون قراءتنا لانجيل مرقس تعيده إلينا اكثر انسانية، وإن كنا لا ننسى بانه في الوقت ذاته "إله حق".

ماري-اميل بوامار

عام ١٩٥٦ في مجلد واحد، واليه ترجع المقدمات التي تصدرت المؤلفات اليوحنانية. كما اسهم في تجديد الترجمة والحواشي والمقدمات لطبعة عام ١٩٩٤.

وإليه يعود الفضل في ظهور "ازائية الاناجيل الأربعة" (٣ أجزاء بالفرنسية: ١٩٦٥، ١٩٧٢، ١٩٧٧) بمعية الاب ب. بنوا، وفيها ادلى بنظريته الشهيرة في المصادر المتعددة والمراحل المتوسطة للأناجيل ...

له مؤلفات عديدة، من أحدثها: هل يمكن أن نتكلم بعد عن قيامة؟ (١٩٩٥)؛ ما قبل تاريخ انجيل مرقس (١٩٩٤)؛ انجيل ما قبل يوحنا (جزءان: ١٩٩٣، ١٩٩٤)؛ أعمال الرسل (٣ أجزاء، بمعية أ. لاموي، ١٩٨٩)؛ حياة الاناجيل: مدخل إلى نقد النصوص (بمعية أ. لاموي، ١٩٨٠)...

توطئة

نشرت مجلة "نور وحياة" في ك١ ١٩٩٢ عدداً بعنوان "يسوع: لغز انسانيته". واوجزها بيير بوهلر في الافتتاحية بهذه الكلمات: "قد محيت انسانية يسوع في التقليد. وهناك دوافع لاهوتية أسهمت في محوها، كالتأكيد الرئيسي بشأن الطبيعتين ووحدانية الشخص. فالشخص الالهي فيه أدى الى تعتيم البشري. ولقد اخفقت محاولة إعادة التوازن عبر الاستعانة بتاريخ التفسير، بعيداً عن تأثير العقيدة: فالكتب التي حكت "سيرة يسوع" لم تصب هدفها".

ليس في نيتنا البتة كتابة "سيرة يسوع" من جديد، وانما السعي، وبكل بساطة، الى ان نفهم بشكل افضل كيف يقدّم مرقس في انجيله يسوع الناصري. فعلى مدى النصوص، سنكتشف انساناً حمّله الله ولا شك رسالة خاصة، الا إنه مع ذلك انسان مع معضلاته، وكفاحاته، ومعانياته، لابل وشكوكه أيضاً وبالتالي إنسان قريب جداً منا. فيسوع الناصري هذا، في واقع إنسانيته التام -وقد سلّط مرقس جيداً الضوء على هذا الواقع- نتمنى ان نجعله يحيا من جديد في أعين القارئ. وفي ختام هذه القراءة سيذهب بنا المطاف الى ان نلقي على انفسنا هذا السؤال: هل كان مرقس يعتقد بأن يسوع هو الله ؟ والجواب الذي سنقدمه على هذا السؤال، ومن دون ان يكون سلبياً بالتمام، سيكون ولا شك متحفظاً.

سنبدأ بقراءة انجيل مرقس، كما نعرفه **الآن**، تاركين جانباً أصوله السابقة ومختلف النظريات التي قدمت لشرح المسألة الازائية[1]. وبغية التبسيط، سنسمّي "مرقس" مؤلف الإنجيل في صيغته الراهنة، حتى في الحالات التي يثبت فيها عدد من المفسرين انه استخدم مصادر سابقة مكتوبة. ولما كان هدفنا توضيح فكرة مرقس عن يسوع، فلن نتوقف في كل مرة لنتساءل إذا كان هذا الكلام او ذاك الذي ينسبه مرقس الى يسوع، أصيلاً أم لا. وانما سيكفينا ان نعتقد بأن مرقس ذاته اعتبر ذلك القول اصيلاً. ومع ذلك سنضطر في بعض الحالات ان نشذ عن هذه القاعدة، حين يبدو لنا من الضروري ان نوضح ما قاله فعلاً يسوع أو عمله.

هذا لا يعني اننا سننساق الى شكل من اشكال الاصولية. فحين كان مرقس يكتب انجيله، كان يعلم جيداً انه مزمع ان يرصّع رواياته بعدد من التفاصيل الواقعية التي ليس لها اية "قيمة تاريخية"، بالمعنى الذي نعطيه اليوم لهذه العبارة. وكان يعلم ايضاً ان قارءه على وعي بذلك. ولكي نصوّر هذا الوضع الذي بوسعه ان يشكك قارئاً معاصراً، أسمح لنفسي ان اقص الحكاية التالية والتي لاغبار على صحتها:

كنت مع احد زملائي في المعهد الكتابي، في سيارة، على الطريق من الكرك الى عمان. وبعد ان عبرنا وادي "مدجب" (عامون)، حدث اننا تجاوزنا اسرة من البدو كانت تتنقّل. إلا ان احدهم -وكان شيخاً أصم- راح يخترق الطريق امامنا فاصطدم بسيارتنا. ويالأسف، فيما كنا ننقله الى مستشفى عمان، توفي. ومن بعد ثلاثة اسابيع كان علينا ان نذهب الى الكرك لنتفاوض مع اسرة البدوي ونجد حلاً لما يسمى "فدية الدم"، طالما نحن امام حادث وفاة. فما ان وصلنا، توجهنا إلى خوري الرعية اللاتيني في هذه المدينة الصغيرة، وهو احد اصدقائنا، وعربي اصيل. لقد كان

---

(١) نعتقد ان انجيل مرقس عرف مرحلتين متتاليتين: ما قبل مرقس، وهو اقصر بكثير من مرقس الحالي، وقد كُيّف وفق تقاليد متاوية ولوقاوية بقلم كاتب يمكن ان يكون لوقا ذاته. انظر م. إ. بوامار: انجيل مرقس، أصوله السابقة ("دراسات بيبلية"، السلسلة الجديدة، رقم ٢٦)، باريس ١٩٩٤.

في محادثة مع عدد من ابناء رعيته. ولدى دخولنا راح يقص عليهم الحادث الذي جرى لنا. وما اعظم ما كانت دهشتنا حين سمعناه يقص الحكاية مضفياً عليها جملة من التفاصيل لا اساس لها! ذلك انه يريد ان يفهم سامعيه أن لا مسؤولية لنا في الحادث، وأن الخطأ كله يقع على كاهل البدوي المسكين -وقد صحّ ذلك، كما اعترفت به محكمة عمان بعد بضعة أشهر.

وهكذا يمكن أن توجد الحقيقة، في عرف الانسان الشرقي، وفق مستويات مختلفة. فهناك ولا ريب حقيقة الواقع في ماديته. ولكن هناك ايضاً الحقيقة التي يتعلق بها تفسير هذا الواقع، أعني المعنى الذي يعطى للحدث المحكي. ولكي نعبر عن هذه الحقيقة التي هي من مستوى مختلف، تلعب تفاصيل الرواية دوراً ذا أهمية. هكذا هي الحال مع كتابة الاناجيل. انها تحكي ولا شك حدثاً قد جرى أكيداً، إلا أن عدداً من التفاصيل في أغلب الاحيان، سيكون الهدف منها، لا ان تعبر عن الواقع الملموس، وانما ان توحي لنا بواقع من مستوى اعلى. ذلك ما فهمه جيداً القديس أوغسطينس: "كل ما نخترعه ليس كذباً. فحين نخترع تفاصيل لا معنى لها البتة، فهناك يكون الكذب. اما حين يتضمن ما اخترعناه معنى ما، فليس هناك كذب، وانما شكل من اشكال التعبير عن الحقيقة [...]. يمكن إذن ان نخترع، لا أقوالاً حسب، بل افعالاً أيضاً، طالما ان الهدف هو ابراز المعنى الذي ينطوي على واقع ما"[1].

يتوجب علينا، إذن، ان نقرأ انجيل مرقس، لا بعقليتنا الغربية في القرن ٢٠ -حين نعتقد بأن رواية ما، تصبح قريبة من الحقيقة التاريخية، اذا كانت تفاصيلها تعكس بامانة الاحداث في واقعها المادي- وانما بعقلية الشرقي الذي يعتبر تفاصيل الرواية، غالباً ما تصبح في خدمة واقع هو من مستوى لاهوتي. لذا لا يسوغ

---

(١) اوغسطينس: مسائل انجيلية ٢: ١١، وقد استشهد بهذا النص القديس توما الاكويني في الخلاصة اللاهوتية ٣، ١، ٥، ٤ Ad Primum.

لنا ان تأخذنا الدهشة إذا كان الوشاح الادبي لكثير من الراويات قد استعار مفردات من هذه الرواية أو تلك من روايات العهد القديم. فما ذلك إلا لاظهار يسوع، على سبيل المثال، بمثابة موسى جديد أو ايليا جديد!

في غضون قراءتنا هذه لانجيل مرقس، سيصل بنا المطاف الى ان نطرح على انفسنا عدداً من الاسئلة: هل كان ليسوع اخوة واخوات بالمعنى الحصري لهذه المفردات، ام كان له فقط ابناء عم أو خال ...؟ هل كثّر في الواقع الخبزات وسكّن العواصف؟ هل كانت كلمات يسوع: "هذا هو جسدي" و"هذا هو دمي" تفترض، بالنسبة الى مرقس، تحويلاً فيزيائياً من الخبز والخمر الى جسد المسيح ودمه؟ ولمّا كنا نخاطب بالغين، سنضع في متناول قرائنا، ومن دون أن نجزم نحن باتجاه ما، العناصر التي تمكنهم من اعطاء اجوبة، ايجابية كانت ام سلبية، عن هذه الاسئلة المختلفة ... إلا إذا ارتضوا البقاء في الشك.

ارفع شكري الى الأخ ارنو لاموي الدومنيكي الذي افادني بملاحظات قيمة لتحسين او استكمال عدد من الفقرات. كما اني مدين ايضاً الى الاخ جوستان تايلور s. m. الذي ساعدتني مشوراته، ولا سيما في كتابة الملحق عن الافخارستيا. وشكري الاخير الى الاخ رنو ايسكاند الدومنيكي. الذي ارتضى ان يعيد قراءة الكتاب لتصحيح اخطائه الطباعية.

آية

بمثابة مقدمة

آية المقدمة

(مر ١:١)

"بدء انجيل يسوع، المسيح، ابن الله". هذه الآية التي قلّما فهمها المفسّرون، تعلن احد المواضيع الكبرى التي سيتم التوسع فيها على مدى الانجيل: ملوكية يسوع التي بوسعها ان تُمارَس بالرغم من موته.

• إنجيل يسوع

كلمة "إنجيل" ذات الرنة البولسية، هي انعكاس لكلمة "ايواكّيليون" التي تعني "خبراً ساراً". فما هو هذا الخبر السار الذي سيعلنه يسوع، هو الآول (مر ١:١٤)، والذي سيتوجب على تلاميذه ان يعلنوه من بعده (مر١٣: ١٠؛ ١٤: ٩)؟ انه مجيء ملكوت الله القريب، كما يقول متى بشكل واضح: كان يسوع يسير في الجليل "ويعلن بشارة الملكوت"(متى٤: ٢٣؛ ٩: ٣٥؛ انظر ٢٤: ١٤). ومرقس يفترض ذلك ايضاً حين يقول ان يسوع جاء الى الجليل "يعلن بشارة الله ويقول: حان الوقت، واقترب ملكوت الله" (مر١: ١٤-١٥).

لماذا يُعتَبر الاعلان عن مجيء ملكوت الله خبراً "ساراً"؟ ذلك لأن مجيء هذا الملكوت سيحرر البشرية من كل قوى الشر. وسنعود بالتفصيل إلى هذه النقطة الرئيسة. ويكفينا هنا أن نحيل القارئ الى نص اش٦١: ١ت. لا نجد فيه ولا شبك

كلمة "انجيل"، إلا انه يحتوي على فعل "بشّر" الذي هو في أصل الاسم:

"روح السيد الرب عليّ، لأن الرب مسحني وارسلني لأبشر الفقراء، واجبر منكسري القلوب، وانادي بافراج عن المسبيين وبتخلية للمأسورين ..."

وبحسب لو ٤: ١٨-١٩، انه النص ذاته الذي قرأه يسوع في مجمع الناصرة حين بدأ حياته العلنية. فيسوع يعي، إذن، ان الله اختاره لتحقيق عمل التحرير هذا. ذلك، في الواقع، ما يعنيه اسمه، يسوع: "الله يخلص" (انظر متى ١: ٢١).

فمرقس، ومنذ الكلمة الثانية من انجيله، يوجّه فكر قارئه نحو موضوع ملكوت الله. وسوف يوضح للحال بان يسوع، في المخطط الالهي، هو الملك في هذا الملكوت الجديد.

• "مسيح" لقب "ملوكي"

خلافاً لما اعتادته الترجمات الفرنسية (والعربية ايضاً)، ينبغي ان توضع فاصلة بين كلمتي "يسوع" و "مسيح"، بحيث يتضح ان هذه الكلمة الثانية هي في الواقع لقب أعطي ليسوع، وهو لقب "ملوكي" كما سنرى.

وكلمة "مسيح" تكتفي بأداء (وليس ترجمة) الكلمة اليونانية "Christos خريستوس" وهي، بحسب الترجمة السبعينية، تترجم صيغة المفعول من الفعل العبري "مِشْيَح" (مسح). هذا الاداء اليوناني (وليس الترجمة) لصيغة المفعول العبري اعطى كلمة"مسّيا" -ومن هنا الكلمة الفرنسية Messie[1] (انظر يو١: ٤١). والمسحة كانت تتم بواسطة زيت كُرّس خصيصاً لهذه الغاية، كما يوضح نص سفر الخروج (٣٠: ٢٢-٣٣).

---

(١) يؤكد المؤلف ان لكلمتي Christ و Messie معنى واحدا طالما انهما تشيران إلى فكرة "الممسوح" اعني الذي "مسحه" الله. ومن هنا كان اشتقاق لفظة "مسيح" بالعربية (المعرب).

فمن بين كل الذين كان بوسعهم ان يُكرَّسوا بالزيت المقدس، يأتي الملوك في المنزلة الرئيسة، والتي سرعان ما ستصبح الوحيدة، لأن الله اختارهم ليقودوا شعبه. وكان الاول في هذه السلالة الملكية، شاول:

"فأخذ صموئيل قارورة الزيت وصبّ على رأسه وقبّله وقال: أما ان الرب قد مسحك قائداً على ميراثه؟ [فأنت الذي تحكم الشعب وتنقذه من اعدائه المحيطين به]" (١صم ١٠: ١).

ومع هذا النص الاول نرى ان دور هذا الرئيس يكمن في تحقيق النجاة لشعب الله الذي استعبده اعداؤه. ومن بعد شاول، يأتي دور داود:

"وقال الرب لصموئيل: الى متى تحزن على شاول، وانا قد نبذته كملك على اسرائيل؟ فاملأ قرنك زيتا وتعال ارسلك الى يسى من بيت لحم ، لاني قد اخترت لي من بنيه ملكا" (١صم ١٦: ١).

فابن يسى هو داود الذي صب صموئيل على رأسه الزيت من القارورة التي حملها، ومسحه لينصبه ملكا على شعب الله (١صم ١٦: ١٣).

وهكذا سيكون الحال لسليمان (١ مل ١: ٣٩) ولكل الملوك الذين سيخلفونه.

فالملك هو، اذن، "ممسوح" باسم الله. وبعبارة اكثر وضوحا، سيجري الحديث عنه كما عن ذاك "الممسوح" بالدرجة الاولى.

وداود لم يشأ أن يمد يده على شاول، وإن سمحت له الفرص، لأنه، على حد قوله، "مشيح يهوه" (١صم ٢٤: ٧؛ ٢٦: ٩). وشمعي، حين لعن داود، اقترف جريمة تستحق الموت، ذلك لانه "لعن مشيح يهوه" (٢صم ١٩: ٢٢). فالملك، كائنا من كان، هو بالدرجة الاولى مشيح يهوه. ونجد تعبيرا جيدا عن هذه الفكرة في المزمور الثاني الذي ستكون له اهمية كبرى في شروحاتنا المقبلة.

"لماذا ارتجت الامم، وبالباطل تمتمت الشعوب؟
ملوك الارض قاموا، والعظماء على الرب ومسيحه تآمروا [...]
الساكن في السموات يضحك، والسيد بهم يهزأ
بغضبه حينئذ يخاطبهم، وبسخطه يروعهم:
اني مسحت ملكي على جبلي المقدس صهيون" (مز٢: ١-٦)

ان لمفردات "ممسوح" و"ملك" وزنا واحدا: فالملك هو، بالدرجة الاولى، الممسوح. ولقد سبق ان قلنا ان كلمتي "ممسوح" و "مسيح" (Christ) ليسا سوى طريقتين لترجمة الكلمة العبرية ذاتها "مشيح" -والطريقة الثانية تمت عبر اليونانية.

لقد فقد في الغالب لقب "مسيح" معناه الاول، لنا نحن قراء القرن العشرين! فلطالما اعتدنا ان نراه ملتصقا باسم يسوع حتى اننا غالبا ما لا نشعر البتة انه لقب، بل كأنه شبه اسم علم! فنقول "يسوع المسيح" كما نقول "نابليون بونابارت". وحتى حين نؤكد ان يسوع هو "المشيح" او "المسيح"، فانما نجعل من هذين اللقبين مرادفين لكلمة "مخلص": كأن يسوع هو المسيح، بمعنى انه افتدانا من خطايانا وخلصنا من الموت الابدي! قد لا تكون هذه الفكرة خاطئة، ولكنها ثانوية كما سنرى فيما بعد. فالفكرة الاولى تقوم في ان يسوع هو ذاك الذي مسحه الله بصفة ملك على شعبه. انه المعنى الذي قصده مرقس بالتأكيد في هذه الآية الاولى من انجيله.

ويعرف مرقس حق المعرفة هذه المماثلة بين اللقبين. فها هو يحمل رؤساء الكهنة، الساخرين من يسوع المصلوب، على القول: "ليترل الآن عن الصليب المسيح [الممسوح]، ملك اسرائيل، لكي نرى ونؤمن" (مر١٥: ٣٢). وهكذا، فيما وضع متى (١٧:٢٧) على لسان بيلاطس عبارة "يسوع الذي يقال له المسيح [الممسوح]"، آثر مرقس (١٥: ٩) تفسيرها فكتب: "ملك اليهود". ولنذكر ايضا ان رؤساء الكهنة، في لوقا (٢٣: ٢)، يتهمون يسوع بانه ادعى كونه "المسيح،

الملك". اما أن يفترض لقب "المسوح" ملوكية يسوع ايضا لدى مرقس (١:١)، فلنا برهان على ذلك في المعنى الذي وجدناه في لفظة "انجيل"، والتي طعّم عليها هذا اللقب: انها الخبر السار بمجيء الوشيك للملكوت الذي سيعهده الله الى يسوع من الناصرة. وسنرى بالمقابل كيف سيقدم مرقس مشهد عماذ يسوع (١: ٩-١١) بمثابة تنصيبه الملوكي.

• ابن الله

هل نحن، ومنذ الآية الاولى من انجيل مرقس، بازاء تأكيد على الوهية المسيح، كما يعتقد عدد من المفسرين؟ قد لا يكون الامر كذلك. فسوف نرى في العهد القديم كيف ان رجالا (أو ملائكة) في معظم الاحيان ، أعتبروا "ابناء الله"، ولكن مع تلك الخصوصية الرئيسة في كون هذه العبارة تفترض حماية خاصة من قبل الله تجاه الشخص او الاشخاص الذين يعتبرهم ابناءه. وسنرى من ثم اننا بازاء شيء مماثل مع فاتحة انجيل مرقس.

عديدة هي نصوص العهد القديم التي فيها نرى الله يريد ان يخلص شعبه، لأنه يعتبره -لكونه جماعة- بمثابة ابنه. ولن نستعرض سوى عدد من النصوص الاكثر تميزا. فقبل الخروج يهدد الله فرعون بهذه العبارات:

"كذا قال الرب: اسرائيل هو ابني البكر. قلت لك: أطلق ابني ليعبدني، وإن ابيت ان تطلقه، فهاءنذا قاتل ابنك البكر" (خر٤: ٢٢-٢٣).

وبعد بضعة قرون يعلن النبي ارميا، أولا عودة مواطنيه الذين جلوا إلى اشور: "يهوه خلص شعبه، بقية اسرائيل". ومن ثم يبلغ هذا الوعد الالهي:

"هاءنذا أعيدهم من ارض الشمال واجمعهم من اطراف الارض [...] يأتون باكين وأهديهم متضرعين [...] لأني أب لاسرائيل، وافرائيم بكر لي" (٣١: ٨-٩).

وفي زمن اكثر بعدا، على مشارف العصر المسيحي، يذكر كاتب سفر الحكمة بمعجزات الخروج، ويكتب مرجعا صدى النص الاول الذي قرأناه اعلاه:

"وبعد أن أبوا بسبب السحر ان يؤمنوا بشيء، اعترفوا عند هلاك الابكار بأن هذا الشعب هو ابن الله" (حك ١٨: ١٣).

ولما كان الله قد كون شعبه، لا بل خلقه، فهو يعتبره بمثابة ابنه، ويحبه كما يحب أب ابنه. ولما كان الله يعتبر شعبه بمثابة ابنه، فهو بالتالي يخلصه في وقت الخطر.

إلا ان هذه العلاقة بين الاب والابن، سنجدها دوما في العهد القديم مشخصة بالنسبة الى بعض الشخصيات المتميزة، وفي المقدمة الملك الذي اقامه الله ليقود شعبه ويمثله لديه. وهكذا نجد في ٢صم ٧: ٩-١٦ كيف يأمر الله النبي ناثان ان يبلغ الملك داود هذه الرسالة:

"كنت معك حيثما سرت، وقرضت جميع اعدائك من امامك، وسأقيم لك اسما عظيما كاسماء العظماء الذين في الارض [...] سأريحك من جميع اعدائك. وقد اخبرك الرب انه سيقيم لك بيتا. وإذا تمت ايامك واضطجعت مع آبائك، أقيم من يخلفك من نسلك الذي يخرج من صلبك، (وأثبت ملكه. فهو يبني بيتا لاسمي). وانا اثبت عرش ملكه للابد. انا اكون له أبا وهو يكون لي ابنا. وإذا أثم اؤدبه بقضيب الناس وبضربات بني البشر. واما رحمتي فلا تنزع عنه، كما نزعتها من شاول الذي ابعدته من امام وجهك . بل يكون بيتك وملكك ثابتين للابد امام وجهي، وعرشك يكون راسخا للأبد". (٢صم ٧: ٩-١٦).

هذه النبوة الموجهة الى داود تخص بالاكثر نسله: كل الذين خرجوا منه سيدعون إلى ان يملكوا بعده. وسيقيم الله مع كل واحد من خلفائه عهدا خاصا: "انا اكون له ابا، وهو يكون لي ابنا". انه طقس التبني المعروف في الشرق القديم. ذلك ان إله شعب ما، كان يتبنى ملك ذاك الشعب، وبالتالي يتعهد بحمايته. وهذا ما

يعبر عنه هذا القول النبوي. فالله سيكون "معه" أي مع سليل داود، كما كان مع داود (آ٩)، كي ينقذه من اعدائه (آ١٠). وبالنتيجة سيكون عرشه ثابتا للأبد. ان هذا الوعد بالحماية والذي عبر عنه مباشرة قبل اعلان التبني (آ١٣) يتكرر في خاتمة القول النبوي، وبصيغة مضاعفة، للتأكيد على ابهته: "يكون بيتك وملكك ثابتين للابد امام وجهي، وعرشك يكون راسخا للابد" (آ١٦).

ان علاقة "الأب/الابن" التي تربط بين الله والملوك من نسل داود تعبر عن معاهدة حقيقية: فالملك سيتوجب عليه العمل وفقا لارادة الله، وبالمقابل سيلتزم الله بحماية الملك ضد كل اعدائه، بحيث ان عرشه يدوم الى الابد. انها بنود العهد ذاتها بين الله وشعبه: فالشعب كان يتعهد بحفظ الشريعة الالهية، وبالمقابل كان الله يعد بحماية شعبه (خر ١٩: ٣-٨؛ ٣٤: ١٠-١١). ومما لاشك فيه انه إذا لم يسلك الملك حسنا، كان بوسع الله ان يعاقبه، كما يصلح الاب ابنه (آ ١٤ب)، علما بأن مثل هذا الامتحان هو امتحان عابر. ذلك لأن الله تبنى الملك بصفة "ابن"، ولذا فهو يحميه من كل اعدائه.

ماذا بقي من هذه المواعيد ابان الجلاء الى بابل؟ لا شيء على ما يبدو! وسيشتكي بمرارة كاتب المزمور ٨٩ الى الله، مذكرا بالمواعيد التي قطعت لداود بواسطة النبي ناثان:

"وجدت داود عبدي ومسحته بزيت قداستي، معه تثبت يدي، وذراعي ايضا تقويه [...] وأسحق من امام وجهه مضايقيه، واضرب مبغضيه" (آ٢١-٢٤).

لماذا كان على الله ان يحمي داود؟ لانه يحبه كما يحب الاب ابنه. فالمزمر، حين يتطرق الى موضوع الحب، يفسر ما كانت تحتويه ضمنيا نبوة ناثان:

"معه امانتي ورحمتي، وباسمي تعتز قوته. فأجعل على البحر يده، وعلى الانهار يمينه. يدعوني قائلا: انت أبي والهي وصخرة خلاصي. وانا اجعله بكرا

فوق ملوك الارض عليا [...] للابد احفظ له رحمتي، وابقى امينا لعهدي. اجعل نسله ابديا، وعرشه مثل ايام السماء" (آ٢٥-٣٠).

انه ايضا الموضوع الذي يتوسع به المزمور الثاني. فالامم تتحرك، والملوك يثورون على الله، وعلى مسيحه، هذا الذي وسمه بمسحته الملوكية (آ ١-٢). فكلن على الله، في غضبه، ان يعلن بشكل احتفالي: "انا الذي كرست قلبي على صهيون جبلي المقدس". وحينئذ يبادر الملك ذاته الى الكلام ليعلن قرار الله:

"قال لي: انت ابني

وانا اليوم ولدتك

سلني فأعطيك الامم ميراثا

واقاصي الارض ملكا

بعصا من حديد تكسرهم

وكإناء خزاف تحطمهم" (آ٩-١١).

ففي الوقت ذاته الذي يكرس الله ملكه على صهيون، يعلن عن كونه ابنه، فقد ولده في اليوم الذي فيه أقامه ملكا. ولذا فهو يهب له القدرة على ان يكسر كل الذين ثاروا عليه، لكي يوطد ملكه الى الابد.

ومع نص حك ٢: ١٦-٢٠ تتسع الرؤية. فلسنا بصدد العلاقات بين الله والملك الذي كرسه على شعبه، وانما بصدد العلاقة بين الله والبار الذي يحفظ الشريعة الالهية. ذلك ان البار يتعرض لكراهية الكافرين، كونه ينتقد سلوكيتهم التي تهزأ بكل شرائع الله. ولذا يهزأ به الكافرون بهذه العبارات:

"أمسينا في عينيه شيئا مزيفا ويتجنب طرقنا تجنب النجاسات. يغبط آخرة الابرار ويتباهى بأن الله ابوه. فلننظر هل اقواله صادقة، ولنختبر كيف تكون عاقبته. فان كان البار ابن الله، فهو ينصره وينقذه من ايدي مقاوميه. فلنمتحنه

بالشتم والتعذيب لكي نعرف حلمه ونختبر صبره، ولنحكم عليه بميتة عار، فانه سيفتقد بحسب اقواله".

وبوضوح اكبر مما في النبوات الملوكية التي قرأناها الآن، نجد أن لقب "ابن الله" يفترض حماية الهية. فالله يلتزم بانقاذ البار من ايدي اعدائه الذين يستهدفون حياته، كونه "اباه". إلا ان الكافرين لا يفهمون ان البار، وإن قتل، فموته ليس سوى موت في الظاهر، ذلك لأن الله يمنحه القدرة على مواصلة حياته، تلك الحياة الحقة، بواسطة نفسه:

"اما نفوس الابرار فهي بيد الله فلا يمسها اي عذاب. في اعين الاغبياء يبدو انهم ماتوا وحسب ذهابهم مصيبة، ورحيلهم عنا كارثة، لكنهم في سلام. وإذا كانوا في اعين الناس قد عوقبوا، فرجاؤهم كان مملوءا خلودا" (حك ٣: ١-٤).

هذه الآيات كتبت الى حد ما في اطار رؤية افلاطونية (انظر حك ٩: ١٥). فالموت الطبيعي، انما هو موت ظاهري طالما ان النفس البشرية، لدى تركها الجسد، ستذهب بالتالي عند الله. وهذا يعني ان الله، بالرغم من الظواهر، سيخلص ذاك الذي قتله الكافرون.

على هذا النحو نجد ان لقب "ابن الله"، في العهد القديم، ليس له ذلك المعنى المتسامي، ولا يفترض مشاركة الانسان، سواء كان ملكا ام صديقا، في الطبيعة الالهية. فهو انما يعني ان مثل هذا الانسان، ملكا كان ام صديقا، قد تبناه الله الذي يلتزم بحمايته. إنه بالتالي لقب لا ينطبق إلا على الانسان، ولكونه انسانا.. انسانا يستدعي ضعفه حماية الله.

ماذا، اذن، من العبارة التي وردت في مر ١: ١؟ هل تفترض الوهية المسيح؟ ليس الامر بهذا الوضوح. ويبدو ان معناها لا يتجاوز المعنى الذي لها في العهد القديم.

ففي هذه الآية بالذات نجد ان لقبي "المسيح" و "ابن الله" متحدان بشكل وثيق ويُصديان للمزمور الثاني الذي يعلن فيه الله لمسيحه (الممسوح: آ٢): "انت ابني، وانا اليوم ولدتك" (آ٧). وان هذا الإصداء للمزمور (٢: ٢، ٧) يبدو محتملا جدا، حين نعلم ان الآية (٧) بالذات من المزمور ستكرر في مر ١: ١١ في مشهد عماذ يسوع، حين سيعلن له الصوت السماوي: "انت ابني". اما أن نؤكد بأن مرقس اعطى لعبارة "ابن الله" معنى اكثر عمقا من المعنى الذي لها في المزمور الثاني، فذلك يتطلب ان تكون هناك دوافع ذات اهمية كبرى.

وفي الواقع، وعلى العكس، لدينا مؤشر واضح عن كون مرقس التزم المعنى الذي كان للعبارة في العهد القديم. ففي نهاية انجيله تقريبا، ينقل فعل ايمان قائد المئة الروماني، في الوقت الذي فيه اسلم المسيح الروح على الصليب: "كان هذا الرجل ابن الله حقا" (مر ١٥: ٣٩؛ انظر متى ٢٧: ٥٤). هل كان بوسع مرقس ان يجعل وثنيا يعلن الوهية المسيح؟ اما لوقا، فإذ أستشف الخطر المحيط بمثل هذا التفسير للنص، عمد الى تغيير المفردات: "حقا هذا الرجل كان بارا" (لو ٢٣: ٤٧). دائما اقدم لوقا على هذا الاستبدال برجوعه الى نص حك ٢: ١٨: "إذا كان البار ابنا لله فهو ينصره". وهكذا على غرار سفر الحكمة، تؤكد عبارة "ابن الله" ان المسيح المنازع على الصليب، بالرغم من الظواهر، يبقى تحت حماية الله: انه وعد خفي بقيامته القريبة، كما سيشير الى ذلك اكتشاف القبر فارغا .. وليس تأكيدا على الوهيته.

ولنضف ملاحظة: لو استعرضنا انجيل مرقس برمته، فلن نجد اي نص يلمح الى الوهية يسوع. فلو كان مرقس قد شاء التأكيد على هذه الالوهية مع اول آية من انجيله، فكيف نفسر انه اهمل الاشارة اليها حين اخذ يقص حياة بطله؟

• معنى مر ١:١

واصبح الآن بمقدورنا ان نوضح معنى الآية الاولى من انجيل مرقس: "بدء انجيل يسوع، المسيح، ابن الله".

ان كلمة "انجيل" توحي بالمجيء القريب لملكوت الله. ويسوع سيكون الملك الحقيقي لهذا الملكوت على الارض، طالما ان الله مسحه، وطالما انه مشيح الله، المسيح. وللحال نجدنا في مفارقة: كيف سيتمكن يسوع من ان يملك ما دام سيموت على الصليب؟ لا يقلقن قارئ الانجيل: فيسوع هو ايضا "ابن الله"، وهو اللقب الذي يفترض حماية الله الفاعلة لذاك الذي تبناه. ولقب "ابن الله" هو وعد للحياة بالرغم من الموت على الصليب.

وهكذا يصبح من اليسير ان نرى كيف تعلن هذه الآية الاولى من الانجيل المخطط العام. فيسوع، في هذا المخطط، يتلقى لقبين:"مسيح" و "ابن الله". وكل القسم الاول، من ١: ٤ الى ٩: ٨، سيكون الهدف منه الدعوة الى الفهم، تدريجيا، بأن يسوع هو حقا مشيح الله، المسيح. وستكون القمة في هذا القسم اعلان ايمان بطرس في قيصرية فيلبس:"انت المسيح" (٨: ٢٧-٣٠). وسيكون الهدف من مشهد التجلي (٩: ١-٨) المصادقة على اعلان الايمان هذا. اما القسم الثاني، من ٩: ٩ الى ١٦: ٨، فسيتناول التضاد الذي نوهنا عنه: فيسوع، وقد سلم الى أعدائه، سيلاقي حتفه. غير ان اعتراف قائد المئة الروماني "كان هذا الرجل ابن الله" (١٥: ٣٩) تدع المجال مفتوحا بأن الله لن يترك المسيح في قبضة الموت (كما في حك ٢: ١٨)، وذلك اعلان خفي عن القيامة. وستحمل رواية اكتشاف القبر فارغا (١٦: ١-٨) التأكيد على ذلك.

الفصل الأول

من هو يسوع ؟

- ١ -

يوحنا المعمذان

(١: ٢-٨)

نجد وجه يوحنا المعمذان معروضا في الاناجيل بشكل مختلف وعسير، وليس في نيتنا مناقشة هذه المسالة. سيكفي أن نبرز نقطتين هامتين تعكسان العلاقة بين المعمذان ويسوع، وذلك في الآيتين (٧ و ٨).

• يسوع تلميذ المعمذان

في الآية (٧) يقول يوحنا المعمذان عن يسوع: "يأتي بعدي من هو اقوى مني، من لست اهلا لأن أنحني فأفك رباط حذائه".

يعتقد كثير من المفسرين ان يسوع، قبل ان يباشر رسالته العلنية، كان تلميذا ليوحنا المعمذان. وانجيل يوحنا يقولها بصراحة حيث نقرأ في ٣: ٢٦: "فجاءوا (تلاميذ المعمذان) الى يوحنا وقالوا له: رابي، ذاك الذي كان معك في عبر الأردن، ذاك الذي شهدت له، ها إنه يعمذ فيذهب اليه جميع الناس". فيسوع كان إذن منتميا الى جماعة تلاميذ يوحنا. الا أنه انفصل عن هذه الجماعة لكي يطير بجناحيه. انه يعمذ بدوره كما كان يفعل يوحنا، وهوذا زملاؤه القدامى يحسدونه.

من المحتمل ايضا ان تكون الجملة التي قالها المعمذان في يو ٣: ٣٠ قد احتوت لعبا على الكلمات يستحيل اداؤه في اليونانية او الفرنسية: "لابد له من ان يكبر،

ولابد لي من ان اصغر". فيوحنا كان "رابي" (آ ٢٦)، وهذا اللقب يعني "كبيري". وحين تترجم الى الآرامية، وهي اللغة التي كان يتكلمها المعمذان، فالعبارة التي قالها في الآية ٣٠ يحتمل ان تكون هكذا: "يجب ان يكون هو كبيرا، وعلي انا ان اصبح صغيرا". وهكذا تنقلب الادوار. فمن تلميذ، يصبح يسوع "كبيرا": وسيحق له ان يحصل على لقب "رابي" اي "كبيري". انه سيأخذ مكان المعمذان، و لم يكن سوى تلميذه الى حد الان. ويحتمل ان يكون هناك لعب على الكلمات في مشهد مشابه نقرأه في يو ١٥:١-٣٠: "ان الآتي بعدي قد تقدمني". فبحسب العادات اليهودية، كان تلاميذ احد الربابنة يمشون وراءه كي يحملوا الالواح ويؤدوا له بعض الخدمات. وهكذا الحال مع يسوع الذي كان يمشي وراء يوحنا بصفة تلميذ متأهب لتقديم خدماته. الا أنه مشى "امامه": وهو منذ الآن "الرابي"! وقد نجد صدى لهذه الحركة في المشاهد، في مر ١: ٧: "يأتي بعدي من هو اقوى مني [...]". فيسوع كان يسير "وراء" يوحنا، كالتلميذ وراء معلمه.

• يسوع سيعمذ بالروح القدس

في الآية (٨) يوضح المعمذان بأي معنى سيصبح يسوع "اقوى" منه: "انا عمذتكم بالماء، واما هو فيعمذكم بالروح القدس". ولما كان يسوع قد جاء لانشاء ملكوت الله، فبوسع قارئ مرقس ان يفهم بيسر بأن الروح القدس هو الذي سيصبح روح هذا الملكوت ومبدأه الديناميكي.

هذا ماسيرينا اياه المشهد التالي، وهذا ايضا ما سيكشفه لوقا بشكل بديهي في سفر اعمال الرسل (٢: ١ ت).

ـ ٢ ـ

عماذ يسوع

(١: ٩-١١)

هنا تبدأ حياة يسوع العلنية. الا أن مرقس لايقدم لنا اية معلومات دقيقة في ما يتعلق بتاريخ الحدث الذي يرويه. فالصيغة المألوفة "في تلك الايام" تعيدنا فقط الى الزمن الذي كان فيه يوحنا يعمذ في البرية ويعلن مجيء شخص اكبر منه (١: ٤ – ٦).

ماهو المعنى الذي يعطيه مرقس لهذا المشهد؟ ماذا حدث في الواقع؟ هذان هما السؤالان اللذان ينبغي ان نجيب عنهما. وهما مشروطان بالحدثين الرئيسين اللذين رواهما مرقس: الاول، نزول الروح على يسوع في الآية ١٠، "وفيما هو خارج من الماء، رأى السموات تنشق، والروح يترل عليه كأنه حمامة"؛ والثاني في الآية ١٨، هو الصوت "الآتي من السموات" والموجه الى يسوع بهذه العبارات: "انت ابني الحبيب، عنك رضيت".

• معنى المشهد

ان مشهد عماذ المسيح على يد يوحنا، في نظر مرقس، يحدد قبل كل شيء تنصيبه ملكا لشعب الله الجديد. انه تحقيق لما كان الانجيلي يعلنه في آية المقدمة "بدء انجيل يسوع، المسيح، ابن الله". ولقد رأينا (انظر اعلاه: فقرة "ابن الله") بأن مرقس، حين كتب هذه الآية، كان يشير الى المزمور الثاني –وهو مزمور تنصيب ملوكي.

وهنا نجد الصوت السماوي يتوجه الى يسوع ليقول له: "انت ابـــني [...]". انـــه استشهاد بالمزمور٢: ٧: "أُعلنُ حكم الرب: قال لي: **انت ابني**، وانا اليوم ولدتك". ولوقا حين رجع الى رواية مرقس، سعى الى جعل هذا المرجع من المزمـــور اكـــثر وضوحاً، إذ اكمل مضمون الصوت السماوي، مستشهداً بالآية كاملة: "انت ابـــني الحبيب، وانا اليوم ولدتك" (لوقا ٣: ٢٢)[1].

من جهة اخرى، ما ان يقتبل الملك المسحة بالزيت، كان يحصل علـــى روح الله الذي من شأنه ان يساعده لقيادة شعبه جيداً. على هذا النحو قيل عن داود:

"فاخذ صموئيل قرن الزيت، ومسحه في وسط اخوته، فانقض روح الرب على داود من ذلك اليوم فصاعداً" (١صم ١٦: ٣).

وإذا لم يقلها مرقس بشكل واضح، إلا ان هناك نصوصاً عديدة تدعونـــا الى اعتبار نزول الروح على يسوع كونه نتيجة مسحة إلهية. فلوقا في سفر الاعمـــال، إذ يلمح الى مشهد العماذ هذا، يجعل علـــى لســـان بطـــرس هـــذه العبـــارة: "... في شأن يسوع الناصري، كيف ان الله مسحه بالروح القـــدس والقـــدرة [...]" (رسل ١٠: ٣٨). ولنرجع ايضاً الى نبؤة اشعيا ٦١: ١: "روح الرب عليّ، لانـــه مسحني، وارسلني لابشّر الفقراء [...]" (انظر مر ١:١). ويمكننا ان نعتقد بأن الملء الذي سكبه يوحنا على رأس يسوع في العماذ، يحل، في نظر مرقس، محـــل هـــذه المسحة بالزيت التي كانت تستمطر فيضان الروح على الملك الذي اختاره الله.

ولنذكر ايضاً تفصيلاً صغيراً من رواية مرقس. ففيما يتكلم متى ولوقا عـــن سماوات تنفتح، يقول مرقس ان يسوع رأى السموات قد **انشقّت**، والروح **ينـــزل** عليه. وفي ذلك تحقيق للأمنية المعبَّر عنها في اشعيا ٦٣: ١٩: "من زمـــن بعيـــد لم

---

(١) يشير المؤلف الى ان طبعة اورشليم والترجمة المسكونية الفرنسيتين أحسنتا هنا تبنّـــي النص الغربي كما جاء في المخطوطات. بينما عكس النص الاسكندري توافقا بيـــن لوقا ومرقس- وهو ما نقرأه في ترجماتنا العربية التي لا تحمل عبارة "وانـــا اليـــوم ولدتك". (المعرب).

تتسلط علينا، و لم نُدعَ باسمك . ليتك تشق السموات وتنزل [...]". فالله، بارساله روحه، اجاب الى هذا الانتظار لدى اسرائيل. وهكذا ينصَّب يسوع ملكاً لهذا الملكوت الجديد على الارض، في انتظار ان يعيده الى الآب في نهاية الازمنة (انظر ١ قور ١٥: ٢٤-٢٨).

ويسوع لدى عماذه، لم يُكرَّس ملكاً لشعب الله الجديد حسب، وانما نُصِّب ايضاً نبياً للأزمنة الجديدة. فالصوت الالهي يعلن له بالفعل: "انت ابني الحبيب، عنك رضيت". وإذا اعادنا القسم الاول من هذا القول الى المزمور ٢: ٧، فالقسم الثاني منه يلمح الى نص اش٤٢: ١، كما كان يُقرأ، لا بالعبرية ولا بحسب الترجمة السبعينية، وانما كما في (متى ١٢: ١٨). ولنثبت حرفياً وبالكامل هذا النص من اشعيا كما جاء في انجيل متى ١٢: ١٨-٢١:

١٨. هوذا عبدي الذي اخترتُه
حبيبي الذي عنه رضيت
سأجعل روحي عليه
فيبشر الأمم بالحق
١٩. لن يُخاصم ولن يصيح
ولن يسمع أحد صوته في الساحات
٢٠. القصبة المرضوضة لن يكسرها
والفتيلة المدخنة لن يطفئها
حتى يسير بالحق الى النصر
٢١. وفي اسمه تجعل الامم رجاءها.

من الواضح، ابان عماذ يسوع، ان يستعيد الصوت السماوي نص

اش ٤٢: ١ الذي برّزناه. وهذا التلميح الى اشعيا -وقد تبناه الصوت- استكمل بذكر موهبة الروح ليسوع.

وهكذا يترتب على يسوع ان ينجز المهمة الموكلة الى عبد يهوه، بحسب اش ٤٢: ١-٤: عليه ان يعلن للأمم حق الله ويسير به الى النصر. ولقد جاء في هامش من طبعة اورشليم (الفرنسية) بشأن متى ١٢: ١٨ بأن هذا الحق الالهي "ينظم علاقات الله مع البشر، ويُعبرَّ عنه بشكل رئيس عبر الوحي والديانة الحقة التي تنتج عنه". إلا ان التقليد البيبلي ينسب الى الانبياء مهمة اعلان حق الله والدعوة الى احترامه. وهكذا يتضح ان يسوع قد نُصب هنا "نبياً"، اعني ذاك الذي سيتكلم باسم الله. ألم يقل الله لموسى: "والآن فاذهب، فاني اكون مع فمك، واعلّمك ما تتكلم به" (خر٤: ١٢).

ولمزيد من الوضوح نرى ان رسالته ستتوجه الى الشعوب الوثنية، كما قالها اش ٤٩: ٦: "اني قد جعلتك نورا للأمم (الوثنية) ليبلغ خلاصي الى اقاصي الارض" (انظر رسل ١٣: ٤٧). وسيتذكر مرقس كل هذه النصوص حين سيجعل المسيح يقول: قبل نهاية العالم "يجب ان تعلن البشارة أولاً لجميع الامم (الوثنية)" (مر١٣: ١٠).

فيسوع قد نُصّب هنا ملكاً ونبياً للملكوت الجديد. وهذان الوجهان سيطبعان ماجريات القسم الاول برمته من انجيل مرقس، كما سنرى ذلك بمقدار ما نتقدم في قراءة هذا المؤلّف.

وتجب الملاحظة اخيراً الى ان هذا المشهد، اراده مرقس بمثابة وحي يكون يسوع قد تلقاه بشأن الرسالة التي تسلّمها من الله.

فبالرغم من حضور جمع كبير (انظر ١: ٤-٥)، وحده يسوع يرى السموات تنشق والروح ينزل عليه، واليه وحده يتوجه الصوت السماوي: "انت ابني [...]".

اما الانجيليون الآخرون، فقد خففوا طابع هذه الآية. فإذا كان يسوع في متى ٣: ١٦-١٧ هو الذي يرى الروح ينزل عليه، إلا ان الصوت السماوي لا يتوجه إليه وانما الى كل الحاضرين: "هذا هو ابني الحبيب الذي عنه رضيت". غير ان يوحنا، بالمقابل، هو الذي اجرى تغييرا كاملا في معنى الرواية. وطالما أنه أقر منذ البدء بأن يسوع هو كلمة الله الذي جاء ليسكن في ما بيننا (يو ١: ١، ١٤)، فلم يكن بوسعه ان يستوعب كيف يمكن لهذه الكلمة المتجسدة ان تتلقى وحيا من السماء يتعلق برسالتها . فهو حين يلمح الى هذا المشهد (يو ١: ٣١-٣٤) يحرص جيدا على فكرة وحي يتعلق بشخص يسوع، وحي يزيده وضوحا نزول الروح. إلا ان هذا الوحي لم يكشف ليسوع نفسه، وانما للمعمذان. ولذلك لم يعد هناك مجال للحديث عن صوت سماوي يتوجه الى يسوع فيقول له "انت ابني"، وانما المعمذان نفسه هو الذي يعلن للجموع: "واشهد ان هذا هو ابن الله"، والافضل –كما جاء في بعض المخطوطات: "[...] هو مختار الله".

• كيف جرى الحدث؟

ما الذي نستطيع ان نحتفظ به، على المستوى التاريخي، من هذا المشهد؟

أن يكون يسوع قد جاء ليقبل العماذ من يدي يوحنا، فذلك امر لاشك فيه. ونعلم فعلا أنه كانت هناك، في بدء المسيحية، منافسة بين تلاميذ يسوع وتلاميذ المعمذان: فلقد كانت كل واحدة من هاتين الجماعتين تعتقد ان معلمها كان ذاك الذي اختاره الله لإعداد مجيء الملكوت (انظر يو ٣: ٢٥-٣٠). وحين جاء يسوع ليقتبل العماذ من يدي يوحنا، ألم يكن ذلك اعترافا منه بالذات ان المعمذان ارفع منه؟ يبدو متى في انجيله على وعي بهذه الصعوبة، ولذا نراه يضع على لسان المعمذان بالذات: "انا احتاج الى الاعتماذ عن يدك، أو أنت تأتي الي؟!"

(متى ٣: ١٤). وفي هذه الحالة لا يحتمل ان يكون التقليد الانجيلي قد ابتكر هذا المشهد الذي من شأنه ان يمنح برهاناً ذا وزن لادعاءات تلاميذ المعمذان. لذا يمكننا ان نعتبر مجيء يسوع ليعتمذ من يوحنا حدثاً تاريخياً.

وماذا الآن من الصوت الذي يُسمَع:"انت ابني الحبيب، عنك رضيت"؟ هل ينبغي ان نفهم ذلك بمعنى مادي؟ ذلك مستبعد. فنحن هنا بازاء تقليد يهودي تشهد له الكتابات الرابينية، وهو تقليد "باث قول": حين كان احد الربابنة يتلقى وحياً الهياً، كان يقال انه سمع صوت الله يكلّمه، ومن دون ان يعتقد احد بصوت يُسمع بشكل طبيعي مادي. وهكذا هي الحال هنا: فالصوت يتوجه الى يسوع وحده، ولسنا ملزمين بالاعتقاد ان هذا الصوت اعتلن بشكل محسوس، التقطه كل الحاضرين. ان مرقس شاء ان يفهمنا فقط، كما اوضحنا اعلاه، بأن يسوع تلقى وحياً كشف له بأنه، في آن واحد، الملك والنبي للملكوت الجديد.

الا ان مسألة الروح الذي يترل على يسوع بشكل حمامة، فهي اكثر صعوبة. وهنا ايضاً سيصعب علينا ان نقبل بأن حمامة من لحم وعظم قد نزلت من السماء على المسيح. فمرقس يريد فقط ان يشير، عبر صورة حسية، الى ان يسوع امتلأ من روح الله، كما كان الامر مع كل ملوك الشعب اليهودي.

غير اننا نصطدم من جديد بصعوبة: فالمشهد كما هو مروي، يفترض ان يكون الرباط بين رمز الحمامة وحقيقة الروح معروفاً، أقله من قبل يسوع. ولكن في الواقع ليس هناك أي نص من العهد القديم او من الادب اليهودي قد أدلى بهذا الرباط. واليكم من ثم الحل الذي نقترحه لمعالجة هذه الصعوبة:

حين ألمح القديس يوستينس، في حوالي منتصف القرن الثاني، الى هذا المشهد، لم يكتب بأن الحمامة نزلت على يسوع، وانما "رفرفت" عليه. ومثل هذا الاختلاف في التعبير نجده لدى كتّاب قدامى آخرين، ولاسيما لدى كاتبين سريانيين: افراهط وافرام (بداية ومنتصف القرن الرابع). فهاذان الكاتبان استخدما فعلاً سريانياً شبيهاً

بالفعل الذي نقرأه في سفر التكوين ١: ٢: "وكان ريح [روح] الله يرفرف على المياه". وهكذا نجد تأكيداً على الرباط بين الحمامة والروح، ليس بفضل الحمامة ذاتها، وانما بحكم كونها "ترفرف". وهذه المقاربة كان من السهل جداً القيام بها حين نعلم ان ماء الاردن الذي نزل فيه المسيح كان بوسعه ان يذكّر بالمياه الاولى التي تكلم عنها سفر التكوين (١: ٢). فلكي نفهم الرباط الذي يُفترَضَ ان يكون يسوع قد اقامه بين الحمامة والروح، فلا بد لنا من ان نصعد في التقليد الانجيلي الى ابعد من مرقس. ولنضف بأن هذا التقليد الاولي -وبفضل هذا التلميح الضمني الى رواية التكوين- قد رأى في مشهد عماذ المسيح افتتاحا لمرحلة جديدة للانسانية، لابل خلقة جديدة.

وباختصار، وبفضل صورتي الصوت السماوي والحمامة -ويجب تجنب فهمهما بمعنى مادي- اراد مرقس ان يفهمنا بأن يسوع، لدى عماذه في الاردن، تلقى وحيا ادرك بموجبه ان الله نصبه ملكا ونبيا في الملكوت الجديد، كما انه شاء ان يقول لنا ايضا ان يسوع، في ذلك اليوم، تلقى قدرة الروح التي ستمكنه من التصرف كملك ومن التكلم كنبي.

وهذا ما سيتوسع به كل القسم الأول من الانجيل.

-٣-

التجربة والتلاميذ الأولون

(١: ١٢-٢٠)

في العماذ نصّب يسوع ملكاً ونبياً. وفي كل القسم الأول من الإنجيل ستنتظم كل الروايات في مجموعتين، وعلى محورين، كي توضح لنا أن يسوع يعمل في الواقع بصفته ملكاً وبصفته نبياً، وهذا الترتيب في الروايات يتجلى للحال في سياق الإنجيل: سوف نراه يتصرف كملك لدى مجابهته الشيطان الذي كان يُعتقَد أنه متسلط على العالم، والذي كان عليه أن يخلعه عن عرشه كي يملك عوضه، ومن ثم سنراه يتصرف كنبي عبر اختياره تلاميذه الأولين كما كان النبي ايليا قد فعل من قبل.

التجربة

(١: ١٢-١٣)

هوذا يسوع "يدُفَع به إلى البرية" من قبل الروح. سوف يمكث فيها طيلة أربعين يوماً "يجربه الشيطان"، ويضيف الإنجيلي: "وكان مع الوحوش، وكان الملائكة يخدمونه".

• الشيطان

لكي نفهم المعنى الذي أضفاه الإنجيلي على هذا المشهد ، يتوجب علينا أن نوضح ماذا كانت تمثل هذه الشخصية المعتمة في نظر مرقس وقرائه. "الشيطان" وبالفرنسية (satan) لفظة تؤدي الأصل اليوناني (satanas) والتي بدورها تترجم لفظة عبرية تعني "العدو". وغالبا ما عكست الترجمة السبعينية هذه اللفظة بـ "إبليس" (diabolos) والتي منها اشتقت لفظة (diable) الفرنسية. وفي التقاليد اليهودية العريقة، لم يكن ينظر إلى الشيطان بصفة كائن شرير في الأساس. فلقد كان جزءا من الحاشية الإلهية، على غرار الحاشيات الملوكية الأرضية، حيث كانت له مهمة محددة. انه، بحسب زك٣:١، يلعب دور المتهم العام في محكمة الله. وبحسب أي ١: ٦-١٢ يبدو بالأولى مدافعا عن مصالح الله –وفي اعتقاده أن الله هو في وهم تجاه أمانة أيوب. ولذلك، إذا ذهب، بسماح من الله، ليضرب أيوب في أملاكه، فلأنه يريد أن يمتحن هذه الأمانة. أما في ١ أخ ٢١:١، فقد أصبح شريرا بكل معنى الكلمة: فهو الذي حمل داود على إجراء إحصاء شعب إسرائيل كله –وتلك خطوة مضادة للإرادة الإلهية. وهكذا أصبح "المجرب" ذاك الذي يدفع بالبشرية إلى صنع الشر (انظر رؤ١٢:٩).

واسينيو قمران، وقد تأثروا ولا شك ببعض الديانات الشرقية، تبنوا مفهوما ثنائيا للعالم. ازاء عالم النور والحق الخاضع كليا للشريعة الالهية، هناك في نظرهم عالم الظلمات والكذب. وعلى رأس هذين العالمين رئيسان اطلقوا عليهما اسم "امير النور" و"امير الظلمات"، وهكذا سعوا بالتالي الى ترجمة فكرة طالما انتشرت في الدين اليهودي آنذاك.

كان من السهل التحقق من ان العالم الذي كان يعيش فيه اليهود هو عالم لم تكن الشريعة الالهية فيه سائدة، بل كان الشر مسيطرا عليه. ولذا كان التيار

الرؤيوي اليهودي يتطلع الى مجيء عالم مثالي، خاضع تماماً للشريعة، حيث لا مكان فيه ابداً للشر. ومن هنا جاء التمييز المألوف بين "هذا العالم" و "العالم الآتي". وهكذا كان يُنسَب كل الشر الذي يعاني منه "هذا العالم" الى التأثير الخطير الذي كان يمارسه الشيطان واعوانه. والامراض ذاتها كانت تعتبر نتيجة للسيطرة الشيطانية على الانسان، وكان الشفاء من هذه الامراض يتم وكأنه رتبة إخراج الشيطان. وسنرى في الاناجيل صدى لهذه الاعتقادات. فالانجيلي يوحنا، على سبيل المثال، وقد تأثر بثنائية قمران (انظر ٣: ١٨-٢١)، يبدو له الشيطان "رئيس هذا العالم" (١٢: ٣١؛١٤: ٣٠؛ ١٦: ١١)، كما يبدو ان "العالم كله هو تحت وطأة الشرير" (١يو٥: ١٩). وبالنسبة الى لوقا يبدو ان الامراض هي من الفعل الشرير للشيطان (لو ١٣: ١٥-١٦) او من ابليس (رسل ١٠: ٣٨). وهكذا هي الحال مع مرقس الذي يروي عدة شفاءات وكأنها عملية إخراج الشياطين وطرد الارواح النجسة. وسنعود ادناه الى هذه النقطة.

وبعبارة اخرى، أن يكون الشيطان مسيطراً على العالم، وأنه هو الذي يجعل الشر مسيطراً عليه، فتلك فكرة كانت شائعة لدى اليهود. وهكذا نفهم كيف ان التقليد الانجيلي كشف بأن يسوع، كي يقيم ملكه الخاص على العالم، كان عليه أولاً ان ينتصر على الشيطان ويخلعه عن العرش. فملك المسيح لا يقوم إلا على انقاض مملكة الشيطان. وبهذا المعنى وهذا القصد، وضع مرقس رواية التجربة مباشرة بعد رواية العماذ. فيسوع الذي نُصّب ملكاً للملكوت الجديد، نراه للحال يذهب الى البرية كي يواجه فيها الشيطان. لقد تلقى الروح منذ قليل، وها هو الروح ذاته يدفعه الى البرية، وسيمنحه القوة للتغلب على قوى الشر. فالصراع قد بدأ، واصبح بوسع يسوع، بعد عودته من البرية، ان يعلن "الخبر السار" ومفاده ان "الزمان قد تم" وان "ملكوت الله قريب" (مر ١: ١٤-١٥؛ انظر ١: ١).

• التجربة

يكتفي مرقس بالقول ان "يسوع دُفع الى البرية ليجربه الشيطان"، ولكنه لا يعطي اي تفصيل عن الطريقة التي استخدمها الشيطان ليجربه. اما متى ٤: ١-١١ ولوقا ٤: ١-١٣ فقد كانا اكثر وضوحاً. هناك اتفاق بين المفسرين على كون هذه الاضافة الخطابية بين يسوع وابليس، والمليئة بالاستشهادات من العهد القديم، مصطنعة. إلا ان التقليد الذي نقله هنا الانجيليان يعكس ولا شك وضعاً حقيقياً. لنأخذ التجربة الاخيرة كما وردت في انجيل متى ٤: ٨-١٠: فمن قمة جبل عال نجد ابليس يُري يسوع كل ممالك العالم ويقول له: "اعطيك هذا كله إن جثوت لي ساجداً"، ويجيبه يسوع قائلاً انه لا يجب السجود إلا لله وحده (تث ٦: ١٣). فنحن إذن ازاء الصراع الأساس بين يسوع والشيطان. ويفهم ابليس، بعد ان كان سيد العالم وجميع ممالكه، ان يسوع قد تلقى من الله مهمة خلعه عن عرشه. لذا فها هو يشنّ هجوماً مضاداً عبر عرض مساومة على يسوع: عوض ان نتقاتل، لنعقد معاهدة! انت تملك على العالم بصفة تابع، وانا أكون قيّماً! وكان على يسوع ان يدرك بأنه في حالة الرفض ستنشب الحرب، وسيكون هو عرضة لكل شباك ابليس. ذلك ما فعله لوقا بشكل مأساوي. لذا كتب في خاتمة التجربة: "انصرف عنه ابليس الى ان يحين الوقت" (لو ٤: ١٣). وهذا الوقت هو وقت الآلام: فإذا رأينا يهوذا على أهبة الخيانة للمسيح، فذلك بتأثير من الشيطان (لو ٢٢: ٣؛ يو١٣: ٢). وهكذا يبدو ان الشيطان هو الذي يدبرّ موت المسيح، وفي اعتقاده انه سيبدد الآمال بملكه على العالم.

ويرفض يسوع هذه المساومة. انه لايشاء ان يتسلم ملوكيته إلاّ من الله، حتى ولو كانت بثمن كفاح عنيف، بثمن موته. فالحرب بين يسوع والشيطان قد أعلنت.

• الانتصار

ويختم مرقس المقطع بالقول ان يسوع "كان مع الوحوش". وهذه الوحوش هي رمز لكل قوى الشر (انظر لو ١٠: ١٩-٢٠). وقد غلبها يسوع طالما انه استطاع العيش معها في سلام. ذلك هو تحقيق للعالم الجديد الذي سيأتي المسيح ليفتتحه على الارض، بعد أن يكون قد لبس قوة الروح (انظر اش١١: ١-٩).

من المحتمل ان يكون لرواية مرقس قصد معين. كأن اراد ان يلمح الى نبؤة هوشع (٢: ١٦-٢٠) التي تعلن اهتداء السامرة: "لذلك هاءنذا استغويها وآتي بها الى البرية واخاطب قلبها [...] واقطع لهم عهدا في ذلك اليوم، مع وحوش البرية وطيور السماء والحيوانات التي تدب على الارض [...] واريحهم في أمان".

التلاميذ الأولون

(١: ١٦-٢٠)

أحرز يسوع، بصفته ملكا، انتصارا أولا على الشيطان. الا انه بصفته نبيا سوف ينتقي تلاميذه الأولين.

• صيادون من مرتبة اجتماعية معينة

يتكون هذا المقطع من روايتين توأمين: دعوة اخوين، بطرس واندراوس، أولا، ومن ثم دعوة اخوين آخرين هما يعقوب ويوحنا. وكانوا كلهم صيادين يسكنون مدينة بيت صيدا الصغيرة (انظر يو١: ٤٤) الواقعة على الضفة الشمالية الشرقية من بحيرة الجليل. اناس في شبه بحبوحة، اقله يعقوب ويوحنا، طالما ان بوسع

أبيهما أن يتخذ أجراء يساعدونه في عمله (آ٢٠). وفيما كان بطرس واندراوس يلقيان الشبكة في البحر، كان يعقوب ويوحنا جالسين في سفينتهما يصلحان شباكهما. ويراهم يسوع لدى اجتيازه شواطئ البحيرة، فيدعوهم، وهم يتركون كل شيء ويتبعونه.

• البعد الرمزي للرواية

هذه الرواية المضاعفة، بالرغم من بساطتها الظاهرية، تحتوي على تعليم مضاعف ستمكننا قراءة نبيهة من إبرازه.

التعليم الأول يقدمه الإنجيلي ذاته. هوذا يسوع يقول لبطرس واندراوس: "اجعلكما صيادي بشر" -وهي عبارة يكون المسيح قد قالها لبطرس وحده بحسب انجيل لوقا (٥: ١٠): "ستكون بعد اليوم للناس صياداً". فإذا اختار يسوع من صيادين اول التلاميذ، فلأنه يرى رمزية بين مهنتهم الحالية وبين الرسالة التي سيكلها إليهم فيما بعد: "صيد" اناس لإدخالهم في ملكوت الله الذي جاء ليقيمه.

اما النقطة الثانية، فهي الاكثر اهمية لفهم الرواية. فحين ألّفها مرقس، استلهم، على الصعيد الادبي، سابقة من حياة النبي ايليا الذي دعا الى اتباعه والتتلمذ له ذاك الذي سيصبح النبي اليشاع في ١مل ١٩: ١٩-٢١. هذه المقاربة الادبية هي اكثر وضوحاً في حالة يعقوب ويوحنا مما في حالة بطرس واندراوس، وسنعود ادناه الى شرح ذلك. واليكم، جنباً الى جنب، رواية دعوة اليشاع ورواية دعوة يعقوب ويوحنا، وبترجمة حرفية الى حد كبير:

(مر ١: ١٩-٢٠)	(١مل ١٩: ١٩-٢١)
وفيما تقدم قليلاً	فمضى من هناك
رأى يعقوب	فلقي اليشاع

[ابن] لزبدى	[بن] شافاط
ويوحنا اخاه	
وهم	وهو يحرث
	وامامه اثنا عشر فدان
في السفينة	وهو مع الثاني عشر
يصلحون الشباك	
ودعاهم لوقته	فمرّ ايليا نحوه
	ورمى إليه بردائه
وفيما يتركون اباهم زبدى	فترك البقر ...
في السفينة	
مع الأُجَراء	
ذهبوا وراءه	وركض وراء ايليا
	وكان يخدمه

ملاحظتان تُظهران جيداً التوازي. في رواية دعوة اليشاع، نرى ايليا يلقي معطفه على اليشاع. ولكن بحسب رواية اختطاف ايليا الى السماء في ٢مل ٢: ٧-١٥ كانت قوة النبي مخفية في هذا المعطف. وايليا، بإلقائه معطفه على اليشاع، فهو انما منحه قوته واقامه نبياً. ان هذه الحركة في المشهد توازي جيداً دعوة يسوع ليعقوب ويوحنا. من جهة اخرى، وبحسب ١مل ١٩: ٢٠ يطلب اليشاع من ايليا السماح له بالذهاب أولاً "ليقبّل اباه وامه"، إلا ان ايليا يرفض له هذا الطلب. وهكذا نجدنا في قلب الموضوع إذ نرى يعقوب ويوحنا "يتركان اباهما زبدى في السفينة".

ويتضح ان احد اهداف الرواية هو الكشف عن ان يسوع هو بمثابة ايليا

جديد، وانه دعا الى اتباعه تلاميذه الأولين، تماماً كما كان ايليا قد دعا اليشاع الى اتباعه. وهكذا بعد ان تصرّف يسوع بصفة ملك عبر مواجهته الشيطان، هوذا يتصرف الآن بصفة نبي، لا بل كواحد من اعظم الانبياء: ايليا.

• دعوة بطرس واندراوس

بحسب رواية مرقس، يكون يسوع قد دعا الى اتباعه بطرس واندراوس من جهة، ويعقوب ويوحنا من جهة اخرى. ولكن كيف العمل للتوفيق بينها وبين رواية يوحنا ١: ٣٥-٤٢؟ فاندراوس يبدو فيها وكأنه تلميذ ليوحنا المعمذان، ويسكن معه في منطقة الاردن (١: ٢٨). كما ان اندراوس، وبسلطته الخاصة، نراه يقود اخاه سمعان الى يسوع. وهكذا يبدو ان روايتي دعوة اندراوس وسمعان بطرس بحسب مرقس من جهة، وبحسب يوحنا من جهة اخرى، لا تلتقيان.

ولكي يُحرَص على ما يُعتَقَد أنها الحقيقة التاريخية في الانجيلَين، قُدِّم في الغالب الحل التالي الذي بموجبه يكون يسوع قد دعا اندراوس وبطرس على دفعتين، مرة اولى حين كان اندراوس تلميذاً للمعمذان (الرواية اليوحنانية)، ولكن بعد عودة التلميذين الاخوين الى اعمالهما الاعتيادية، بالقرب من بحيرة الجليل، وقد يكون يسوع دعاهما بشكل حاسم بمعية يعقوب ويوحنا. لا يبدو هذا الحل مستحيلاً، إلا انه قليل الاحتمال. فالانجيلي يوحنا يريد، في روايته، ان يصف دعوة حاسمة، طالما انه يقول، وعلى ثلاث دفعات (آ٣٧، ٣٨، ٤٠)، ان اندراوس ورفيقه المجهول "تبعوا" يسوع -وهي اللفظة الملائمة للتعبير عن حالة التلميذ.

ويقودنا نقد نص رواية مرقس الى ان نقترح حلاً آخر. فلقد رأينا فعلاً انها مكونة من روايتين توأمين: مناداة بطرس واندراوس، ومن ثم مناداة يعقوب ويوحنا، من جهة، وانها من جهة اخرى استلهمت، على المستوى الادبي، سابقة تقوم في

دعوة اليشاع على يد النبي ايليا. ومن المدهش ان تبدو الموازاة مع نموذج العهد القديم اكثر وضوحاً في ما يتعلق بيعقوب ويوحنا (الرواية الثانية). لذا يحق لنا ان نعتقد بأن المصدر الذي اعتمده مرقس لم يكن يحكي سوى دعوة يعقوب ويوحنا، وقد بُنِيَ ادبياً على نموذج دعوة اليشاع من قبل ايليا. ويحتمل ان يكون مرقس ذاته (او مصدره) قد جعل الرواية الاصلية تتضاعف، كي يحصل على رواية بشأن دعوة يسوع لبطرس واندراوس.

بوسعنا إذن ان نتخيل ما حدث في الواقع، على النحو التالي: تمّت دعوة اندراوس وسمعان بطرس كما رواها يوحنا في ١: ٣٥-٤٢. ومن المحتمل ان مرقس وجد في مصدره رواية لم تكن تحتوي سوى على دعوة يعقوب ويوحنا (١: ١٩-٢٠). ولكن كيف يصح إغفال دعوة بطرس واندراوس، وبالاخص بطرس الذي كان قد اصبح رئيس الرسل؟ ولكي يعالج مرقس هذا النقص —ومن دون ان تكون له أية معلومات دقيقة عن الشكل الذي تمت به دعوة الاخوين- اكتفى بمضاعفة رواية دعوة يعقوب ويوحنا كي يحصل على رواية موازية تسلط الضوء على بطرس واندراوس.

-٤-

يوم كفرناحوم النموذجي

(١: ٢١-٣٤)

استطاع يسوع، بصفته ملكاً، ان يحرز الانتصار الاول على الشيطان، وقد اتى ليخلعه. وبصفته نبياً، على غرار ايليا، نراه يجمع تلاميذه الاوائل. واصبح بوسعه الآن ان يباشر رسالته العلنية. وهكذا سيرينا مرقس نهاراً نموذجياً من رسالة المسيح: فهو، لكونه نبياً، يعلم في مجمع كفرناحوم، ولكونه ملكاً، سيعمد الى إخراج روح نجس.

• يسوع يعلّم (١: ٢١-٢٢)

هوذا يسوع، بمعية تلاميذه الاوائل، يأتي الى كفرناحوم، المدينة الواقعة على شواطئ بحيرة الجليل، ويدخل يوم سبت الى المجمع ويأخذ بالتعليم (١: ٢١). لقد كان السبت اليوم الذي يجتمع فيه اليهود في المجمع، حيث كان يُتلى مقطع من الشريعة، ومن ثم نص آخر من الانبياء، وذلك وفق منهج معيّن. وكان احد الحاضرين يدلي بتعليق مقتضب عليهما. كما كان بوسع رئيس المجمع ان يدعو ضيفاً غريباً ليقوم بهذا التعليق. لم يعطنا مرقس اي تفصيل عن هذا الشكل من الممارسة، بينما أدلى لوقا بايضاحات كثيرة في رسل ١٣: ١٤-١٦: كان بولس وبرنابا قد وصلا الى انطاكية بسيذية: وحين دخلا المجمع يوم السبت، جلسا مع كل الجماعة

وبدأت اولاً قراءة الشريعة والانبياء، ومن ثم ارسل اليهما رؤساء المجمع من يسألهما إذا كانا يريدان ان يفسرا هذه النصوص لبنيان الشعب. وهوذا بطرس يقوم ويلقي خطاباً مطولاً يُسفر عن اعلان الايمان المسيحي. ويمكن ان نعتقد ان شيئاً مماثلاً جرى ليسوع في كفرناحوم: إذ لم يكن بوسعه ان يعلّم إلا بدعوة من رئيس المجمع.

ما الذي استطاع المسيح ان يقوله في ذلك اليوم؟ لم يرَ مرقس حاجة إلى ان يقوله لنا. وانما اكتفى بالاشارة الى ان السامعين "اعجبوا بتعليمه، لانه كان يعلّمهم كَمَن له سلطان، لا مثل الكتبة" (١: ٢٢). من اين جاءت دهشة الناس؟ على كل "رابّي"، قبل ان يتاح له التعليم، ان يكون قد تابع التعليم المعطى في المدارس الرابينية. وكان عليه ان يحفظ الشريعة والأنبياء عن ظهر القلب؛ كما كان عليه ان يتعلم تفاسير هذه النصوص التي كان الربابنة يتسلمونها، تلميذاً عن استاذ، وفق صيغة شبه مقدسة: "قال رابي فلان [...]". ولقد اشار القديس بولس الى هذه الممارسات الرابينية حين كتب الى مؤمني قورنتس: "سلّمت اليكم ما تسلّمته انا ايضاً [...]" (١ قور ١٥: ٣). وينبغي ان يكون الرابي المتدرب قد أكمل استعداداته الطويلة قبل ان يحصل على شبه "رسامة" بواسطة وضع الايدي، كي يتلقى الروح الذي يمنحه "سلطة". وهوذا يسوع يعلّم "كمن له سلطة"، مع انه لم يتردد قط على المدارس الرابينية (انظر يو ٧: ١٤-١٥)! فمن اين أتته هذه السلطة؟ لم يعطنا مرقس الجواب واضحاً، الا أن بوسع القارئ ان يدرك بأنها أتته بفضل الروح الذي تلقاه في عماذه. اما لوقا فكان أكثر وضوحاً، وها هو يربط الاحداث بشكل سلسلة: يتلقى يسوع الروح في عماذه (لو ٣: ٢١-٢٢). ونراه للحال "ممتلئاً من الروح القدس" يقاد الى البرية بقوة الروح حيث يجربه ابليس (٤: ١-٢). ويعود من ثم الى الجليل "بقوة الروح" (٤: ١٤). ويأتي اخيراً الى الناصرة حيث كان قد نشأ، ويدخل المجمع يوم سبت، ويقرأ نص اشعيا الذي يقول من ثم انه يخصّه: "روح الرب عليّ لأنه مسحني لأبشّر الفقراء" (٤: ١٦-١٨).

فيسوع، وان لم يتردد على المدارس الرابينية، يستطيع إذن ان يعلّم "كمن له سلطة"، وذلك لأنه، في عماذه، تلقى الروح الذي نصّبه نبياً (انظر مر ١: ١١ وهو يستند الى اش ٤٢: ١).

وكان الناس مندهشين ايضاً لأن يسوع اعطاهم تعليماً مختلفاً عن التعليم الذي كان ينقله لهم الكتبة، اولئك العلماء في الشريعة. انه كان يعطيهم "تعليماً جديداً" (مر ١: ٢٧). ولم يقل لنا مرقس هنا ماذا كان مضمون تعليم يسوع، وكيف انه تجاوز تعليم الكتبة. وانما اراد فقط ان يشير الى ان يسوع يعلّم بصفة نبي. فمرقس يحفظ توضيح مضمون هذا التعليم الى ما بعد: اولاً، ومن وجهة نظر سلبية، ابان المجادلات التي كشفت عن خلاف يسوع مع الكتبة والفريسيين (٢: ١- ٣: ٦)؛ ومن ثم، وبالأخص، حين سيعطي يسوع مثل الزراع (٤: ١-٢٠) ويُفسره. وسيستنتج القارئ حينذاك سمو تعليم يسوع على تعليم الكتبة والفريسيين.

• إخراج شيطان (١: ٢٣-٢٨)

في اليوم ذاته، وفي مجمع كفرناحوم بالذات، هوذا يسوع يعمد الى طرد "روح نجس". وهنا أيضاً نجد مرقس بخيلاً بالتفاصيل ولا يعطي سوى الجوهري.

من المحتمل ان يكون الرجل الذي سيشفيه يسوع مصاباً بمرض لم يوضحه مرقس. فالنقطة الوحيدة التي تهمه هي ان يُظهر بأن ليسوع سلطاناً يأمر به قوى الشر التي تهيمن على العالم. وتبدو عملية طرد الشيطان بمثابة امتداد لرواية التجربة: هناك واجه يسوع الشيطان، وخرج منتصراً في الكفاح؛ وهنا يفرض على روح نجس، أحد أعوان الشيطان، ان يمتثل أمره ويخرج من الرجل الذي كان تحت قبضته. انه يفعل ذلك لكونه تقلّد المهمة الملوكية؛ ويكشف انه جاء ليخلع الشيطان عن

عرشه وينقذ البشرية التي أسرها سلطان الشر. ان هذا الوجه من عمل المسيح ستسلط عليه الاضواء بشكل افضل في المقطع الذي يروى في مر٣: ٢٢-٢٦. فالكتبة يتهمون يسوع بأنه يطرد الشياطين بفضل سلطان منحه اياه رئيس الشياطين. ويجيبهم يسوع بلفت انتباههم الى ان أية مملكة تنقسم على ذاتها لا يسعها ان تثبت. فلو كان الشيطان قد منح المسيح القدرة على طرد الابالسة، لكان جلب هو نفسه الخراب على مملكته.

وإذا كان يسوع قادرا بالفعل على طرد الابالسة، فلأنه تلقى روح الله. ومتى ١٢: ٢٨ (انظر لو ١١: ٢٠) يقولها صريحة في خاتمة المقطع الذي أشرنا إليه: "أما إذا كنت أنا بروح الله اطرد الشياطين، فقد وافاكم ملكوت الله". ويقولها مرقس ايضا بوضوح مماثل على وجه التقريب: فالفريسيون حين يتهمون يسوع انه يطرد الابالسة بفضل سلطان الشيطان، فهم انما يجدفون ضد الروح القدس (٣: ٢٩-٣٠). انهم ينسبون الى الشيطان ما هو فعل الروح.

وإذا كان يسوع يطرد الشياطين، فلأنه ملك جاء ليزل الشيطان عن عرشه، ولأنه نبي أيضا. ويشير مرقس الى ذلك من طرف خفي حين يضع على لسان الروح النجس: "ما لنا ولك يا يسوع الناصري؟ أجئت لتهلكنا؟ انا اعرف من انت: انت قدوس الله" (١: ٢٤). والسؤال المضاعف يذكر بالسؤال الذي طرحته ارملة صرفت على ايليا بحسب رواية ١مل ١٧: ١٨: "ما لي ولك يا رجل الله؟ أتيت إلي لتذكر بذنبي وتميت ابني؟". ولنا هنا عين الطريقة الادبية التي رأيناها في رواية دعوة يعقوب ويوحنا: فمرقس، باستخدامه صيغ العهد القديم هذه، اراد ان يلمح بشكل خفي عن ان يسوع هو بمثابة ايليا جديد. وعلى هذا النحو عرف الروح النجس ان يسوع هو "قدوس الله". "والقديس" هو ذاك الذي كرسه الله، وافرزه من بين الناس الآخرين من اجل رسالة معينة، كما كان النبي ارميا: "قبل ان أصورك في البطن عرفتك، وقبل ان تخرج من الرحم قدستك وجعلتك نبيا للأمم" (ار١: ٥). وفي يو

٦: ٦٨-٦٩ يعترف بطرس ان يسوع هو "قدوس الله" لانه هو وحده عنده كلمات الحياة الابدية. وبالتالي، من يستطيع ان يتكلم باسم الله إن لم يكن ذاك الذي نصبه الله نبيا؟

لقد شاء مرقس، في القسم الاول من انجيله، ان يبين كيف أدرك اليهود شيئا فشيئا شخصية يسوع الحقيقية، بانتظار إعلان ايمان بطرس في ٨: ٢٩: "انت المسيح". وقارئ الانجيل، حين يقرأ رواية العماذ، يفهم بأن يسوع هو ملك ونبي. إلا ان اليهود لم يحضروا هذا المشهد. أما هنا، فبالعكس، استطاعوا التحقق، في آن واحد، من سمو التعليم الذي يعطيه، ومن سلطانه على الارواح النجسة في آن واحد. وسيكون بوسعهم إذاك ان يستشفوا بأن يسوع الناصري، وإن كان مجهولا لديهم، قد تلقى فعلا رسالة خاصة من قبل الله. وشخصيته تطرح مشكلة، إلا انها تطرحها بصيغة تساؤل لا غير: "ماهذا؟ انه لتعليم جديد يلقى بسلطان! حتى الارواح النجسة يأمرها فتطيعه!" (١: ٢٧).

ليس هناك اعتراف بعد بأنه نبي وملك، إلا اننا ازاء خطوة اولى قد تمت. فالجليل كلها قد ارتجت (١: ٢٨).

• حماة بطرس (١: ٢٩-٣١)

بعد ان طرد يسوع الروح النجس، خرج من المجمع وجاء الى بيت سمعان (بطرس) واندراوس، يرافقه يعقوب ويوحنا (١: ٢٩). وكانت حماة سمعان في الفراش، قد اصابتها حمى شديدة. وهوذا يسوع يمد اليها يده وينهضها، وتفارقها الحمى في الحال.

في الرواية اللوقاوية (٤: ٣٨-٣٩) يعرض هذا الشفاء وكأنه طرد شيطان: "وانحنى عليها وزجر الحمى، ففارقتها". فالحمى تبدو إذن وكأنها روح شرير يطرده

يسوع بأمر منه. قد نكون هنا بازاء الصيغة الاكثر قدما لهذه الرواية. فنحن لا نجد لدى مرقس ما يشبه ذلك حيث يتعلق الامر بشفاء لا غير. ذلك ان مرقس اراد ان يبين لنا بأن يسوع، حين يشفي المرضى، فذلك بدافع من الشفقة التي تأخذه تجاه ألم الآخرين. وسيقولها بطرس فيما بعد لقائد المئة قرنيليوس: "...يسوع الناصري الذي مسحه الله بالروح القدس والقدرة، فمضى من مكان الى آخر يعمل الخير، ويبرئ جميع الذين استولى عليهم ابليس، لأن الله كان معه". فيسوع "يعمل الخير" بابرائه كل اشكال الامراض، كما بالتعزيم على الذين امتلكهم ابليس او اعوانه، اعني الارواح النجسة.

• أشفية في المساء (١: ٣٢-٣٤)

يصف مرقس من ثم مسعى الناس الذين اخذوا يحملون الى يسوع مرضاهم والممسوسين كي يشفيهم. وهو انما اراد بذلك ان ينهي اليوم النموذجي الذي بدأ فيه يسوع خدمته. وتجدر الملاحظة إلى أن هذا اليوم بني وفق النموذج انيوناني أو الروماني. ذلك لأن السامعين يعتبرون غروب الشمس بداية يوم جديد.

لماذا اشار مرقس إذن إلى أنه بعد غروب الشمس جاء الناس بمرضاهم الى يسوع؟ ذلك لأننا كنا لانزال في يوم سبت (انظر ١: ٢١)، وبالنسبة الى اليهود لم يكن مسموحا نقل اشخاص أو اغراض في ذلك اليوم. ولكن، وكما اوضحنا، سجل غروب الشمس نهاية السبت؛ وهكذا انتظر الناس هذه اللحظة كي يبادروا الى اعمالهم.

أما المرضى الذين حملوا الى يسوع، فهم على شكلين: بعضهم مصابون بأمراض طبيعية، كما كانت حماة سمعان؛ وبعضهم مصابون بامراض تتعلق بمس شيطاني، كما كانت حالة الرجل الذي شفي في المجمع.

هناك تفصيل مهم لابد من ذكره. فمرقس، بعد ان أرانا يسوع يخرج عددا من الشياطين، اضاف: "لم يدع الشياطين تتكلم لأنها عرفته" (١: ٣٤). لماذا هذا الامر بالصمت؟ وقد سبق يسوع فأطلقه بوجه الروح النجس الذي اخرجه في ١: ٢٥. ان نص لوقا ٤: ٤١ب لهو اكثر دقة، كونه يكشف عن سبب هذا الأمر: فالشياطين كانت تعلم انه المسيح، اعني ملك الملكوت الجديد. ومن جهة اخرى، وكما اسلفنا، أوليس لكي يوطد ملوكيته، كان يسوع يطرد الابالسة، أعوان الشيطان؟. غير أن خطرا كان يهدده: ففي ذلك الزمن كانت فلسطين قد فقدت استقلالها واصبحت تحت حكم الرومان. وكان الشعب اليهودي يتطلع الى مجيء محرر "يرد الملك لاسرائيل" (انظر رسل ١: ٦؛ لو١: ٦٨-٧٣). إلا ان يسوع لم يرسله الله لانجاز هذا الاصلاح السياسي. وسوف يشرح المسيح ذاته على أي شيء تقوم ملوكيته، حين سيتوسع في تعليمه عبر الامثال (مر٤: ١ت). وهكذا سنفهم بالاكثر الفرق القائم بين الملك الذي انتظره اليهود وبين الملك الذي اعده لهم الله. فلكي يبدد يسوع كل التباس (انظر يو ٦: ١٤-١٥)، لم يدع الشياطين التي طردها تعترف به، وهكذا سيفعل فيما بعد حين سيفرض الصمت بشأن الاشفية التي سيجترحها. وهذا هو "السر المسيحاني" الشهير الذي غالبا ما ستكون لنا فرصة لمواجهته في انجيل مرقس.

• اليوم الأول

يمكننا الآن ان نلقي نظرة على هذا اليوم الذي افتتح يسوع خلاله خدمته العلنية. ومن السهل ان نفهم ماذا قصد مرقس حين كتبه.

ان يسوع، نصبه الله في العماذ ملكا ونبيا للملكوت الجديد. فبصفته نبيا وملكا، اذن، باشر خدمته. إلا ان مرقس لم يشأ أن يسبق فيعطينا تفاصيل حول

تعليم يسوع أو حول مختلف اشكال المس الشيطاني التي كان عليـــــه ان يحاربهـــا. وسيفعل ذلك فيما بعد. فهو يقول لنا فقط ان يسوع يعلم، وانه يخرج روحا نجسـة اما الجموع، فلم يكن بوسعها ان تفهم انه ملك ونبي؛ غـــــير ان قـــارئ الانجيـــل يستطيع، لا بل يجب عليه ان يفهم، طالما انه كان "حاضرا" في مشهد عماذ يســـوع على يد يوحنا.

ـ ٥ ـ

يسوع في الجليل

(١: ٣٥-٤٥)

بعد ان اظهر يسوع نفسه في كفرناحوم، هوذا يوسع عمله الى كل الجليل: "وسار في الجليل كله يبشر في مجامعهم ويطرد الشياطين" (١: ٣٩). انه سوف يعمل، إذن، بصفة نبي: يعلم، وبصفة ملك: يطرد الشياطين.

يسوع يترك كفرناحوم

(١: ٣٥-٣٨)

تشير الآيات ٣٥-٣٨ الى الانتقال من خدمة يسوع في كفرناحوم الى الخدمة التي سيتمها في كل الجليل. هوذا، قبل الفجر، يخرج من المدينة وينسحب لوحده في البرية ليصلي (آ٣٥). وهكذا قبل أن يباشر هذه المرحلة الجديدة، يشعر يسوع بالحاجة الى الاختلاء في بقعة صحراوية، بعيدا عن الجمع، كي يلتقي بالله ويتحدث اليه. ففي الصحراء كل شيء يصمت، لا شيء سوى الصمت المليء بالنور، وليس هناك سوى الانسان والله. ولأن

كل شيء صامت، فبوسع الانسان ان يسمع الله: "لذلك هاءنذا استغويها وآتي بها الى البرية أخاطب قلبها" (هو ٢: ١٦).

وهوذا سمعان (بطرس) ورفاقه يذهبون في البحث عنه، وحين يجدونه يعلمونه ان الناس يطلبونه. لقد اخذ بطرس في الظهور بمظهر المحرك الذي يتخذ المبادرات. ولكن أليس هو، من حيث لا يدري، اداة يستخدمها الشيطان لتجربة المسيح؟ وحين سيعلن يسوع لتلاميذه، فيما بعد، ان عليه ان يموت، سيحتج بطرس بشدة ويستحث جواب يسوع هذا: "انسحب! ورائي! يا شيطان، لان افكارك ليست افكار الله، بل افكار البشر" (٨: ٣٢-٣٣). فبطرس انما يريد ان يجعل يسوع يتراجع عن مصيره المأساوي، والذي يريده الله، وهو بالتالي يواصل عمل الشيطان (١: ١٢-١٣)!. وهنا ايضا، حين يعلن ليسوع ان الكل يبحث عنه، فهو انما يجربه من حيث لا يدري. لقد كان بوسع يسوع ان يتعرض لتجربة الرجوع الى كفرناحوم ليجيب الى حماس الجموع، إلا انه يدرك ان هذه ليست ارادة الله: عليه ان يذهب الى المدن المجاورة ليحمل إليها البشرى السارة. ذلك ما أوضحه لوقا اكثر من مرقس: أليس لهذا قد ارسله الله ؟ (لو ٤: ٤٣). وهكذا يصمد يسوع بوجه هذه التجربة، ويذهب الى مكان آخر.

شفاء أبرص

(١: ٤٠-٤٥)

في ١: ٣٩، قال مرقس ان يسوع جال في كل الجليل يبشر في المجامع ويخرج الشياطين. وها هو يصور هذه النقطة الثانية عبر مثل واقعي: شفاء أبرص.

هناك تفصيلان في رواية مرقس الحالية يشكلان صعوبة. ففي الآية ٤٣ نقرأ ان يسوع، بعد أن شفى الابرص: "طرده للحال بعد ان عنفه". وبداية الآية ٤١ يجب ان نقرأها، وفق شواهد موثوقة للنص المرقسي: "اغتاظ" يسوع عوضا عن "اشفق"؛ إذ يحتمل ان كاتبا (أو ناسخا) تشكك من كون يسوع يعتريه الغضب، عمد الى تغيير العبارة. ونتساءل: لماذا غضب يسوع؟ ولماذا طرد الابرص بعد ان شفاه؟ قد يكون مرقس عاد الى رواية اكثر قدما تحتوي مضمونا مختلفا جدا يحمل هذه الصيغة. نحن بإزاء ابرص يقترب من يسوع ويسأله ان يشفيه (١: ٤٠). ولكن الشريعة اليهودية كانت تمنع البرص من الاختلاط بالجمع (أح ١٣: ٤٥-٤٦)، وذلك ولا شك كي لا يصاب اناس آخرون بالمرض لدى الاحتكاك بهم. وهكذا يكون الابرص الذي جاء الى يسوع قد خالف الشريعة، ولذا يغضب يسوع عليه (١: ٤١) ويوبخه ويطرده دون ان يشفيه (١: ٤٣).

اخذ مرقس هذه الرواية القديمة وقلب مضمونها. ونجدنا امام يسوع لا يوبخ الابرص على كونه خالف الشريعة، وانما يخالفها هو ذاته إذ يلمسه ليشفيه (١: ٤١ب)! ولكن هل يعقل ان يكون يسوع قد سخر من شريعة كان الهدف منها ان تحمي الناس من خطر العدوى، في الوقت الذي نراه يطلب الى الابرص المعافى ان يلتزم بتعليمات الشريعة، بالذهاب الى الكاهن وتثبيت حالة الشفاء (آ ٤٤)؟ يبدو لنا ان الرواية الاصلية، والتي نجد اصداء لها في مرقس، هي اكثر معقولية من الرواية الحالية لدى الازائيين الثلاثة: لقد كان من الصعب عليهم ان يفهموا الدافع من موقف يسوع، ومن هنا كان استغرابهم ازاء رفضه شفاء الابرص، لذا طرأ التغيير على الرواية الاصلية.

ان اصداء الرواية الاصلية في مرقس تكشف عن كون الشفاء بدا كعملية طرد الشيطان، ولهذا السبب ولا شك احتفظ بها مرقس. فيسوع "يطرد" الابرص (آ٤٣)، وهي اللفظة التي تستخدم عادة لطرد الشياطين (١: ٣٤،٣٩؛ ٣: ١٥،

٢٢، ٢٣؛ ٦: ١٣؛ ٧: ٢٦؛ ٩: ١٨، ٢٨، ٣٨). كما ان البرص "ذهب" بعيدا عن المريض (انظر ٨: ٣٢): وكأننا امام برص مشخص! وإذا كان يسوع قد اغتاظ (آ٤١)، فبوسع القارئ ان يفهم بأن غضب يسوع هو ضد الروح الشرير الذي يسكن الابرص. فبالنسبة لمرقس، انه الصراع يتواصل بين يسوع والشيطان.

وخوفا من حماس الجماهير، يأمر يسوع الابرص ألا يكشف عن شفائه (آ٤٤أ). وذلك مظهر جديد "للسر المسيحاني" الذي يريده يسوع (انظر اعلاه). إلا ان الابرص المعافى يسارع الى إذاعة الخبر. ولكي يتحاشى يسوع الجموع، يترتب عليه ان يبقى خارج المدن، في اماكن مقفرة ، إلا ان ذلك لم يمنع الناس من المجيء اليه واللقاء به (آ٤٥).

- ٦ -

المجادلات الخمس

(٢: ١-٣: ١٢)

حتى الآن أظهر لنا مرقس الجموع موالية ليسوع: فشهرته قد امتدت الى كل الجليل (١: ٢٨). وإذا انسحب الى القفر، نرى الكل يذهبون في البحث عنه (١: ٣٧)، وقد اضطر الى الاختفاء في البرية ليتجنب الجموع التي تتقاطر عليه (١: ٤٥)؛ وإذا وجد في بيت، تزاحمت الجموع بكثرة عليه بحيث لم يعد مجال للدخول (٢: ٢). انه الحماس حقا. ولكن، منذ الآن وحتى الفصل ٣: ٦، سيبدأ يسوع يواجه معارضة رؤساء الشعب اليهودي الروحيين: الكتبة والفريسيين. وسيبين مرقس ذلك بجمع خمس مجادلات هنا، وبشكل مصطنع، علما بأن دعوة لاوي (٢: ١٣-١٤) تفصل المجادلة الاولى عن البقية. وسنرى في هذه المجادلة الاولى كيف أن يسوع - الملك هو المقصود، فيما سيكون يسوع - النبي هو الذي يتعرض للاصطدام مع اعدائه في المجادلات الاربع التالية.

• شفاء مقعد (٢: ١-١٢)

عاد يسوع الى كفرناحوم، وهوذا يشفي مقعدا، بعد ان غفر له خطاياه بسبب ايمان اولئك الذين حملوه مطروحا، على فراش. وفيما اثار شفاؤه العجائبي حماس الحاضرين، كان غفرانه للخطايا قد استحث رد فعل عنيف من قبل الكتبة

الجالسين بالقرب منه[1].

هذا المقطع يسجل انتقالا من الروايات السابقة الى سلسلة المجادلات التي تتوالى. فلقد وضع مرقس، عن قصد، رد فعل الكتبة المعادي ما بين نصين يذكران بحماس الجموع، وهو الموضوع الثابت الذي يطبع الروايات السابقة. ففي الآية ٢ نرى الجموع تحتشد لسماعه بحيث سدت المنافذ الى الباب؛ وفي الآية ١٢ب دهش الحاضرون ازاء المعجزة حتى اخذوا يمجدون الله قائلين: "ما رأينا مثل هذا قط". فمرقس يريد ان يجعل تضادا بين جحود الكتبة الفظ وبين حماس الجماهير.

ماهي مآخذ الكتبة على يسوع؟ لقد اعلن للمقعد: "غفرت لك خطاياك". والكتبة يتشككون ويعلنون أنه التجديف! فالله وحده له القدرة على مغفرة الخطايا. وكل خطيئة هي في الواقع مخالفة ضد الشريعة الالهية، وهي من ثم اهانة لله. فالله وحده يقدر ان يصفح عن الاهانة التي لحقت به. ويسوع، حين يغفر للمقعد خطاياه، فهو إنما يغتصب مبادرة الهية: وكأنه يدعي انه الله، وذلك في حد ذاته تجديف، وهو الخطأ الاعظم الذي بوسع الانسان ان يقترفه ويستوجب عليه الموت.

يمكن ان نشكك في نزاهة الكتبة. فيسوع لم يقل في الواقع للمقعد: "اغفر لك خطاياك"، وانما بصيغة المجهول: "خطاياك غفرت لك". ومن المعروف جدا ان الكتاب المقدس يستخدم غالبا صيغة المجهول للتعبير عن فعل يقوم به الله. وكان العبرانيون يتجنبون أن يضعوا الله على المسرح مباشرة. وهكذا لم يكن يسوع قد أعلن للمقعد، بحصر المعنى، سوى ان الله غفر له خطاياه.

إلا ان يسوع تبنى في جوابه وجهة نظر الكتبة. انه يجيبهم بأن لابن الانسان سلطانا ان يغفر الخطايا. ولكن من اين استمد هذا السلطان؟ والجواب على هذا

---

(١) يرى العديد من المفسرين ان هذه الرواية لا تشكل وحدة: فغفران الخطايا والاحتجاج الذي اثاره (آ ٥ ب –١٠) قد يكونان ملحقين برواية كانت تحكي أصلا شفاء مقعد. ومع ذلك يهمنا ان ننكب على الرواية كما جاءت في انجيل مرقس.

السؤال كامن في لقب "ابن الانسان" الذي اختصه يسوع. انها المرة الاولى يظهر فيها هذا اللقب في انجيل مرقس، وسيرد مرارا من ثم. انه في الواقع لقب ملوكي مأخوذ عن سفر دانيال ٧: ١٣-١٤. فالنبي يرى كمثل ابن انسان كان آتيا على سحب السماء، وقد بلغ الى قدم الايام، اعني الى عند الله. وهناك: "أوتي سلطانا ومجدا وملكا، وجميع الشعوب والأمم والألسنة يعبدونه، وسلطانه سلطان أبدي لايزول، وملكه لا ينقرض". وابن الانسان -وهو يتميز عن الله طالما انه يأتي من الارض- انما هو الملك الذي يقيمه الله على شعبه. والله، إذ يخلع عليه الملوكية، فهو انما يسلمه احدى مبادراته والتي تقوم في مغفرة الخطايا. والمغفرة والعفو إنما هما مبادرات ملوكية. ويسوع لن يكون ملكا حقا إذا لم يكن لديه السلطان على غفران الخطايا "على الأرض" (مر٢: ١٠).

لم يكن بوسع الكتبة ولا شك ان يدركوا بأن يسوع هو ملاك الملكوت الجديد، طالما انهم لم يحضروا المشهد الافتتاحي لدى عماذه. وهنا يبرهن المسيح على ذلك بابرائه المقعد. وبالتالي ليس الاعلان عن غفران الخطايا اكثر صعوبة من ابراء مقعد.

فإذا كان الهدف الاول للرواية الكشف عن كون الكتبة يعارضون يسوع - الملك ويشككون بقدرته الملوكية على العفو، إلا ان مرقس لا ينسى ان يسوع هو ايضا نبي. وقد أظهره في مقدمة الرواية وهو يعلم الجموع (آ٢). أما في قلب الرواية، فنرى يسوع يعلم "بروحه" افكار الكتبة الداخلية، ومن دون ان يكونوا قد عبروا عنها في الخارج. وميزة النبي في الواقع تكمن في معرفة الامور الخفية (انظر لو٧: ٣٩؛ يو٤: ١٩).

• دعوة لاوي (٢: ١٣-١٤)

في ١: ٢٢، قال مرقس ان الجموع دهشت "لأن يسوع كان يعلّمهم كمن له سلطان، لا مثل كتبتهم". إلا انه لم يوضح ماذا كان يسوع يعلّم، وكيف كان تعليمه يفوق تعليم الكتبة. وها هو يفعل ذلك الآن عبر المجادلات الاربع التالية.

وتسبق المجادلات رواية مقتضبة بشأن دعوة لاوي (٢: ١٣-١٤). وحين وضع مرقس هنا هذا المقطع -وقد يبدو في غير محله طالما انه يقطع ويشطر مجموعة المجادلات الخمس-، فهو إنما يرمي الى هدف واضح جداً. وبالفعل نرى ان الخطوط العريضة لرواية الدعوة تكاد تكون مماثلة لرواية دعوة التلاميذ الاربعة الأولين: بطرس واندراوس، يعقوب ويوحنا، وقد قرأناها في ١: ١٦-٢٠. كان يسوع سائراً حين رأى لاوي جالساً في مكتب الجباية (ولدينا وصف لمهنته)، فقال له، وبكل بساطة: "اتبعني"، وقام لاوي وتبعه. وكنا قد رأينا ان رواية دعوة التلاميذ الاربعة الأولين قد استوحت، على المستوى الادبي، رواية دعوة اليشاع على يد النبي ايليا، وقد قُصَّت في ١مل ١٩: ١٩-٢١ (انظر اعلاه: فقرة التلاميذ الأولون). وهكذا الحال مع رواية دعوة لاوي: إنها تقيم توازياً بين يسوع والنبي ايليا. وإذا وضع مرقس هذا المقطع هنا، فذلك لكي يرينا بشكل خفي بأن يسوع، بعد ان انتقده الكتبة بصفة ملك، فسينتقدونه الآن بصفة نبي.

• يسوع والخطأة (٢: ١٥-١٧)

هوذا يسوع في بيت لاوي، بمعية عشارين وخطأة؛ لا بل نراه يقاسمهم الطعام. وكان هؤلاء الناس، وفق تعليم الكتبة، يعتبرون نجسين، وكانت مخالطتهم من ثم محظورة، وكانت مقاسمتهم الطعام محظورة باولى حجة، بحيث تسري النجاسة الطقسية على المخالفين. وهكذا تشكك الكتبة من موقف يسوع هذا، وعبّروا عن

تشككهم لدى تلاميذه. إلا ان المسيح اوضح لهم قائلاً: "ليس الأصحاء بمحتاجين الى طبيب، بل المرضى". وإذا كان الاطباء يهربون من المرضى خوفاً من العدوى التي قد تلحق بهم، فمن يعتني بهم؟ لذا ينبغي اعتبار الخطأة كالمرضى الذين تجب العناية بهم. فيسوع هو ذاك الطبيب الذي يجب ان يعتني بهم، وكيف يفعل ذلك دون مخالطتهم؟

وهكذا نجد ضمنياً فكرة الطاهر والنجس، بحسب مفهوم الكتبة، والتي يرفضها يسوع هنا. وسيوضح فكرته في هذا الموضوع بشكل اكمل في ٧: ١-٢٣. فالطهارة تقوم، لا بالالتزام بهذا النهي او ذاك، وانما باكتساب قلب مستعد. ويسوع، بمخالطته الخطأة، انما يريد ان يقودهم الى الاهتداء، اي الى تغيير حياتهم، إذ يشرح لهم ماذا ينتظر الله منهم. فبهذا الثمن فقط سيستطيع ان يشفيهم.

وينهي يسوع النقاش بالقول: "ما جئت لأدعو الابرار بل الخاطئين". وفعل "جئت" يوحي بفكرة أنه أُرسل من قبل الله (قارن مر١: ٣٨ مع لو ٤: ٤٣؛ يو ١٢: ٤٧ب مع يو ٣: ١٧). وإذا تصرف يسوع على هذا النحو تجاه الخطأة، فتلك هي إذن ارادة الله: لقد ارسله الله الى العالم ليدعو، لا الابرار (ويمكن ان نفهم ان المقصود هم اولئك الذين يعتقدون انهم ابرار: انظر لو ١٨: ٩) بل الخطأة.

وتستخلص نتيجة هامة من هذه الرواية: يسوع يعلّم عبر طريقته في التصرف، افضل مما عبر اقواله. فان مخالطته العشارين والخطأة هي في حد ذاتها تعليم: فهو لن يبرر تصرفه بالقول إلاّ في آخر الأمر.

• يسوع والصوم (٢: ١٨-٢٢)

هنا ايضاً اخذ يسوع يفعل بعكس ما كان الفريسيون وتلاميذ يوحنا يفعلون، ولكنه لا يبرر تصرفه إلا حين يُنتقد. وهذه المرة يتعلق الامر بالصوم. كان

الفريسيون قد فرضوا على انفسهم الصوم مرتين في الاسبوع (انظر لـو ١٨: ١٢). بينما كان يسوع وتلاميذه لا يصومون. فبأي حق لا يلتزمون عادات اليهود؟

ويجيب يسوع بجعل ممارسة الصوم امراً نسبياً. إذ لا ينبغي ان تُعتبر شـريعة مطلقة تفرض نفسها بمعزل عن الانسان، او كأنّ على الانسان ان يخضع لها من دون مناقشة. فالصوم هو فعلاً ممارسة توبة، وهي من ثم تخضع للظروف التي يوجد فيها المرء. ولكن هل يمكن ان نمارس التوبة ونحزن حين يكون العريس قائماً؟ فيسوع هو العريس، ومادام حاضراً، فلا يمكن سوى ان نفرح (انظر يو ٣: ٢٩). وسيكون هناك متسع من الوقت للصوم حين يغادر العريس.

اما عبارتا يسوع بشأن القديم والجديد واللتان وردتا في الآيات ٢١-٢٢، فيصعب فهمهما في نص مرقس الحالي. ويُحتَمَل انهما تعكسان حالة اكثر قدماً حين لم تكن تتضمن الرواية الآية ٢٠. وبموجبه يكون يسوع قد شاء ان يقول فقط: الآن وقد جاء العريس -بمعنى المسيح الذي كان اليهود ينتظرونه- فلا مكان للصوم بعدُ. فالصوم لا يتخذ معناه الا في العهد القديم، وقد كان زمن انتظار. والمسيح، بالرغم من صعوده، هو دوما حاضر بيننا (انظر متى ٢٨: ٢٠ب)، ولذا فلا مبرر للرجوع الى الصوم. ففي هذا المناخ يمكننا ان نفهم الآيات ٢١-٢٢: "القديم" يوحي بالعهد القديم، و "الجديد" يوحي بالعهد الجديد الذي جاء المسيح يوطده. فأن نعود الى الصوم الذي لا يصلح إلا للعهد القديم، في الوقت الذي فيه ننتظر مجيء العريس، فذلك يعني وضع رقعة جديدة على ثوب قديم، أو وضع خمر جديدة في زقاق قديمة.

• يسوع والممنوعات (٢: ٢٣-٢٨)

لرواية مرقس الحالية وجهتان مختلفتان. والوجهة الأكثر وضوحاً تتعلق بحفظ راحة السبت (انظر آ ٢٣أ، ٢٤جـ ولا سيما ٢٧-٢٨). وبموجبها يكون

الفريسيون قد تحاملوا على تلاميذ يسوع لكونهم تجاوزوا هـذه الراحـة بقلعـهم السنابل من الحقل الذي مروا فيه. اما الوجهة الثانية، فاكتشافها اكثر صعوبة. ففـي الآية ٢٣ من مرقس، يدور الحديث عن قلع السنابل، ليس لأكلها (كمـا في مـتى ولوقا)، وانما لفتح طريق عبر الحقل. وما يأخذه الفريسيون على تلاميذ يسـوع، لا يكمن في انهم قاموا "بعمل" يوم السبت، وانما لكونهم اتلفوا حقل حنطة بعبورهـم فيه. انها المشكلة التي طرحها سفر التثنية ٢٣: ٢٦: "وإذا دخلت السـنبل القـائم الذي لقريبك، فاقطف بيدك فريكاً، ولا تلق منجلاً على سنبل قريبك". ولا بـد ان التشريع بشأن هذه النقطة قد أصبح في زمن يسوع اكثر صرامة.

ويدافع يسوع عن تلاميذه بايراد سابقة من العهد القديم: ففي احد الايـام جاع داود ورفاقه، فدخلوا الى الهيكل وأكلوا فيه الخبزات المكرسة التي كان يحـق للكهنة فقط ان يأكلوها (١صم ٢١: ٢-٧). وتجدر الاشارة هنـا الى ان جـواب يسوع هذا لا علاقة له مع حفظ راحة السبت. فالمسيح يطرح مبدأً عاماً: انه مـن المشروع في حالة الضرورة تجاوز بعض الممنوعات. وسنرى في المجادلة التالية اقـوالاً ليسوع عكستها الآيات ٢٧-٢٨.

• يسوع وراحة السبت (٣: ١-٥)

تتعلق المجادلة الأخيرة براحة السبت. يسوع هـو مـن جديـد في مجمـع كفرناحوم، وذلك دليل على ان المشهد يجري في يوم سبت. وكان هناك رجل يده يابسة. وكان الكتبة والفريسيون يراقبونه كي يروا هل يجرؤ ان يشفي هذا الرجـل، بالرغم من شريعة راحة السبت. ذلك لأن كل شفاء كان يعتبر "عمـلاً" بـالفعل. وهوذا يسوع سيُقدِم على شفاء المريض، إلا انه يصرّ أولاً على تبرير عمله بطـرح هذا السؤال: أعمل الخير يحل في السبت ام عمل الشر أتخليص نفس ام قتلـها؟"

فيسوع يريد ان يؤكد ضمنيا بأن واجب صنع الخير يعلو على شريعة راحة السبت.

هذا المبدأ كان قد طرح في الآية ٢٧ (وكانت في الاصل تأتي بعد مر ٣: ٥): "ان السبت جعل للانسان، وما جعل الانسان للسبت". وهو مبدأ اساسي يصلح لكل الشرائع، حتى ولو كانت دينية. وقد طبقه يسوع في المجادلات الاربع التي وردت من ٢: ١٥ والى ٣: ٥، وبذلك يتميز عن الكتبة والفريسيين. فهؤلاء بنوا من كل شريعة مبدأ مطلقا يستحيل تجاوزه لأية دوافع، وكانوا قد جعلوا منها طوقا على الانسان. اما يسوع فكانت له رؤية للشريعة اكثر انسانية الى حد كبير: فهي في خدمة الانسان، بمعنى انه يمكن، في بعض الحالات، تجاوزها، حين يحدث ان يؤدي حفظها الشديد الى الشر.

ذلك ما أراد يسوع ان يقوله عبر هذه العبارة التي وردت في متى ١١: ٢٨-٣٠: "تعالوا إلي جميعا أيها المرهقون المثقلون (اعني ثقل الشريعة والفرائض الفريسية) وانا اريحكم. احملوا نيري وتتلمذوا لي، فإني وديع ومتواضع القلب، تجدوا الراحة لنفوسكم، لأن نيري لطيف وحملي خفيف".

ان المجادلات الاربع الاخيرة تجعل تعليم يسوع النبي على طرفي نقيض مع تعليم الكتبة والفريسيين. إلا ان مرقس لا ينسى ان يسوع قد نصب ملكا. فهو يذكر بذلك حين يستشهد بكلمة المسيح في ٢: ٢٨: "ابن الانسان هو سيد السبت ايضا". ولقد رأينا بشأن المجادلة الاولى (٢: ١٠) ان للقب "ابن الانسان" المأخوذ من دانيال ٧: ١٣-١٤ بعدا ملوكيا. وبالفعل يعود الى الملك أن يصدر القوانين. واليه ايضا يعود الحق في تفسيرها.

• الفريسيون ضد يسوع (٣: ٦)

في خاتمة هذه المجادلات الخمس التي جعلت يسوع في تضاد مع الكتبة

والفريسيين، يشير مرقس الى انهم "تآمروا عليه مع الهيرودسيين لكي يهلكوه". انها الاشارة الاولى إلى الموضوع الرئيس الذي سيتضمنه القسم الثاني من الانجيل.

• تهافت الجموع (٣: ٧-١٢)

لقد أدخل مرقس سلسلة المجادلات الخمس التي تكشف عن التضاد بين يسوع ورؤساء اليهود الروحيين، بينما اشار الى حماس الجموع التي تحتشد لتسمعه ينقل اليها كلام الله (٢: ١-٢). فالجموع هي، إذن، منجذبة الى يسوع - النبي. وفي ٣: ٧-١٢ نرى الجموع تتهافت من كل جانب كي تحمل الى يسوع مرضاها، وتطلب إليه أن يخرج الشياطين من ممسوسيها. ويضع مرقس هنا الشفاءات الاعتيادية وحالات اخراج الشياطين على المستوى ذاته. ومع ذلك فان موضوع يسوع - الملك هو الذي يسود، طالما انه يخرج الارواح النجسة بصفته ملكا.

وهكذا نلمس قصد مرقس. انه يقيم تضادا بين موقف الجموع وبين موقف الكتبة والفريسيين. ففي ٢: ١-٢ نرى الجموع تتألب حول يسوع النبي. وفي ٢: ٣-١٠ يرفض الكتبة ادعاءات يسوع - الملك (ابن الانسان). في ٢: ١٥-٣: ٦ يرفض الكتبة والفريسيون تعليم يسوع - النبي. وفي ٣: ٧-١٢ نرى الجموع تتقاطر نحو يسوع - الملك. وكل ذلك في منتهى الدقة، ويكشف عن بناء محكم.

• اختيار الاثني عشر (٣: ١٣-١٩)

يكمل هذا المشهد المشهد السابق، وفي الوقت ذاته يعتبر امتدادا لرواية دعوة لاوي في ٢: ١٤: فيسوع - النبي يوسع حلقة تلاميذه. لم يكن يسوع قد

اختار، الى حد الان، سوى خمسة تلاميذ عزموا على اتباعه: بطرس واندراوس، يعقوب ويوحنا (١: ١٦-٢٠) واخيراً لاوي الذي يدعى ايضاً متى (٢: ١٤؛ انظر متى ٩: ٩). وهاهو الآن يوسّع هذه الحلقة الصغيرة: لقد صعد الى الجبل، ودعا اليه عدداً آخر من التلاميذ اختارهم من بين اولئك الذين يسمعون اليه طوعاً، الا ان عددهم غير محدد (٣: ١٣).

يسوع يرى مسبقاً انه لن يستطيع ان يقوم لوحده بالمهمة التي وكلها اليه الله. فمن بين الذين دعاهم، يختار، إذن، اثني عشر سوف يبقون معه، ومن ثم سيرسلهم "يبشرون، ويكون لهم سلطان على الشياطين" (٣: ١٤-١٥). انهم سيواصلون عمل يسوع، وهو ذاته ذهب إلى نواحي الجليل "يبشر في المجامع [...] ويطرد الشياطين" (١١: ٣٩). فالرسل اذن سيعاونون المسيح في رسالته النبوية التي تقوم على التعليم: كما انهم سيساعدونه على توطيد ملوكيته حين سيطردون بدورهم الابالسة اعوان الشيطان. وستصبح هذه الرسالة فعلية في متى ٦: ٧-١٣.

لماذا هذا الرقم ١٢؟ انه يعكس قبائل "بيت اسرائيل" الاثنتي عشرة (انظر متى ١٩: ٢٨). ويريد المسيح بذلك ان يؤكد على الاستمرارية بين العهد القديم والجديد: انه شعب الله ذاته سيتخذ انطلاقة جديدة مع مجيء الملكوت، بقيادة يسوع الناصري. وان رمزية هذا الرقم ستبدو من الاهمية بمكان بحيث سيعمد الرسل، بعد تراجع يهوذا، الى انتخاب عضو جديد كي يبقى عددهم ثابتاً (رسل ١: ١٥-٢٦).

ان اختيار المسيح انتقائي. ويحمل معظم الرسل اسماء يهودية، فيما يحمل اثنان منهم اسماء يونانية: اندراوس وفيلبس. قد يكونان يهوديين متأثرين بالحضارة اليونانية، وهي بالتالي وثنية. وبخلاف ما جاء في متى ١٠: ٥-٦، يكون يسوع ذاته قد خطط لتبشير العالم الوثني. وحين طلب بعض اليونانيين ان يروا يسوع، فليس

من قبيل الصدفة (اذا قرأنا في يو ١٢: ٢٠- ٢٢) ان يكون فيلبس واندراوس بالتحديد هما اللذان اتيا بهم الى المسيح. لقد ألّف مرقس إنجيله على المفارقات، كما استطعنا ان نلاحظ ذلك من قبل. وهذه هي الحال هنا ايضا. فبعد ان ذكر اختيار يسوع للإثني عشر، أشار الى عدم ايمان اولئك الذين كانوا الأولين، وكان يتوجب عليهم ان يتبعوه: وهم ذووه (٣: ٢٠- ٢١). ففيما كانت الجموع لاتزال تتوافد اليه، نجدنا بازاء ذويه الذين يريدون ان يقتادوه على حدا قائلين: "انه ضائع الرشد"! وحين يقال "ذووه"، فالمقصود هو افراد عائلته، كما جاء في انجيل يوحنا ٧: ٥: "ذلك ان اخوته انفسهم لم يكونوا يؤمنون به".

- ٧ -

يسوع ملك ونبي

(٣: ٢٢-٣٥)

المقطعان التاليان يتكاملان بالنظر الى الموضوع العام في هـذا القسم من الانجيل. ففي المقطع الاول يتخذ يسوع من تهجم الكتبة عليه فرصة ليشرح بأن مُلك الشيطان على الارض سينتهي، وانه هو ذاته سيملك بفضل الروح الذي يقيم فيه. لذا يشرح يسوع بالذات ما الذي أراد مرقس ان يبينه حين روى مشهد تجربة يسوع (١: ١٢-١٣) وحين أورد العديد من حالات إخراج الشياطين التي اتمّها المسيح. اما في المقطع الثاني فهوذا يسوع يكشف من هم تلاميذه الحقيقيون: اولئك الذين يصغون الى تعليمه. وهكذا نلقى الموضوعين الأساسيين، الواحد تلو الآخر: يسوع هو ملك الملكوت الجديد؛ وهو أيضاً النبي الذي يبلغنا كلام الله.

• يسوع يخلع الشيطان عن العرش(٣: ٢٢-٣٠)

هوذا يسوع ذاته يلمّح الى ملوكيته بفرصة تعليق يدلي به الكتبة النازلون من اورشليم، بقصد ان يشوهوا رصيده لدى الشعب. انهم يدّعون بأنه هو ذاته قد مسّه بعلزبول، وأنه بقوة رئيس الشياطين يُخرج الشياطين (٣: ٢٢). ويعترف الكتبة، عبر هذا التهجم، ويعكسون الاعتقاد السائد في ذلك الحين: ان العالم سيئ، وانه

خاضع لسلطان رئيس شرير له تحت امرته جيش من الشياطين يعذبون البشر. ويأتي جواب يسوع عبر ثلاث مراحل.

على هجمة الكتبة، يعطي يسوع اولاً جواباً يمليه المنطق (٣: ٢٣-٢٦): كيف يمكن للشيطان ان يطرد الشيطان (أو أعوانه)؟ تلك علامة على انه منقسم على ذاته. ومن المعروف ان مملكة منقسمة على ذاتها، ليس بوسعها ان تثبت، كما لا يمكن لبيت -والمقصود نسلاً ملوكياً (٢صم ٧: ١١، ١٦)- أن يثبت إذا انقسم على ذاته. وهكذا يبدو من الصعب التفكير بأن بوسع يسوع ان يطرد الشياطين بفضل رئيس الشياطين.

لا يقول يسوع هنا بوضوح انه جاء ليأخذ مكان الشيطان. إلا ان تتمة جوابه توحي بذلك (٣: ٢٧). و"القوي" الذي يتكلم عنه يسوع هو ولا شك الشيطان. ولكي تُنهَب أمواله، لابد له أولاً من ان يُربط، وهذا ما فعله المسيح حين راح يطرد الشياطين. فمن السهل إذن ان نخلص الى القول ان يسوع سيجرد الشيطان من ملكوته (انظر آ ٢٤) ويملك مكانه. وهذا الانتصار على الشيطان، لم يكن بوسع يوحنا المعمذان ان يحرزه؛ أما يسوع فهو "اقوى" منه (١: ٧).

وفي مرحلة ثالثة، هوذا يسوع يوضح من أين يأتيه هذا السلطان. فحين اتهمه الكتبة انه ممسوس بروح نجس (آ ٢٢ و٣٠)، اقترفوا خطيئة تجديف على الروح القدس (آ ٢٩). فإذا كان ليسوع فعلاً سلطان على طرد الشياطين، فذلك بفضل الروح الذي فيه. ومرقس يعيد قارءه هنا الى المقطعين اللذين افتتح بهما الانجيل: لدى عماذه (١ :٩ - ١١)، نُصّب يسوع ملكاً للملكوت الجديد، و تلقّى روح الله الذي سيمكّنه من توطيد ملكوته. وللحال (١: ١٢-١٣) قاده الروح الى البرية حيث يلتقي بالشيطان ويحرز انتصاره الاول عليه. وهكذا تكشف حالات طرد الشيطان، وبشكل بديهي، عن ان مُلك الشيطان على العالم بلغ نهايته، وانه استُبدل بمُلك يسوع، مُلك المسيح.

ويتساءل ولاشك قارئ اليوم هنا: ما هي الفائدة لنا نحن اليوم من كل هذه التفاصيل؟ لم يعد احد يظن بعد ان الامراض التي تصيبنا هي نتيجة مس شيطاني. فمالعمل العمل مع كل حالات طرد الشياطين التي يكون يسوع، على حد قول الاناجيل، قد قام بها؟ ما هو رأينا بشأن قبضة الشيطان على العالم؟ وكل الطريقة التي قدم بها مفهوم كفاح يسوع ضد قوى الشر، هل هي من عصر قد زال؟ وهل يتوجب علينا من ثم ان نتخلى عنها بالكامل، ام بالعكس يمكننا، بعد تنقيتها، ان نرى إلى أي مدى تتناسب، بالرغم من كل شيء، مع واقع عميق؟ فلكي نتابع جيدا هذا البحث سوف نسائل انجيل يوحنا.

لنتحقق اولا ان يوحنا، خلافا للازائيين، لا يتحدث قط عن إخراج شياطين أو طردها. والمقعد الذي يشفيه يسوع (يو٥: ٢ت) او الاعمى الذي يعيد اليه البصر (٩: ١ت) ليسا ممسوسين: ان عاهتهما طبيعية. ومع ذلك يقر يوحنا في رسالته الاولى ان "العالم كله هو تحت وطأة الشرير" (١يو ٥: ١٩). انه يعترف بأن ملك إبليس سيليه ملك المسيح: اليوم دينونة هذا العالم، اليوم يطرد سيد هذا العالم الى الخارج[1]؛ وانا إذا رفعت من الأرض جذبت الي الناس أجمعين" (يو ١٢: ٣١-٣٢). فيسوع، بارتفاعه على الصليب —وهي الخطوة الاولى التي ستقوده "الى يمين الله" (مز ١١٠: ١)- سيخلع رئيس هذا العالم عن عرشه. أما كيف يملك إبليس على هذا العالم؟ "بالكذب" طبعا (يو ٨: ٤٤)٠ فمنذ بدء الخليقة دفع ابليس بالبشر الى الثورة ضد الله: فهو الذي جعلهم يعتقدون انه اذا كان الله قد منعهم عن الاكل من شجرة معرفة الخير والشر، فلأنه خشي أن يصبحوا امثاله (تك ٣: ١-٥)! ويختلف المسيح كليا عن إبليس، طالما انه جاء يحمل "الحقيقة" للبشرية: "إن ثبتم في كلامي كنتم تلاميذي حقا، وتعرفون الحق، والحق يحرركم" (يو٨: ٣١-

---

[1] عوضا عن "يطرد خارجا" تفضل عبارة "يطرح الى أسفل" (انظر لو ١٠: ١٧-١٨؛ رؤ ١٢: ٩).

٣٢). فكل من يرتكب الخطيئة هو عبد (يو٨: ٣٤)[1]، عبد لإبليس. وعلى مَ تقوم هذه الحقيقة التي تحررنا؟ انها بلغتنا عبر تعليم المسيح، وهو في الأساس رسالة حب: "أعطيكم وصية جديدة: احبوا بعضكم بعضاً. كما أحببتكم احبوا انتم أيضاً بعضكم بعضا" (يو ١٣ :٣٤). تلك هي الرسالة التي جاء المسيح يبلّغنا إياها من لدن الآب (يو ٨ :٣٨). أمّا الكذب، وهو نقض لارادة الله فينا، فعلى العكس لن يولّد سوى الحقد والقتل (يو ٨ :٤٤؛ ١يو٣: ١١ -١٢). فبعد مُلك الشيطان الذي يسوده الحقد، يأتي مُلك المسيح الذي يسوده الحب.

كل هذا يبقى صحيحاً، سواء آمنّا أم لم نؤمن بالشيطان وبإبليس. فالعالم يبقى تحت قبضة الشر ما دام يسوده العطش الى المال. ولقد قال لنا المسيح: "لا تستطيعون ان تعملوا لله وللمال" (متى ٦:٢٤ ولو١٦ :١٣). وسيبقى العالم تحت وطأة الشر طالما ان العلاقات بين البشر لا تسيّرها المحبة. فبمقدار ما يقبل البشر "الحقيقة"، أي تعليم المسيح، بمقدار ذلك يصبحون محرَّرين من عبودية الشر.

وتنتج عن ذلك خلاصة مشرقة: بوسع يسوع، لكونه نبياً، ان يملك على العالم. وهكذا يتضح ان الموضوعين الرئيسين في إنجيل مرقس هما متكاملان: بوسع يسوع ان يكون "ملكاً" لكونه "نبياً".

• تلاميذ يسوع - النبي (٣:٣١-٣٥)

في المشهد التالي نرى يسوع جالساً وكأنه في بيت (انظر٣:٢٠)، بينما كان هناك جمع يحيط به (مر ٣:٣١)؛ ومن الطبيعي ان نجده يعلمهم، أمانة منه على دوره كنبي (انظر متى ١٢: ٤٦). ولم يكن بوسع امه واخوته واخواته ان يقتربوا بسبب الجمع. ويبلغ اليه الخبر.. ولكنه، عوضاً عن أن يفسح لهم مجالاً للوصول إليه، هوذا يشير الى المحيطين به قائلا: "هؤلاء هم أمي واخوتي"، ثم يضيف: "من

[1] يمكن حذف "للخطيئة" من الآية ٣٤ بحسب عدد من المخطوطات.

يعمل بمشيئة الله، فذاك هو أخي وأختي وأمي". والجملتان متكاملتان: فليس بوسع احد ان يكمّل إرادة الله إن لم يسمع تعليم يسوع، وقد ارسله الله ليطلعنا عليها. وكما يقولها لوقا في ٨: ٢١: "أمي واخوتي هم الذين يسمعون كلمة الله ويعملون بها" (انظر لو ١١:٢٨). فيسوع يعلمنا ما هي إرادة الله التي يجب ان توجهّ سلوكنا تجاه الآخرين: وهنا تكمن "الحقيقة" التي تكلم عنها يوحنا، كما اسلفنا في الفقرة السابقة.

• "اخوة" و"أخوات" يسوع

المقطع الذي نحن بصدده يضع على المسرح "اخوة" يسوع و"اخواته". وسيُذكرون مرة أخرى في مر ٦:٣ (انظر متى ١٣:٥٥ -٥٦) مع أسمائهم: يعقوب ويوسف (او يوسي) ويهوذا وسمعان. ويتحدث انجيل يوحنا عنهم أيضاً (يو٢ : ٧؛١٢ : ٣،٥،١٠) ويوضح انهم لم يكونوا يؤمنون به (آ٥؛ انظر مر ٣: ٢١). هل هناك اولاد آخرون ولدتهم مريم بعد يسوع، ام يتعلق الأمر بأولاد وبنات الأعمام؟ انها مسألة لاتزال مطروحة اليوم.

في اليونانية المدنية، تعني لفظة adelphos بشكل اعتيادي "الأخ" المولود من عين الابوين، بينما تشير لفظة anepsios الى ابن العم. غير ان اللغات السامية، كما هي الحال حتى اليوم بالنسبة الى العربية، ليست لها لفظة معينة لتحديد اولاد العم او اولاد الخال. ولذا كانت تطلق عليهم عبارة "اخوة". وفي الترجمة السبعينية، كان قد لحق بلفظة "اخوة" معنى غامض، فأصبحت تدل على أناس لهم في ما بينهم اواصر القربى (تك ١٣: ٨)، او على ابناء الاخ (تك ١٤: ١٤، ١٦؛ ٢٩: ١٥؛ اح ١٠: ٤) او ابناء العم (١ أخ ٢٣: ٢٢). وهكذا يبدو من المؤكد أن لفظة "اخوة" في الأناجيل -وهي تعكس العادات السامية- لا تعني سوى "ابناء العم" (انظر لو ٢١: ١٦ بمعنى "الاقارب"). وهناك دليل يؤكد

ذلك: في مر٦: ٣ (انظر متى ١٣: ٥٥)، هناك الاثنان الأولان من "اخوة" يسوع يدعيان يعقوب ويوسي (أو يوسف)؛ فيما نقرأ في مر ١٥: ٤٠ ما بين النساء اللواتي كنّ عند أقدام الصليب، امرأة تدعى "مريم" هي أم يعقوب الصغير ويوسي ("ويوسف" بحسب متى ٢٧: ٥٦)، وقد تكون مريم هذه خالة يسوع وفقاً للنص الموازي في يو ١٩: ٢٥. الا ان هذا البرهان يشوبه الضعف. من جهة، كان اسما يعقوب ويوسف بالفعل دارجين الى حد كبير في ذلك العهد. ولكن، وبأولى حجة، إذا كان من المحتمل ان يعقوب ويوسي*-وهما في عداد "اخوة" يسوع المذكورين في مر ٦: ٣- هما "ابناء عم" بالفعل، فمن الممكن مبدئياً ان يكون الاثنان الآخران، سمعان ويهوذا، "اخوة" بالمعنى الحصري للكلمة. ويكون من ثم فريق الاربعة قد اشتمل على "اخوة" وعلى "اولاد عم" في الوقت ذاته.

ولكن يجب أن نقر بأن "اخوة" يسوع، في التقليد الانجيلي، هم دوماً على صلة وثيقة بأمه. فكلهم معاً جاءوا للبحث عن يسوع (مر ٣: ٣١). ويتضح أن أمه واخوته مع تلاميذه، هم الذين اخذهم يسوع معه الى كفرناحوم (يو٢: ١٢). والصيغة الاكثر قدماً من إنجيل يوحنا تفيدنا في الواقع بشكل اوفى. فتلاميذ يسوع لم يُذكروا في سياق رواية عرس قانا. ذلك أن يو ٢: ١ب-٢ كان يُقرأ هكذا: "ودعي يسوع الى العرس، وكانت امه واخوته هناك". اما الآية ١٢ فكانت لها هذه الصيغة: "وبعد ذلك ذهب الى كفرناحوم، هو وأمه واخوته، وكانوا هناك بضعة أيام"[1]. كما يخبرنا سفر الاعمال (١: ١٤) بأنه بعد الصعود، كان جميع الرسل مجتمعين للصلاة، "مع نساء ومريم أم يسوع واخوته". ولنُعِدْ قراءة متى ١٣: ٥٥ أيضاً: "أوَليس هذا ابن النجار؟ أليست أمه تدعى مريم، واخوته يعقوب ويوسف وسمعان ويهوذا؟ أوَليس جميع اخواته عندنا؟". فأقل ما يقال هو أننا، مع الأشخاص الذين يعددهم متى، بحضرة فريق متجانس يضم اسرة من الأب والأم والأولاد.

---

(١) انظر م. إ. بوامار و أ. لاموي : انجيل ما قبل يوحنا، في "دراسات بيبلية"/ السلسلة الجديدة، رقم ١٨، باريس ١٩٩٣، ص٣٢٥-٣٢٧.

أوَليس من الملفت للنظر ان يكون بولس أيضاً قد دعا يعقوب "اخا الـــرب" (غلا ١: ١٩؛ انظر ١ قور ٩: ٥) فيما قال عن مرقس، وبكل وضوح، انه "ابـــن عم" (anepsios) برنابا (قول ٤: ١٠)؟ وهناك نص أخير نضيفه الى هذا الملـف: "و[مريم] ولدت ابنها البكر [ton prôtotokon] (لو٢: ٧). وباليونانية المدنيـة، تعني هذه اللفظة في أغلب الأحيان الأول في سلسلة من الأولاد. وقد يخيل إلينـا أن لوقا يقبل ان يكون لمريم أولاد آخرون بعد يسوع! إلا أن الدليل ليس حاسماً، سيّما وان لفظة "البكر" في الكتاب المقدس تستعمل غالبـاً، وبـالاخص في النصـوص التشريعية، لمجرد الاشارة الى ان المقصود هو الطفل الذي "يفتتح رحم أمـه"، مـن دون التفكير باحتمال ذرية لاحقة (انظر خر١٣: ٢، ١٣، ١٥). فأن يكون لوقـا قد استخدم اللفظة في هذا الاتجاه، فبوسعنا أن نستنتج ذلك من المقارنة مع ما يوازيه في متى ١: ٢٥أ: و[يوسـف] لم يعرفـها[٢] حـتى ولـدت ابنـا". ذلـك ان متى ولوقا أرادا أن يقولا بأن مريم لم يكن لهـا أولاد قبـل أن تنجـب يسـوع. ولكن هل اكتفى لوقا فقط بهذا؟ لنعـد قـراءة الآيـات ٦-٧أ: "وبينمـا هـما فيها [في بيت لحـم] كملـت أيـام ولادتهـا، فولـدت ابنـها، البكـر ... [ton huion autès ton prôtotokon]"؛ ويستشهد لوقا هنا الى حـد مـا بنص تك٢٥: ٢٤ حيث يتعلق الامر برفقة التي وضعت توأمين، عيسو ويعقـوب: "فلما كملت ايام ولادتها، إذا في بطنها توأمـان، فخـرج الابـن، البكـر ... [ho huios ho prôtotokos]". فاللفظة مستخدمة هنا ولا شك بالمعنى الدقيق الذي كان لها في اليونانية المدنية. وإذا استشهد لوقا بـ تك٢٥: ٢٤ للكلام عـن ولادة يسوع من مريم -وكان بوسعه ان يستخدم مقاطع اخرى كثيرة من العـهد القديم- أليس ذلك لأنه يعطي، هو ايضاً، للفظة prôtotokos عين المعنى الـذي كان لها في اليونانية المدنية؟.

---

(٢) تورية كتابية للتعبير عن العلاقات الجنسية.

ماذا نستخلص من هذه النصوص؟ ليس هناك نص يسمح لنا ان نعطي جواباً أكيداً. ومع ذلك يبدو وكأن الكفّة تميل باتجاه خلاصة يكون بموجبها لمريم أولاد آخرون بعد ولادة يسوع. ولنثبت ما كتبه بكل نزاهة الأب لاكراتج[1]: "إلا أنّ اللاهوتيين لم يبالغوا قط بشأن مضمون هذه الإشارات الكتابية. وبتولية مريم الدائمة عقيدة يقرون بالإجماع أنها مستمدة من التقليد اكثر مما من الكتاب المقدس".

• أم يسوع

بوسع هذا المقطع الذي رواه مرقس ان يفسح المجال لطروحات أخرى. انه المقطع الوحيد في كل انجيله والذي نجد فيه أم يسوع مباشرة على المسرح. فهي لن تُذكر، لا بين النساء اللواتي وقفن بجانب الصليب (مر١٥: ٤٠ ومتى ٢٧: ٥٥-٥٦؛ مع معارضة يو ١٩: ٢٥)، ولا بين النساء اللواتي جئن لينظرن قبر المسيح صباح القيامة (مر ١٦: ١). وفي هذا المقطع الذي نحن بصدده، فأقلّ ما يُقال هو ان يسوع لا يبدو قد علّق أهمية على انتسابه البشري الى أمومة أمه. وهذا ما يُستخلص أيضاً من المشهد الصغير الذي رواه لو١١: ٢٧-٢٨: "وبينما هو يقول ذلك، إذا امرأة رفعت صوتها من الجمع فقالت له: طوبى للبطن الذي حملك وللثديين اللذين رضعتهما، فقال: بل طوبى لمن يسمع كلمة الله ويحفظها". كما نعرف ايضاً مقطع اكتشاف يسوع، بعد ثلاثة ايام من البحث، في هيكل اورشليم حيث كان يتناقش مع علماء اسرائيل (لو٢: ٤١-٥٢). فقد قالت أمه: يا بني لِمَ صنعت بنا ذلك؟ فأنا وأبوك نبحث عنك متلهفين"، أجابها يسوع: "ولم بحثتما عني؟ ألم تعلما انه يجب عليّ ان اكون لشؤون أبي؟". وهكذا يُفهم أمه بشدة بأن على روابط الدم ان تخلي المكان للرسالة

(١) الانجيل بحسب القديس مرقس ("دراسات بيبلية")، باريس، ١٩٤٧، ط٢، ص٨٦.

التي تسلّمها من الله. وليس انجيل يوحنا اكثر رقة تجاه امومة مريم البشرية. ففي عرس قانا، حين علمت مريم انه لم يكن خمر، اطلعت يسوع على الامر مع توقعها الضمني انه سيستطيع ان يعالج هذا الموقف الحرج. ماذا أجابها يسوع: "ما لي ومالك أيتها المرأة؟ لم تأتِ ساعتي بعدّ" (يو٢: ١-٤). فيسوع يخاطبها، من دون ان يعطيها لقب "الأم"، ويُفهمها، بصريح العبارة، انها تتدخل في ما لا يعنيها!

إن قراءة الأناجيل تعطينا إذن الانطباع بأن يسوع، ما ان بدأت حياته العلنية، شاء ان يفرض على مريم التخلي عن المبادرات التي كان بوسعها ان تقوم بها بصفتها أمّاً. ويخيل الينا ان يسوع يُبعد أمه ويدعها تضيع بين الجمع. لماذا هذه القسوة؟ يعطينا انجيل يوحنا الجواب عن هذا السؤال. فهو لا يضع مريم على المسرح سوى مرتين: في بدء رسالة يسوع، في عرس قانا (٢: ١-٤)، وفي النهاية عند اقدام الصليب (١٩: ٢٥-٢٧). لنُعِدْ قراءة هذا المشهد: "فرأى يسوع أمه، والى جانبها التلميذ الحبيب اليه، فقال لأمه: ايتها المرأة، هوذا ابنك؛ ثم قال للتلميذ: هذه أمك. ومنذ تلك الساعة استقبلها التلميذ في بيته". وهكذا في عرس قانا، كما في الوقت الذي ينادي المرء أمه وهو يسلم الروح، نرى يسوع يقول لمريم "يا امرأة" وليس "يا أماه". وحين نعلم ان الشخوص الذين يظهرون على المسرح في انجيل يوحنا، يحملون معنى رمزياً، حتى ولو كانوا اناساً حقيقيين، فحينئذ يمكننا ان نعتقد بأن "التلميذ الحبيب" هنا يمثّل التلميذ النموذجي (انظر يو ١٤: ٢١) او مجموع تلاميذ يسوع. وهكذا نجد ان مريم قد أقيمت أمّاً لمجموع المؤمنين، او كما نقول اليوم، أمّاً للكنيسة. من هذا المنطلق، وبحسب يوحنا، نفهم ان مريم اضطرت الى التخلي عن أمومتها البشرية، كي يكون بوسعها ان تعانق أمومة روحية على كافة المؤمنين بالمسيح، ولكن بثمن أية آلام!

-٨-

يسوع يعلم ويشفي

(٤: ١-٥ : ٤٣)

نصل الآن الى ما يشكّل المركز من القسم الأول من إنجيل مرقس، وقد قُسم الى جزئين متكاملين: يسوع يعلّم أولاً بأمثال، ومن ثم يقوم بعدد من حالات طرد الشياطين والمعجزات. إنه التأكيد الواقعي لما قامت عليه بداية رسالته في مجمع كفرناحوم: كان يسوع يعلّم بصفته نبياً، كما طرد روحاً نجساً بصفته ملكاً (١: ٢١-٢٧).

يسوع يعلّم بأمثال

(٤: ١-٣٤)

قال مرقس، على عدّة دفعات، ان يسوع كان يعلّم الجموع (١: ٢١؛ ٢: ١٣؛ انظر ٢: ٢). وفي المقطع السابق (٣: ٣١-٣٥) فهم القارئ بأنه إذا كان هناك جمع حالساً حول يسوع، فلكي يسمع تعليمه. إلا ان مرقس لم يقل لنا بعدُ ما هو مضمون هذا التعليم. ويحق لقارئه من ثم ان يعجب لذلك، سيما وان متى (٥: ١-٧: ٢٧) ولوقا (٦: ٢٠-٤٩) كانا اكثر وضوحاً وتوسّعا.

فمرقس، إلى حدّ الآن، شاء فقط ان يقول لنا ان يسوع كان نبياً، طالما انه بتعليمه أبلغنا اقوال الله. ولكن هوذا قد حان الأوان كي يشبع الانجيلي فضولنا، وإن كان ذلك الى حدّ ما فقط. انه على وعي بأهمية هذا الوقت، حيث اننا نكتشف المهابة التي يفتتح بها هذا التوسع الجديد في انجيله (٤: ١-٢). هوذا يسوع على شاطئ بحيرة الجليل، محاطاً بجمع كثير جداً، حتى انه اضطر الى ركوب سفينة؛ ومنها وهو جالس، اخذ يعلّم الناس الذين ظلوا على الساحل. وتأتي للحال هذه الجملة التي طالما انتظرناها: "وعلّمهم بالامثال اشياء كثيرة، وقال لهم في تعليمه" (٤: ١-٢). ونجد فعل "علّم" يرد مرتين، ومرةً اسم الموصوف "تعليم": ويفهم القارئ ان الوقت الذي طالما انتظره بصبر قد حان. ولكنه سرعان ما يكتشف ان "المفاجآت" لم تنتهِ!

• مثل الزرع (٤: ٣-٢٠)

نجد جوهر هذا التعليم في الواقع مكثفاً في مثل الزرع (٤: ٣-٩) والذي سيعطي المسيح ذاته تفسيره بعد قليل (٤: ١٣-٢٠)[1].

خرج الزارع ليزرع. إلا ان الحبوب التي يلقيها تسقط في اماكن مختلفة: على قارعة الطريق المحاذي للحقل، أو في ارض حَجِرة، أو بين الأشواك، فيما سقط جزء منها فقط في الارض الجيدة. وهذا الجزء هو الذي سيقوم ويحمل ثمراً، مع كثير او قليل من النجاح، وفقاً لنوعية الارض؛ اما الباقي فقد تلف كله. ماذا يعني هذا المثل؟ وهوذا يسوع يفسره، بعيداً عن الجمع، لاولئك الذين يحيطون به وللاثني عشر، بعد ان بكّتهم على بطء فهمهم (٤: ١٠-١٣). ونجد الخلاصة المكثفة منذ البداية: "الزارع يزرع كلمة الله" (٤: ١٤). ومن البديهي انه يسوع ذاته هو الزارع (انظر ٢: ٢). والاراضي المختلفة التي تقع فيها الحبوب، تعني مختلف طبقات الناس الذين يتلقون هذه الكلمة؛ وبعضهم فقط يستفيدون منها ويجعلونها تثمر.

---

[1] يرى المفسرون عادة ان المثل فقط يرجع الى يسوع.

وهكذا نجدنا بازاء الاساس الذي يقوم عليه ملكوت الله، كما قالها مرقس في ٤: ١١: "لكم أُعطِي سر ملكوت الله".

ان ملكوت الله الذي تسلّم يسوع القدرة على قيادته، وهو مَلِكهُ على الارض، سيتوطد إذن، ولكن بمقدار ما سيتلقى البشر كلمة الله التي يبلغها اليهم المسيح. ونتحقق من ثم، مرة اخرى، الى اي مدى يرتبط لقبا يسوع ارتباطاً وثيقاً: "الملك" و "النبي". فهو بصفته نبياً يبلغ الناس الكلمة، وهو إذ يفعل ذلك، فإنما يؤسس ملكوته ويوسّعه. وهذا هو بالضبط ما سعى الانجيلي يوحنا الى ان يفهمنا اياه، كما سبق لنا أن أوضحنا أعلاه (الباب٧): فالمسيح يحررنا من عبودية ابليس ويوطد سلطته على العالم بابلاغنا الحقيقة التي ما هي سوى كلمة الله. ومما يلفت النظر ان الانجيليين اللذين يبدوان في منتهى الاختلاف، وهما انجيلا مرقس ويوحنا، يتفقان على الجوهر!

ان القسم الاول من الحبوب سقط على الطريق، فكان من نصيب الطيور. وهذا يعني ان بعض الناس يسمعون الكلمة، الا ان الشيطان يسرع الى اختطافها. ولنا هنا صدى لرواية تجربة يسوع: الشيطان الذي يسيطر على العالم هو العدو الذي يتوجب على المسيح ان يغلبه ويخلعه عن عرشه، كي يوطّسد مُلكه. فالشيطان يحاول، إذن، وبكل الوسائل، ان يعارض المسيح، وذلك باقتلاعه هذه الكلمة التي جاء يزرعها.

اما القسم الثاني من الحبوب، فقد سقط في ارض محجرة: فلن يكون له إذن جذور مطمورة في الارض. وهذا يعني ان بعض الناس يسمعون الكلمة، لا بل يقبلونها بفرح، ولكن من دون عمق. فما أن تصبح هذه الكلمة سبباً للألم او الاضطهاد، وإذا بهم يسقطون. واول ما يتبادر الى الذهن هو انهم اناس لم تكن لهم الشجاعة ان يذهب بهم ايمانهم حتى الاستشهاد. ولكن ليس هذا هو المعنى الأساس. ذلك ان كلمة الله هي في الواقع ملزمة، وهي تتطلب منا غالباً ان نتخلى عن

انانياتنا؛ فإذا بقينا أمناء لها، قد تلحق بنا احقادٌ واهانات من قبل الآخرين. وحينذاك سنتعرض لحالات كثيرة من السقوط.

اما الحبوب التي تسقط في الاشواك، فهي ترمز الى اولئك الذين اصغوا الى الكلمة، إلا انهم يدعون هموم العالم تستولي عليهم، سواء كان بدافع حب الغنى ام بكل ما يقدم لهم العالم من مغريات، وحينئذ تصبح الكلمة لديهم من دون مفعول. لا يمكننا في آن واحد "أن نخدم الله والمال" (متى ٦: ٢٤). ولا يمكننا أن نستسلم من دون وازع للملذات التي يقدمها العالم، ويكون لنا في آن واحد اهتمام بالله. امل بالنسبة الى الارض الطيبة، فهوذا لوقا يقول لنا، وبكل وضوح، ان الامر يتعلق باولئك الذين لهم "قلب طيب وكريم" (لو٨: ١٥). انهم يتلقون الكلمة ويثمرون، كل بمقدار استعداداته الطيبة. وتفسير المثل لا يقول لنا على مَ تقوم هذه الثمار. لا شك ان المقصود هي الطريقة التي بها نحب الآخرين، تماماً كما فهمها بطرس: "أطعتم الحق [انظر يو ٨: ٣١-٣٢] فطهّرتم نفوسكم كيما يحب بعضكم بعضاً حباً اخوياً بلا رياء. فليحب بعضكم بعضاً حباً ثابتاً، بقلب طاهر، فإنكم وُلدتم ولادة ثانية، لا من زرع فاسد، بل من زرع غير فاسد، من كلمة الله الحية الباقية" (١بط ١: ٢٢-٢٣؛ انظر ١ يو٣: ٩-١٢؛ يع١: ١٨-٢١؛ يو١: ١، ١٢، ١٣).

لدينا هنا كل ما يمكن ان يقال عن ملكوت الله، وبقي علينا أن نفهم ذلك جيداً. إلا ان انجيل متى الذي يتحدث عن "ملكوت السماوات" قد يضيّع علينا الطريق! فالمسيح جاء يوطد **في الارض** ملكوتاً هو ملكوت **الله**، مادامت الشريعة الالهية تسوده. ولما كان البشر مدعوين الى العيش في جماعة، فلقد وضع الله شرائع من شأنها ان تجعل الانسجام والسلام يسودان بين البشر (انظر خر ٢٠: ١٢-١٧)، وجاء المسيح يذكّرنا بهذه المتطلبات الالهية ويبلغ بها الى الكمال (متى ٥: ١٧-٤٨). فملكوت الله -وهو على الارض ملكوت المسيح

(انظر ١ قور ١٥: ٢٣-٢٨)- لا يسعه أن يتوطد إلا بمقدار ما يتلقى البشر كلمة الله ويطيعونها. لقد تسلم يسوع الناصري من الله مهمة إبلاغنا كلامه، وبالتالي مهمة قيادة ملكوته جيداً. انه النبي والملك.

بوسعنا الآن أن نفهم بشكل افضل معنى "السر المسيحاني" الذي يشدد عليه مرقس مراراً. فاليهود كانوا ينتظرون تحريراً سياسياً لشعب الله الذي أُخضع لسلطة الرومان. وهذا ما كان التلاميذ انفسهم ينتظرون، لاسيما حين نسمع طلبهم الذي تقدموا به الى يسوع، مباشرة قبل الصعود: "يارب، أفي هذا الزمن تعيد الملك الى إسرائيل؟" (رسل ١: ٦). فيسوع ارسله الله حقاً لينقذ شعبه، ولكن لينقذه في الواقع من العبودية التي أسره فيها الشيطان، وليس من السيطرة الرومانية. انه جاء لينقذهم من الشر، مذكّراً إياهم كيف ينبغي عليهم ان يعيشوا كي يزول الشر من الارض: لا يمكن أن نخدم الله والمال (متى ٦: ٢٤)؛ ولكي يعيش البشر في سلام، يجب عليهم ان يحبوا بعضهم بعضاً (مر ١٢: ٢٩-٣١؛ انظر اح ١٩: ١٨). هناك، إذن، التباس بين ما كان الشعب اليهودي ينتظره، وبين ما جاء به يسوع. وخشية أن يُستَدرَج يسوع في اتجاه حركة تحرير وطنية، رفض أن يدع الناس يعترفون به "ملكاً" (انظر يو ٦: ١٤-١٥).

ونفهم ايضاً كيف استطاع الشيطان ان يجعل مجيء ملوكية سياسية تلتمع في عيني يسوع: وكان يكفي للمسيح ان يجيب الى انتظار الشعب ويرئس حركة ثورية ضد الرومان، كما حدث مثلها في ذلك الزمن (انظر رسل ٥: ٣٦-٣٨). وكان على يسوع، ازاء هذه "التجربة"، أن يصمد، وليس مرة واحدة، وإنما على مدى حياته كلها. وهذا الخيار هو الذي سيجعل قتله أمراً محتملاً. ولأن الشعب اليهودي سيُصاب، آخر الأمر، بخيبة أمل في تطلعاته المسيحانية، نراه يتخلى عن يسوع، بعد ان سبق له مراراً أن هتف له، كما سيطلعنا مرقس على ذلك في القسم الثاني من انجيله.

وبالتالي، فبسبب طاعة المسيح وامانته حتى الموت تجاه الرسالة التي تلقاها من الله، إستحق لنا التحرير من الشر (انظر روم ٥: ١٩).

• مثلان آخران (٤: ٢٦-٣٢)

المثلان الآخران اللذان يهدفان الى إفهام الناس ما هو ملكوت الله (آ ٢٦ و ٣٠)، يحملان، هما ايضاً، فكرة الزرع الذي يلقى في الارض. وهذا الزرع، بحسب المثل الاول، سوف ينبت وينمو ويعطي ثمراً، ومن دون وعي الزارع واهتمامه. والمثل الثاني يؤكد على التضاد القائم بين حبة الخردل "اصغر كل الحبوب"، والتي أصبحت شجرة من ثم. وهكذا الأمر بالنسبة لملكوت الله: فبداياته متواضعة، إلا انه سيبلغ في النهاية "إلى أقاصي الأرض" (رسل ١: ٨).

طرد الشياطين وشفاءات

(٤: ٣٥-٥: ٤٥)

لقد بيّن لنا مرقس كيف ان يسوع، بفضل تعليمه بالامثال، فسر لنا على مَ يقوم الملكوت الذي جاء يوطده: فكلمة الله هي اساسه، بمقدار ما يتقبلها اولئك الذين يعيشون على الارض. وها هو الآن سيبيّن أن ليسوع سلطاناً للتغلب على القوى الشريرة التي ما زالت تسيطر على هذا العالم، كي يتسنى له أن يوطّد ملكه.

• تسكين العاصفة (٤: ٣٥-٤١)

ذات مساء، ركب يسوع السفينة مع تلاميذه ليعبر الى الضفة الاخرى من بحيرة الجليل. غير ان زوبعة انقضّت على البحر، واخذت الامواج تهدد الزورق

بالغرق. وحين اخذ الفزع التلاميذ، ايقظوا يسوع الذي كان نائماً مرتاحاً. وهـوذا يأمر الريح والبحر فيهدآن على الفور، فكانت دهشـة التلاميـذ الذيـن اخـذوا يتساءلون من هو يسوع.

لكي نفهم المعنى الذي اعطاه مرقس لهذا المشهد، ينبغي ان نلاحـظ أولاً، ان كلمة واحدة، باليونانية كما في اللغات السامية، تعني "الريح" و "الـروح". ومـن جهة اخرى، كان البحر، في الكتاب المقدس، يرمز غالباً الى القوى الشـريرة الـتي كان على الله ان يغلبها كي يجعل مخططه ينتصر (انظر مز ٦٩: ٣؛ يـون ٢: ٦ت). وهنا يعج البحر بشدة بسبب الريح. ويجب ان نفهم بأن "روحا" شريراً (الشيطان؟) قد هيّجَ ضد الزورق، وبالتالي ضد التلاميذ، قوى الشر التي كانت خاضعـة لـه. لنقارن هذه الرواية مع اول حالة طرد قام بها يسوع في مجمع كفرنـاحوم (١: ٢٣-٢٧). هنا يقول لنا مرقس ان يسوع، حين استيقظ، "زجر الريح [الروح] وقـال للبحر: اسكت، اخرس!" (٤: ٣٩)؛ وهناك كان مرقس قد كتب بـأن يسـوع "زجره [الروح النجس] وقال: اخرس، واخرج منه" (١: ٢٥). ففـي الروايتـين، نرى الروح النجس من جهة، والريح [الروح] والبحر من جهة اخـرى، يطيعـان يسوع. اما رد فعل الحاضرين فهو ذاته: "دهشوا جميعاً حتى اخذوا يتساءلون: مـا هذا؟ [...] حتى الارواح النجسة يأمرها فتطيعه!" (١: ٢٧) -"فخـافوا خوفـاً شديداً وقال بعضهم لبعض: من ترى هذا حتى تطيعه الريح [الروح] والبحر؟" (٤: ٤١). وهكذا يبدو المشهد الحالي، لمرقس، بمثابة عملية طـرد الشـيطان بـالفعل: فليسوع سلطان ان يقهر الشيطان وقوى الشر التي تعمل تحت امرته. ونجدنا بـالفعل في المناخ العام للانجيل: بعد ان جعلنا مرقس نرى يسوع - النبي يكشف بالامثـال عن اسرار ملكوت الله، هوذا يرينا اياه بصفته الملك الذي يخلع عن العرش القـوى الشريرة كي يتمكن من توطيد ملكوته على الارض.

ونلاحظ هنا ان التلاميذ لا يبدون في موقف مشرّف! فإلى الآن ليس لهم ايمان بيسوع (٤: ٤٠)، بالرغم من كل ما شاهدوه من أعماله. وها هم، حتى بعد المعجزة، لا يفهمون شخصيته الحقيقية بعد، طالما انهم ما زالوا يتساءلون بشأنه، تماماً كما تساءل الناس، من قبل، في مجمع كفرناحوم.

وكما سبق وأشرنا، فان هذه الرواية مركبة ادبياً على شاكلة قصة يونان التي يرويها لنا الكتاب المقدس. المسافرون يركبون السفينة (يون ١: ٣؛ مر ٤: ٣٥-٣٦)، عاصفة ريح تثير البحر بشدة (يون ١: ٤؛ مر٤: ٣٧) بينما كان يونان ويسوع نائمين مطمئنين (يون ١: ٥؛ مر٤: ٣٨أ)؛ وتتوجه إليهما الملامة لعدم تدخلهما (يون ١: ٦؛ مر ٤: ٣٨ب)؛ وبالتالي يهدأ البحر (يون ١: ٥؛ مر ٤: ٣٩جـ). وفي نهاية الروايتين نجدنا امام رد الفعل ذاته لدى الناس الذين في السفينة: "خافوا خوفا شديداً [ephobèthésan phobon megan]" (يون ١: ١٠، ١٦؛ مر ٤: ٤١)؛ وهنا تبدو استعارة مرقس من رواية يونان بديهية.

وبوسعنا ان نجري تقارباً آخر بين الرواية التي نحن بصددها ورواية يونان. فاذا ركب يونان السفينة ليذهب الى ترشيش، فذلك لظنه انه يستطيع ان يهرب من وجه الله الذي امره ان يذهب الى نينوى، تلك المدينة الوثنية (يون ١: ١-٢). ورواية مرقس تسجل في الواقع منعطفاً بارزاً من حياة يسوع: "إنه يركب السفينة ليذهب الى الجانب الآخر من البحيرة، اي انه يذهب الى ارض وثنية، كما سنقرأ في المشهد التالي. فعلى يسوع ان يعلن البشرى السارة، لا للشعب اليهودي حسب، وانما للوثنيين أيضاً (انظر التضاد في متى ١٠: ٥-٦).

والخلاصة هي ان رواية تسكين العاصفة صيغت ادبياً من استعارات اخذت، سواء من سفر يونان، ام من رواية طرد الروح النجس في مر ١: ٢٣-٢٧. وبوسعنا ان نتساءل آنذاك: ما هو الواقع التاريخي الذي تتضمنه. او بعبارة اكثر دقة: ما هو قصد مرقس حين وضع لنا هذه الرواية؟ هل اراد ان

يجعلنا نعتقد بأن يسوع هدأ فعلاً العناصر الهائجة، أي الريح والبحر؟ وإذا كان قد استعار من سفر يونان عددا من العناصر، أليس ذلك لكي يدلنا بالأحرى الى ان الرواية التي ألفها هي من عين المستوى: قصة تريد ان تكون قبل كل شيء تعليما. سوف نعود الى هذه المسألة التي تطرحها بعض معجزات يسوع، حين تكون قد حللنا رواية تكثير الارغفة ادناه (الباب٩).

• ممسوس جراسة (٥: ١-٢٠)

وصل يسوع، إذن، إلى الشاطئ الآخر من بحيرة الجليل، في بقعة جراسة، وهي جرش الحالية. ويجري هناك مشهد يضعنا في حرج. رجل قد مسه "روح نجس" يأتي لملاقاة يسوع، ويسوع يعزم كي يخرج الشيطان الذي كان قد استولى عليه. في الواقع كان فيه شياطين كثيرة! وعلى طلبهم يرسلهم يسوع الى قطيع من الخنازير كان يرعى في تلك النواحي، ووثب القطيع كله في البحر. ونفهم حينذاك، ومن دون صعوبة، كيف تقدم أهل البلاد بأدب، طالبين الى يسوع ان يغادر الى اماكن اخرى!

ان رواية مرقس مركبة من عناصر عدة، كما يشير الى ذلك الارتفاع المفاجئ في عدد الشياطين (٥: ٩). ومن جهة اخرى، لما كانت مدينة جراسة تبعد، بالقياس المباشر، حوالي خمسين كيلومترا عن بحيرة الجليل، فمن الصعب جدا أن نتخيل كيف استطاع قطيع الخنازير ان يثب في البحر. فنحن بازاء رواية طرد الشيطان، استكملت بقصة فلولكلورية يصعب تحديد أصلها.

لنهتم إذن برواية الطرد فقط. انه طرد شبيه بالطرد الذي قام به يسوع في مجمع كفرناحوم، في اليوم الاول من رسالته (١: ٢٣-٢٧): هوذا يسوع بازاء رجل قد مسه "روح نجس"؛ والشيطان يتوسل اليه أن يدعه وشأنه؛ إلا ان يسوع يأمره بالخروج، فيضطر الروح النجس ان يطيع. في كفرناحوم، كنا في احواء العالم

اليهودي. اما هنا، فنحن في جَراسة، إحدى المدن العشر (انظر آ ٢٠)، أي مدينة آهلة بالوثنيين. انه تطبيق لما حملتنا على الاحساس به الرواية السابقة: يطرد المسيح الارواح الشريرة، لا في العالم اليهودي حسب، وإنما أيضاً في العالم الوثني. فيسوع يريد، إذن، ان يوطد مُلكه على الوثنيين وعلى اليهود، على حد سواء.

ولدى مغادرته البلاد يعهد يسوع الى الرجل المعافى مهمة الإعلان عمّا صنعه له، في كل المدن العشر، أي الإعلان لسكان هذه المنطقة عن كون سيطرة الشيطان ستتوقف وتنتهي. ولما كنّا في ارض وثنية، فليس "للسر المسيحاني" من مبرّر.

• شفاء منزوفة (٥: ٢٤-٣٤)

لقد أُدرِجَ هذا المشهد في سياق رواية اخرى، هي رواية إحياء ابنة يائيرس التي سنتكلم عنها فيما بعد. عاد يسوع الى غرب بحر الجليل، وها هو، إذن، في محيط يهودي (٥: ٢١). ولا يتعلق الأمر البتة بعملية طرد، كما في المشهد السابق، وإنما بمجرد شفاء. ولقد سبق أن اشرنا بأن يسوع، في اليوم الاول الذي أمضاه في كفرناحوم، كان قد أجرى شفاء، هو شفاء حماة بطرس، بعد طرد الشيطان الذي قام به في المجمع. وهكذا هي الحال هنا ايضاً: فبعد اخراج الشيطان من ممسوس جَراسة، هوذا يسوع يشفي امرأة مسكينة مصابة بترف. فعلى جودة يسوع، إذن، تُسلّط الاضواء هنا.

إلا ان لمرقس ولا شك، وهو يقص هذا المشهد، قصداً خاصاً. فالمرأة جاءت تبحث عن يسوع لأنها تعلم أنه يستطيع أن يشفيها، حتى ولو اكتفت بلمس هدب ثوبه (٥: ٢٨). وإذا كان يسوع سيشفيها فعلاً، فذلك بسبب إيمانها: "يا ابنتي إيمانك خلّصك، فاذهبي بسلام وتعافي من علّتك" (٥: ٣٤). ويالها من مفارقة مع قلة ايمان التلاميذ الذين، حين واجهوا العاصفة، لم تكن لهم الثقة بيسوع، حتى انه قال لهم: "ما لكم خائفين هذا الخوف؟ أإلى الآن لا إيمان لكم؟" (٤: ٤٠). هذه

المفارقة قصدها مرقس بالتأكيد؛ وسنرى ادناه كم سيطيب لـه ان يؤكـد الى أي مدى كان التلاميذ عاجزين عن إدراك شخصية يسوع الحقيقية.

• ابنة يائيرس (٥: ٢١-٢٤، ٣٥-٤٣)

ينتهي هذا الجزء بمشهد ذي طابع عميق: فيسوع، لا يشفي المرضى حسب، وإنما يحيي الموتى أيضاً. لا يأخذ يسوع معه إلا تلاميذه المفضلين كي يكونوا شهوداً على هذه القيامة: بطرس ويعقوب ويوحنا (٥: ٣٧)، وهم الذين سيكونون في الوقت ذاته شهود التجلي (٩: ٢) والنزاع في الجتسمانية (١٤: ٣٣).

في هذا المشهد، يُسَلَّط أيضاً الضوء على الايمان. فحين جاء يائيرس، رئيس المجمع، ليلتقي مع يسوع، كانت ابنته على آخر رمق، ولكنها ما زالت حية (٥: ٢٤). وفي الطريق، حين كان باتجاه بيته برفقة يسوع، جاء من يخبر بأن ابنته قد فارقت الحياة، وان لا حاجة إلى إزعاج يسوع لفترة أطول. إلا ان يسوع يقول له: "لا تخف، آمن فحسب" (٣: ٣٥-٣٦). وفيما يدخل يسوع الى البيت مع والدَي الفتاة وتلاميذه الثلاثة المفضلين، يطرد كل الذين كانوا في البيت يبكون المتوفاة (٥: ٣٨-٤٠). وحينذاك يقيم ابنة يائيرس، إذ يمدّ لها يده لكي ينهضها (٥: ٤١-٤٢). هناك عدة ملامح من هذه الرواية سنجدها في مشهد من سفر اعمال الرسل: بطرس سيقيم بعين الطريقة ارملة اسمها طابيثا (رسل ٩: ٣٦-٤٢). ويريد مرقس، من خلال هذه الرواية، ان يبيّن ان ليسوع عين القوة التي كانت لدى انبياء الماضي: إنه يقيم مائتة، كما كان النبي ايليا قد أقام ابن ارملة مسكينة (١مل ١٧: ١٧-٢٤)، وكما فعل النبي اليشاع مع ابن الشونمية (٢مل ٤: ٢٩-٣٧)[1].

---

(١) يعتقد بعض الكتاب بأن هذه الرواية لم تكن في الاصل تتكلم عن قيامة، وإنما عن مجرد شفاء. ومع ذلك، فاننا نتعامل مع هذه الرواية كما سلمها إلينا مرقس.

نحن من جديد في أرض اسرائيل، ولذلك نرى يسوع، كما فعل مراراً، يجدد أمره بالصمت: "فأوصاهم مشدِّداً عليهم ألا يعلم أحد بذلك" (٥: ٤٣).

• يسوع مرفوض في الناصرة (٦: ١-٦)

ان مرقس يحب المفارقات. وهذا المشهد يجيب على رواية تسكين العاصفة. فيسوع كان قد أخذ على تلاميذه قلة ايمانهم (٤: ٤٠). ومرقس يشدد هنا على قلة ايمان مواطني يسوع (٦: ٦). وهذان المشهدان يشكّلان مفارقة مع الروايتين السابقتين ويؤطرانهما: ففي المشهد الاول، كان يسوع قد امتدح ايمان المرأة المترفة (٥: ٣٤)، وايمان يائيرس في المشهد الثاني (٥: ٣٦).

ويترك يسوع الأماكن التي أجرى فيها إحياء ابنة يائيرس، ليصل "الى وطنه"، اعني الناصرة، بحسب النص الموازي في لو (٤: ١٦).

لنقارن هذه الرواية مع الرواية التي كنا قد قرأناها في (١: ٢١-٢٧):

مر ١: ٢١-٢٢، ٢٧	مر ٦: ١-٢
	وانصرف من هناك
ودخلوا كفرناحوم	وجاء إلى وطنه
	يتبعه تلاميذه
وما أن اتى السبت	ولما اتى السبت
حتى دخل المجمع	اخذ في المجمع
اخذ يعلم	يعلم
	وكثير من الذين سمعوه
فأعجبوا	دهشوا
بتعليمه [...]	

[...] وقالوا:	وقالوا:
ما هذا؟	من اين له هذا؟
انه لتعليم جديد	وما هذه الحكمة
	التي أعطيها
[يلقى] بسلطان	
حتى الأرواح النجسة	حتى ان المعجزات المبينة
يأمرها فتطيعه؟	تجري عن يديه؟

تبدو الموازاة بين هاتين الروايتين بديهية. ومع ذلك يمكننا ملاحظة الفرق: ففي الأولى، يطرد يسوع روحا نجسا (١: ٢٣-٢٦)؛ اما في الثانية، فهناك الاكتفاء بالتنويه الى العديد من المعجزات التي أجراها. إلا ان يسوع، في كلتا الروايتين، يعمل بصفة نبي (التعليم) وبصفة ملك (طرد الشياطين والمعجزات) في آن واحد.

وتأخذنا الدهشة حين نتحقق ان الروايتين تنتهيان بشكل مغاير جدا. ففي كفرناحوم، تبقى الرؤية متفائلة: شهرة يسوع تمتد الى كل الجليل (١: ٢٨). وفي الناصرة، على العكس، نرى مواطني يسوع يتحولون من متعاطفين ليصبحوا بغتة متشككين. انهم يتحققون فعلا من انهم يعرفونه جيدا، كما يعرفون كل أسرته: أمه واخوته واخواته، حتى انه "كان لهم حجر عثرة" (٦: ٣). وهوذا يسوع يدلي بهذه الخاطرة: "لا يزدرى نبي إلا في وطنه واقاربه وبيته". ويضيف مرقس بأن يسوع لم يستطع ان يجري سوى قليل من المعجزات، سيما بعد ان تحقق من قلة ايمانهم (٦: ٤-٦أ).

كيف يمكننا ان نفسر هذا الانقلاب في الوضع؟ قد يرجع السبب الى اعتقاد يهودي كان قد انتشر الى حد ما، يكون بموجبه للمسيح اصل سري. والقديس يوستينس، في حواره مع تريفون اليهودي، سيرجع من ثم (في حوالي عام ١٥٠)

يسوع لم يستطع ان يجري سوى قليل من المعجزات، سيما بعد ان تحقق من قلة ايمانهم (٦: ٤-٦أ).

كيف يمكننا ان نفسر هذا الانقلاب في الوضع؟ قد يرجع السبب الى اعتقاد يهودي كان قد انتشر الى حد ما، يكون بموجبه للمسيح اصل سري. والقديس يوستينس، في حواره مع تريفون اليهودي، سيرجع من ثم (في حوالي عام ١٥٠) صدى هذا الاعتقاد، حين سيورد رأي العلماء اليهود: "إذا كان هناك من يقول ان المسيح قد جاء، إلا انه لا أحد يعلم من هو؛ ولكنه حين سيتجلى في المجد، فحينذاك سنعلم من هو" (الحوار ١١٠: ١). ذلك هو بالضبط الاعتراض الذي يتقدم به أهل الناصرة: "أليس هذا النجار ابن مريم [...]؟". وهذا هو الاعتراض داته لدى سكان اورشليم، والذي يعكسه انجيل يوحنا: "على ان هذا نعرف من اين هو، واما المسيح فلا يعرف، حين ياتي، من أين هو"، اعني ان لا أحد يعرف اصله (يو ٧: ٢٧). وهكذا لا يمكن ان يكون يسوع، لأهل الناصرة ايضا، المسيح، طالما انه معروف بالكامل، هو وكل اسرته.

ومع هذا المشهد يسجل مرقس إذن تشكك شريحة جديدة من الناس: فالذين لا يؤمنون به ليسوا أعضاء اسرته الخاصة (٣: ٢٠-٢١)، أو الكتبة (٣: ٢٢) حسب، وإنما غالبية أهل قريته، أهل "وطنه". انهم يرفضونه، بصفته، في الوقت ذاته "نبيا" (٦: ٤)، ما داموا لا يقبلون تعليمه، وصانع معجزات (٦: ٥) أي بصفته ضمنيا "ملكا"، ما داموا غير مقتنعين بالمعجزات التي يجريها.

-٩-

اليهود أولاً، ومن ثم الوثنيون

(٦: ٧-٨: ١٠)

جمعنا تحت عنوان واحد عدداً من المشاهد قد تبدو لأول وهلة من دون صلة: يسوع يرسل الرسل الاثني عشر الى التبشير (٦: ٧-١٢)، يكثر الخبز ليقيت الجمع الذي يتبعه (٦: ٣٠-٤٤)، يلحق بتلاميذه ماشياً على بحيرة الجليل (٦: ٤٥-٥٢)، يعطي المفهوم الصحيح للطاهر والنجس (٧: ١-٢٣)، يشفي ابنة امرأة وثنية في نواحي صور (٧: ٢٤-٣٠)، يشفي أصم - أبكم في المدن العشر (٧: ٣١-٣٧)، يكثر من جديد الخبز (٨: ١-١٠). وتبدو الوحدة في هذه المجموعة من خلال رواية شفاء ابنة المرأة السورية-الفينيقية. فيسوع يعلن لها: "دعي البنين أولاً يشبعون، فلا يحسن ان يؤخذ خبز البنين فيلقى الى صغار الكلاب". إلا ان المرأة اجابته: "نعم يا رب، ولكن صغار الكلاب تأكل تحت المائدة من فتات الاطفال" (٧: ٢٧-٢٨). ويسوع يؤيدها حين يشفي ابنتها. وكما سنرى بتفصيل اكثر، يشير "الاولاد" الى اليهود، و "صغار الكلاب" الى الوثنيين. اما الخبز فيرمز الى كلام الله الذي يجب ان يعطى أولاً لليهود، ومن ثم للوثنيين. وهذا ما ترمز اليه روايتا تكثير الخبز. اما سائر المقاطع الاخرى، فهي ترتبط بهذه الروايات الثلاث الاساسية، كما سيبينه التحليل الذي سنقوم به.

بعثة الاثني عشر للرسالة

(٦: ٧-١٢)

في ٣: ١٤-١٥، جعلنا مرقس نرى يسوع يختار بين تلاميذه اثني عشر شخصاً، كي يرسلهم يكرزون ويطردون الشياطين. وها هو يقول لنا الآن ان الساعة قد حانت للاثني عشر كي ينطلقوا الى التبشير، اثنين اثنين. فقبل ان يرسلهم، اعطاهم يسوع عدداً من الوصايا: ألا يحملوا معهم سوى الضروري جداً، وان يقيموا في البيت ذاته لدى مرورهم في كل قرية، وأن يتبرّأوا من المسؤولية لدى بعض الاخفاقات.

وبحسب ٦: ٧، نرى يسوع "يوليهم سلطاناً على الارواح النجسة". ونجد بالفعل ان رسالتهم موصوفة بتفاصيل كثيرة في ٦: ١٢-١٣: "فمضوا يدعون الناس الى التوبة، وطردوا كثيراً من الشياطين، ومسحوا بالزيت كثيرا من المرضى فشفوهم". ذلك هو بالضبط ما كان يسوع قد عمله في يومه الاول في كفرناحوم: ففي المجمع كان قد علّم، ومن ثم اخرج روحاً نجساً؛ وبعدئذ شفى حماة سمعان. ولا يفترض مرقس ان للشفاءات التي يجريها الاثنا عشر طابعاً عجائبياً: إنها مسحة بالزيت تشفيهم (انظر يع ٥: ١٤). وهكذا نجد ان خدمة الاثني عشر قد رُسِمت على غرار خدمة يسوع: انهم يواصلون دوره النبوي، عبر كرازاتهم بشأن ضرورة الاهتداء (انظر ١: ١٥)، كما يساعدونه على توطيد ملوكيته، عبر طردهم الشياطين، وهم إنما يفعلون الخير بشفائهم المرضى.

تكثير الخبز

الرواية الاولى (٦: ٣٠-٤٤)

يتضمن انجيل مرقس روايتين عن تكثير الخبز: هنا وفي ٨: ١-١٠. وهكذا أيضاً إنجيل متى (١٤: ١٣-٢١ و ١٥: ٣٢-٣٩)، بينما لوقا (٩: ١٠-١٧) ويوحنا (٦: ١-١٣) يكتفيان برواية واحدة. ويوجد شبه إجماع على ان هناك حدثاً واحداً عرفه مرقس ومتى وفق تقليدين مختلفين. وسنرى بشأن الرواية الثانية كيف ان مرقس شاء ان يوظف الروايتين في خدمة هدف معين.

• المقدمة (٦: ٣٠-٣٤)

الرواية الاولى لتكثير الخبز مرتبطة ارتباطاً وثيقاً برسالة الاثني عشر، بغضّ النظر عن القوسين اللذين فتحا للروايات المتعلقة بالملك هيرودس. وبالفعل، ما ان انتهت مهمة الاثني عشر الرسولية، وإذا بنا نجدهم يعودون الى يسوع ويخبرونه بكل ما فعلوا (طرد الشياطين والشفاءات) وكل ما علّموا (٦: ٣٠). ولما كانوا تعبين، وكان الجمع قد ازدحم عليهم، لم يعد لهم وقت لتناول الطعام. ولذلك اشفق يسوع عليهم، واصطحبهم في السفينة كي يستريحوا في مكان قفر لا يحدده مرقس (٦: ٣١).

إلا انهم لن ينعموا بالراحة أينما ذهبوا. وبالفعل، تهافتت الجموع ولحقت بهم بسرعة (٦: ٣٣). ويدهشنا وصف سباق الجمع، بحيث يخيل إلينا ان مرقس دمج وثيقتين مختلفتين. فبحسب الوثيقة الأولى، نجد ان الجمع الذي كان معهم قبل مغادرتهم (آ ٣١) يراهم ذاهبين (آ ٣٣أ)، ويسبقهم (آ ٣٣جـ) سيراً على الأقدام

(آ ٣٣د). وبحسب الوثيقة الثانية، علم كثيرون بوصولهم (آ ٣٣ ب) فأسرعوا من كل المدن المجاورة الى ذلك المكان الذي هو فيه حالياً.

وأياً كان الأمر، هوذا يسوع يشاهد الجمع، فيقول مرقس: "فأخذته الشفقة عليهم، لانهم كانوا كخراف لا راعي لها، واخذ يعلمهم اشياء كثيرة" (٦: ٣٤). وعبارة "كخراف لا راعي لها" هي استشهاد من حز ٣٤: ٥ يستعيد نص عدد ٢٧: ١٧ (انظر ١ مل ٢٢: ١٧). ذلك لانه لم يعد لشعب الله رئيس يقوده، إلا ان الله يعلن انه سيرسل راعياً جديداً، داود جديداً (حز ٣٤: ٢٣-٢٤) يخلّصه من يد اولئك الذين استعبدوه (حز ٣٤: ٢٧). وهكذا يصبح من اليسير على قارئ مرقس ان يستنتج بأن يسوع هو فعلاً داود الجديد الذي ارسله الله الى شعبه.

ولكي يكمل مرقس هذا التلميح الى نبؤات حزقيال، اضاف بأن يسوع اخذ يعلّم الجموع التي كانت هناك. وهكذا نجد هنا الموضوع المضاعف الذي يشكل هيكلية انجيل مرقس: يسوع هو، في آن واحد، الملك المسيحاني والنبي الذي يعلّم. والوظيفتان، كما رأينا، متكاملتان، طالما ان يسوع يوطد ملوكيته اذ يحمل للبشر كلام الله الذي يحررهم من سلطان الشيطان.

• تكثير الخبز

لكي يُطعم يسوع الجمع الذي تبعه الى مكان قفر، كثّر الخبزات الخمس والسمكتين. ماذا يجب أن نفكر بشأن هذا المشهد؟

من المؤكد، قبل كل شيء، ان الرواية الحالية قد تأثرت ادبياً بسابقة من العهد القديم تتعلق بالنبي اليشاع (٢مل ٤: ٤٢-٤٤). هناك رجل جاء الى اليشاع "بعشرين رغيفاً من الشعير" (انظر الرواية الموازية في يو٦: ٩ حيث الحديث عن خبز شعير ايضاً). وهوذا النبي يقول لخادمه: "أعطِ القوم ليأكلوا"، وهكذا ايضاً قال يسوع لتلاميذه: "أعطوهم انتم ليأكلوا" (مر٦: ٣٧). ويعترض خادم اليشاع، نظراً

لكثرة عدد المدعوين: "ما هذا؟ أأضع امام مئة رجل؟". وهكذا ايضاً قال التلاميذ: "لو اشترينا خبزاً بمائتي دينار، لما كفى ان يحصل الواحد منهم على كسرة صغيرة" (يو ٦: ٧). واليشاع، بقوة الوعد الالهي، قال للخادم: "انهم يأكلون ويفضل عنهم"، وبالفعل تخلص الرواية الى القول: "فأكلوا وفضل عنهم". وهكذا الحال في مرقس: "فأكلوا كلهم حتى شبعوا"، وجمعوا اثنتي عشرة قفة من الكِسَر، أو كما يقول متى بشكل افضل: "ورفعوا ما فضل من الكِسَر، اثنتي عشرة قفة ممتلئة" (متى ١٤: ٢٠).

وهكذا يتضح ان يسوع، وفقاً للتقليد الإنجيلي الأكثر قِدَماً، حين كثّر الخبز، بدا وكأنه اليشاع جديد، لا بل بدا بالتالي بصفة نبي. ونعلم ان النبي هو انسان اختاره الله ليبلّغ إلينا كلماته واوامره. فهل هي مجرد صدفة ان يكون مرقس قد وضع هذه المقدمة لرواية تكثير الارغفة، إذ قال لنا ان يسوع "اخذ يعلّمهم طويلاً" (٦: ٣٤حـ)؟ ام اراد بالتأكيد ان يجعل صلة وثيقة بين تعليم المسيح وتكثير الارغفة؟

غير ان الخبز، في العهد القديم، غالباً ما كان بمثابة رمز لكلام الله او حكمته. هكذا هي الحال في تث ٨: ٣ حين قال الله للعبرانيين: "لا بالخبز وحده يحيا الانسان، بل بكل ما يخرج من فم الرب"، او كما توضحه الترجمة السبعينية: "بل بكل كلمة تخرج من فم الله" (انظر أش ٥٥: ٢، ١٠-١١؛ عا ٨: ١١؛ مثل ٩: ٥؛ سي ٢٤: ٢٠). فكلام الله يغذّي روحنا كما يغذّي الخبز جسدنا.

لقد كانت المقاربة مع هذا النص من تث ٨: ٣ أمراً في غاية السهولة، لاسيما وانه جاء في سياق خاص الى حد كبير: مسيرة العبرانيين في الصحراء إبان الخروج: "اذكر كل الطريق التي سيّرك فيها الرب الهك في البرية هذه السنين الاربعين، ليذلّلك ويمتحنك فيعرف ما في قلبك: هل تحفظ وصاياه ام لا؟ فذلّلك

وأجاعك وأطعمك المنّ الذي لم تعرفه انت ولا عرفه آباؤك، لكي يعلمك انه لا بالخبز وحده يحيا الانسان [...]" (تث ٨: ٢-٣). وهوذا يسوع، سيكثّر الخبز فيما كان الجمع الذي تبعه، هو ايضاً، في الصحراء (مر ٦: ٣٢، ٣٥ب) فريسة الجوع. وهكذا نرى ان السياق مماثل، مما يمكّن من المقاربة التي بوسعنا ان نقوم بها بين الخبز الذي يغذّي الجسد وبين كلام الله الذي يغذّي الروح.

ويجدر بنا ان نعيد أيضاً قراءة المزمور ٧٨. انه يلمّح بشكل صريح الى عطية المنّ، ومن ثم السلوى، في البرية (آ ٢٣-٢٩)، وينهي هذا التلميح بالملاحظة التالية: "أكلوا فشبعوا"، وهي العبارة التي اوردها مر ٦: ٤٢. ومن المعلوم ان هذا المزمور يبتدئ بهذه الكلمات: "أصغِ يا شعبي الى شريعتي، أمِلْ أذنيك الى أقوال فمي" (انظر تث ٨: ٣). وهكذا نجد دوماً، في الخلفية، الموضوع الكلاسيكي الذي يدور حول الخبز أو المنّ، وهو رمز لكلام الله.

ولكي نفهم القصد الذي عناه مرقس من هذه الرواية، فلابد لنا من ان نضعها أيضاً في السياق الذي يسبقها: بعثة الاثني عشر الى الرسالة (٦: ٧-١١) كي يساعدوا المسيح. فعلى مثاله، كان عليهم ان يكرزوا ويطردوا الشياطين ويشفوا المرضى (٦: ١٢-١٣). ولدى عودتهم، اخبروا يسوع "بكل ما عملوا وعلموا" (٦: ٣٠). وحينذاك اخذهم يسوع الى الصحراء، وهناك جرى تكثير الارغفة. وفي الواقع ماذا قال يسوع لتلاميذه؟ "أعطوهم انتم ليأكلوا" (٦: ٣٧). واخذ يسوع بالفعل الأرغفة، وكسرها وأعطاها للتلاميذ كي يقدموها للجمع (٦: ٤١). فالتلاميذ لم يفعلوا سوى انهم واصلوا عمل يسوع. وفي خط الروايات السابقة، يمكننا ان نفهم هنا ان يسوع يعلم أولا تلاميذه، الاثني عشر، وهؤلاء ينقلون فقط للجمع التعليم الذي تلقوه.

وبالتالي، يرمز الخبز الذي يعطيه يسوع للجمع عبر الرسل، بالنسبة إلى الانجيلي، الى كلام الله الذي يجب ان يغذي نفوسهم كما يغذي الخبز المادي

اجسادهم. وهذا التفسير الرمزي يُؤكده احد المشاهد التالية والذي هو -كما سنرى في وقته- مرتبط ارتباطاً وثيقاً بمشهد تكثير الخبز: انه مشهد شفاء ابنة المرأة السورية-الفينيقية (مر ٧: ٢٤-٣٠). أليس "خبز" البنين الذي لا يحسن ان يعطى للكلاب هو بالتأكيد رمز للتعليم الذي يأتي به يسوع؟ (٧: ٢٧).

• هل كثّر يسوع الخبز في الواقع؟

ان الطابع الرمزي لهذه الرواية يفرض علينا طرح السؤال التالي: ماذا حدث في الواقع؟ هل كثّر يسوع حقاً الأرغفة بشكل عجائبي، ام ان للرواية قيمة رمزية، ومن دون ان يكون لها اساس واقعي؟ لن يكون بوسع عالم التفسير، إذا ما التزم بدوره التفسيري، ان يجيب. إلا انه يستطيع مع ذلك ان يضيف بعض الملاحظات التي تتعلق بالقيمة الدفاعية للمعجزات التي اجراها المسيح: بأي مقدار تبدو المعجزات ضرورية لدعم ايماننا؟ هل يتعرض إيماننا بيسوع للخطر إذا تساءلنا عن مدى واقعية بعض المعجزات التي أجراها؟

لكي نجيب الى هذه الاسئلة، ينبغي أولاً ان نوضح ماذا كان يسوع ذاته يقصد حين كان يشفي المرضى وذوي العلل. انه لم يكن يشأ بالتأكيد ان يكابر بنفسه أمام الجماهير، بل بالعكس. فبعد ان شفى الابرص، أمره يسوع: "إياك ان تخبر أحداً بشيء" (مر ١: ٤٤). هوذا يُقيم ابنة يائيرس، ولكن الانجيلي يضيف: "أوصاهم مشدّداً عليهم ألاّ يعلم احد بذلك" (٥: ٤٣). ونجد الأمر ذاته بالصمت إثر شفاء الاصم-الابكم (٧: ٣٦). وهكذا كان على الاعمى الذي شفاه يسوع ان يخفي شفاءه حين أُمِرَ بألاّ يعود الى قريته (٨: ٢٦). وفي ٩: ٢٥، يسرع يسوع الى طرد شيطان قبل ان تُقبل الجموع وتصبح شاهدة على الشفاء. فحين يشفي يسوع ذوي العلل، لم يكن ذلك بدافع المكابرة لدى الجماهير، وإنما، وبكل بساطة (وهو الافضل!)، بدافع جودته، ولانه كان يشفق عليهم. ولَكَم أشار لوقا الى

ذلك، وعلى عدة دفعات: في ٧: ١٣ يقول لنا أن يسوع، حين رأى ارملة تبكي ابنها الوحيد وهو يُحمل الى القبر: "**أخذته الشفقة عليها**، فقال لها: لا تبكي". فلأن الشفقة اخذته إذ رأى هذه الأرملة المسكينة تبكي، اقام ابنها. ولأن الله مسحه بالروح القدس والقدرة، ولذلك "مضى من مكان الى آخر **يعمل الخير** ويبرئ جميع الذين استولى عليهم ابليس" (رسل ١٠: ٣٨).

وهنا أيضاً، سيمكّننا إنجيل يوحنا من "تخفيف" الاهمية الكبرى التي غالباً ما كنا مدفوعين إلى اعطائها للمعجزات. لا شك ان المعجزات، في الطبقات الاكثر قدماً من الإنجيل -ويسميها يوحنا بحق "آيات"-، كانت تهدف حقاً الى إقامة الدليل على كون يسوع مُرسَلاً من قبل الله، كما كان موسى من قبل (انظر خر ٤: ١-٩). ففي قانا الجليل حوّل يسوع الماء الى خمر، ويشير الإنجيلي الى أنه "أظهر مجده، فآمن به تلاميذه" (يو ٢: ١١). وفي اورشليم "آمن به كثير من الناس لمّا رأوا الآيات التي أتى بها" (٢: ٢٣). وفي الجليل كانت الجموع تتبعه "لما رأوا من الآيات التي أجراها على المرضى" (٦: ٢). وقبل ان يقيم لعازر، قال يسوع انه يصنع المعجزة "لكي يؤمنوا انك أنت أرسلتني" (١١: ٤٣). إلا ان المسيحيين، في حوالي نهاية القرن الاول، كان بوسعهم ان يعترضوا على هذا النحو: بالنسبة الى تلاميذ يسوع، كان من السهل عليهم ان يؤمنوا لأنهم كانوا يرون المعجزات التي صنعها.. اما بالنسبة إلينا نحن، فماذا؟ على مَ ينبغي ان يؤسَّس إيماننا بيسوع طالما لم يبق لنا معجزات؟

وللإجابة على هذا الاعتراض، عمد يوحنا، في الطبقات الأكثر حداثة من إنجيله، الى تغيير مواقفه. فها هو يضع على لسان المسيح هذا التأنيب الموجه الى ذاك الوالد الذي جاء يتوسل اليه ان يشفي ابنه: "إذا لم تروا الآيات والأعاجيب لا تؤمنون؟" (٤: ٤٨؛ انظر ٢٠: ٢٩). وهذا التأنيب لا يتوجه ولا ريب الى والد الطفل -وقد عبّر عن إيمانه حين جاء الى المسيح طالباً إليه شفاء ابنه- بقدر ما

يتوجه بالأحرى الى معاصري الإنجيلي. ولذا كانت صيغة المخاطب الجمع. فلا ينبغي ان تكون المعجزات هي المحرك لايماننا، وإنما سموّ تعليم يسوع بالذات، والكلام الذي يبلغنا اياه من قبل الله. لا شك ان اهل قرية سيخارة آمنوا بيسوع بفضل اقوال السامرية التي شهدت على المعرفة الفائقة التي كان يمتلكها (٤: ٢٨-٢٩، ٣٩)، إلا أن يسوع أمضى يومين في القرية، بحيث ان الإنجيلي ختم الرواية قائلاً: "فآمن منهم عدد اكبر كثيراً، عن كلامه، وقالوا للمرأة: لا نؤمن الآن عن قولك، فقد سمعناه نحن، وعلمنا انه مخلّص العالم حقاً" (٤: ٤١-٤٢). وهناك مشهد آخر أكثر تميزاً: كانت الجموع قد دهشت الى حد كبير حين عاينت آية تكثير الخبز، حتى انها عرفت في يسوع النبي الآتي الى العالم، وارادت من ثم أن تختطفه لتقيمه ملكاً (٦: ١٤-١٥). إلا ان هذه الجموع ذاتها، في اليوم التالي (٦: ٢٢-٢٦)، تشككت مما أكده يسوع عن ذاته (٦: ٥٢-٦٠)، حتى ان كثيرين من تلاميذه تخلوا عنه (٦: ٦٦). وحينئذ سأل يسوع الاثني عشر: "أفلا تريدون أن تذهبوا انتم أيضاً؟". غير ان بطرس أجاب باسم الجميع: "يا رب، الى من نذهب؟ وكلام الحياة الابدية عندك، ونحن آمنّا وعرفنا انك قدوس الله" (٦: ٦٧-٦٨). وإذا كان الاثنا عشر قد بقوا متعلقين بيسوع، فليس ذلك لأنهم رأوه يكثر الخبز، وإنما لأنه بلّغهم الكلام الذي يمنح الحياة.

وهكذا يمكننا ان نعود الى رواية تكثير الخبز كما رواها مرقس. ذلك ان الانجيلي اضفى عليها قيمة رمزية لا تُنكر: فالخبز يعني كلمة الله التي يعطيها يسوع للرسل كي يبلّغوها بدورهم الى الجموع. وهذا هو الواقع (وهل من واقع افضل؟) الذي يريد الإنجيلي، قبل كل شيء، ان يبلغنا إياه، وذلك هو الأمر الوحيد الذي يهمنا.

السير على الماء

(٦: ٤٥-٥٢)

بعد ان اشبع يسوع الجموع في البرية، هوذا يصرفها ويُلزم تلاميذه ان يركبوا السفينة ويسبقوه الى الشاطئ الآخر، ثم يذهب لوحده إلى الجبل ليصلي (٦: ٤٥-٤٦). وفي أثناء الليل، فيما رأى تلاميذه من بعيد يجذّفون بعناء ضد الريح، لحق بهم سائراً على البحر، مما أثار فزع التلاميذ، فصعد من ثم في السفينة، وللحال هدأت الريح. وهنا ايضاً، لنرَ ماذا كان قصد مرقس حين روى لنا هذا الحدث.

المقاربات الادبية مع رواية تسكين العاصفة (مر ٤: ٣٥-٤١) واضحة بشكل بديهي. فيسوع صرف الجمع الذي كان يحيط به (٤: ٣٦أ؛ ٦: ٤٦أ). كل شيء يجري "حين حان المساء" (٤: ٣٥؛ ٦: ٤٧أ)، وخلال الليل بالتالي. كان على التلاميذ ان يذهبوا في السفينة "الى الجانب الآخر" من بحر الجليل (٤: ٣٥-٣٦؛ ٦: ٤٥). ففي الرواية الأولى، وُجدَ التلاميذ في صعوبة، بسبب الريح التي كانت تعصف بشدة، كما بسبب البحر الذي كان يهدّد سفينتهم. ويسوع يبدو اكثر قوة من العناصر المنفلتة: انه يأمر الريح والبحر فيطيعانه. اما في الرواية الثانية، فالصعوبة متأتية بالأخص من الريح التي ستهدأ بالتالي، ولكن يسوع يبدو قد غلب البحر طالما انه مشى عليه دون ان يغوص. والصيغة التي تشير الى انتصار يسوع على الريح هي ذاتها في الروايتين: "فسكنت الريح" [kai ekopasen ho anemos] (٤: ٣٩؛ ٦: ٥١). و ينهي مرقس اخيراً الروايتين بالاشارة الى ذهول التلاميذ إزاء قدرة يسوع الفائقة (٤: ٤١؛ ٦: ٥١جـ).

وكما رأينا أعلاه (الباب ٨) كانت لرواية تسكين العاصفة بالتأكيد، بالنسبة الى مرقس، قيمة رمزية من السهل ملاحظتها حين نعلم ان لفظة [pneuma]، في

اليونانية كما في اللغات السامية، كانت تعني في الوقت ذاته "النسمة" أو "الريح"، وأيضاً "الروح". وفي كلتا الروايتين كان من الصعب ان يُشار الى الريح بلفظة غير لفظة [anemos] الدقيقة، وكان لا بد لموضوع "الريح"، ومن دون صعوبة، ان يوحي بموضوع "الروح" والروح الشرير بالذات، طالما انه يلحق الضرر بالبشر. ففي الرواية الأولى، كان الريح والبحر يرمزان الى القوى الشريرة المعادية للبشر، والتي كان بوسع المسيح ان يغلبها. ومن المعقول جداً ان يكون الأمر هنا على النحو ذاته. فلقد رأينا بالفعل ان مرقس، الى حد الآن، ربط دوماً معاً، وعلى وجه التقريب، الموضوعين المتكاملين: يسوع هو النبي الذي يعلّم، والملك الذي يطرد الارواح الشريرة لكي يتسنى له ان يوطد مُلكه على الارض. وهكذا هي الحال هنا فبعد رواية تكثير الخبز التي اضفى عليها مرقس قيمة رمزية، كون يسوع-النبي يبلّغ الجموع كلام الله، لدينا هنا رواية السير على المياه والتي يظهر فيها يسوع أكثر قوة من "الريح-الروح" والبحر، هذه العناصر التي كانت ترمز الى القوى الشريرة المعادية للبشر. ذلك ان مرقس يضفي عليها بالتأكيد قيمة رمزية: فيسوع يسيطر على القوى الشريرة لكي يوطد ملوكيته على العالم.

قد يكون لرمزية الرواية، في نظر مرقس، معنى أكثر دقة. وينبغي ان نقارنها بالفعل برواية ترائي المسيح القائم كما قُصَّت في لو ٢٤: ٣٦-٤٣ ويو ٢٠: ١٩-٢٠. فكل شيء يتم بعد ان يكون الليل قد حلّ (مر ٦: ٤٧؛ يو ٢٠: ١٩). هوذا يسوع يأتي الى تلاميذه (مر٦: ٤٨؛ يو ٢٠: ١٩ب؛ انظر لو ٢٤: ٣٦). وهؤلاء يظنون انهم يرون خيالاً (مر ٦: ٤٩) أو روحاً (لو ٢٤: ٣٧) فيضطربون (مر ٦: ٥٠أ؛ لو ٢٤: ٣٧-٣٨). ويقول لهم يسوع لكي يطمئنهم: "أنا هو" (مر ٦: ٥٠جـ؛ لو ٢٤: ٣٩ب). فمرقس الذي لا يروي أي تراءٍ للمسيح الناهض، حوّل العناصر الرئيسة الى هذه الرواية التي نحن بصددها. البحر يرمز الى سلطان الموت الذي يهدّد بابتلاع البشرية: "غرقت في موحلٍ عميق ولا

مستَقَرّ، بلغت الى قعر المياه والسيل غمرني" (مز ٦٩: ٣؛ انظر يـــون ٢: ٤-٦). فمرقس، حين أشار الى يسوع ماشياً على البحر من دون ان يغمـــره، انمـــا اراد ان يقول لنا انه، بقيامته، غلب الموت، وهو العدو الاكبر (انظر ١ قور ١٥: ٢٦). وإذا قال لتلاميذه: "ثقوا، أنـــا هـــو، لا تخـــافوا"، فـــهو قـــول موجّـــه أيضـــاً الى كل تلاميذه، وبالتالي لنا نحن: المسيح، بانتصـــاره علـــى المـــوت، انقذنـــا منـــه (انظر متى ١٤: ٢٩-٣١).

يبدو يسوع، في الرواية الاولى لتكثير الخبز، النبي الذي يوزّع علـــى البشـــر كلام الله. وفي رواية السير على المياه، يبدو الملك القادر ان يغلب قوى الشر لكـــي يملك مكانها على العالم. وهكذا نلقى من جديد الموضوع الرئيس لـــدى مرقـــس: يسوع هو في الوقت ذاته نبي وملك، كما علّمنا في مشهد عماذه على يد يوحنا.

إلا ان الرمزية المضاعفة في الرواية تدعونا الى ان نطرح السؤال ذاته الـــذي طرحناه في رواية تكثير الخبز: ماذا جرى في الواقع؟ ليس الجواب بالتالي بذات اهمية البتة. فالمهم هو ان نفهم التعليم الذي شاء مرقس ان يعطينا إياه حين ألّـــف هـــذه الرواية. فالرمزية تتناسب مع واقع هو أكثر اهمية، بالنسبة لنا، من ماديـــة الحـــدث المفترضة.

وينهي مرقس روايته حين يقول لنا ان التلاميذ دهشوا مما حدث، ويقـــول: "لأنهم لم يفهموا ما جـــرى علـــى الارغفـــة، بـــل كـــانت قلوبهـــم قاســـية" (٦: ٥٢). وهكذا سوف يشير، أكثر فأكثر، إلى عدم فهم التلاميذ، مما سيجعل من المدهش جداً اعتراف الايمان الذي سيعلنه بطرس في قيصرية. إلا أننا سنعود في مـــا بعد الى هذه المشكلة.

الطهارة الطقسية

(٧: ١-٢٣)

كان الوثنيون، في نظر اليهودية الرسمية، اناساً نجسين ينبغي تجنبهم كالطاعون. وكان كل احتكاك بهم يؤدي بالمخالف الى النجاسة الطقسية. وهوذا يسوع يعارض من جديد التعليم الرسمي للكتبة والفريسيين، ويظهر استقلاله تجاه هذه الافكار الموروثة.

• رتب التطهير

كان تلاميذ يسوع يستعدون لتناول الطعام من دون أن يطهّروا أيديهم بالغسل، وهذا ما شكك بشدة الفريسيين، فضلاً عن عدد من كتبتهم (٧: ١-٢). ولنقلها للحال بأنه كان يقال "أكل الخبز" عوضاً عن "تناول الطعام". وهكذا نبقى في سياق روايتي تكثير الخبز، والذي سيكون وراء كل هذا المقطع، كما سنرى أدناه. سيدخل مرقس، عبر مقطع طويل بين قوسين، في تفاصيل عدد من افعال التطهير التي يفرضها الفريسيون: "لأن الفريسيين واليهود عامة لا يأكلون إلا بعد أن يغسلوا ايديهم حتى المرفق، تمسّكاً بسُنّة الشيوخ. وإذا رجعوا من السوق، لا يأكلون إلا بعد أن يغتسلوا. وهناك اشياء اخرى كثيرة من السُنّة يتمسكون بها، كغسل الكؤوس والجرار وآنية النحاس" (٧: ٣-٤). ولا يتعلق الأمر هنا بوصايا ترقى الى الشريعة الموسوية، وإنما بتقاليد كانت قد ازدادت على مر الاجيال. فبعد هذا المقطع يعود مرقس الى المآخذ التي يوجهها الفريسيون والكتبة

إلى التلاميذ: "لِمَ لا يجري تلاميذك على سنّة الشيوخ، بل يتناولون الطعام بأيدٍ نجسة؟"(٧: ٥).

ويدافع يسوع من خلال توجيه النقد الشديد حول قيمة هذه التقاليد. هوذا يبدأ بوضع محاوريه وجهاً لوجه مع نص النبي اشعيا: "هذا الشعب يكرمني بشفتيه، واما قلبه فبعيد مني، انهم بالباطل يعبدونني. فليس ما يعلّمون من المذاهب سوى احكام بشرية" (٧: ٦ب-٧؛ انظر اش ٢٩: ١٣). إلا ان الأنكى هو ان هذه التقاليد التي وصلت من الشيوخ، غالباً ما تفسح المجال لنقض وصايا الله، مما يدل على انها غير ذات قيمة، لا بل مضرة. ويعطي يسوع مثلاً دقيقاً على هذا الواقع (٧: ٨-١٣). وكل هذه المآخذ سنجدها، بتوسع أكبر، وبشدة أكثر، في متى ٢٣: ١٣-٣٦. فالفريسيون بالتالي، إذ يُلزمون الناس بحفظ هذه التقاليد، ليسوا سوى مرائين (٧: ٦أ).

إلا ان كل ذلك لم يكن سوى مقدمة للمسألة الجوهرية: ماذا تعني بالضبط عبارة "طاهر" و"نجس"؟ هوذا يسوع يوضح أولاً، وإن بشكل غامض، للجمع الذي يحيط به: "ما من شيء خارج عن الانسان، إذا دخل الانسان ينجّسه. ولكن ما يخرج من الانسان هو الذي ينجّس الانسان" (٧: ١٥). ومن جديد لا يفهم التلاميذ شيئاً من هذا التعليم الذي يبدو سرّياً: ويؤنبهم يسوع على ذلك (٧: ١٨أ) ويشرح فكرته: ما يأكله المرء يمر ببطنه، وليس بوسعه ان ينجّسه. والطهارة الحقيقية هي طهارة القلب. فالقلب، والانسان إذن، هو نجس حين يكون وراء أفعال شريرة يطيب ليسوع ان يعدّدها: "الفُحش والسرقة والقتل والزنى والطمع والخبث والمكر والفجور والحسد والشتم والكبرياء والغباوة". وإذا استُكملت هذه القائمة بمواضيع تستعار من بولس (روم ١: ٢٩-٣٠)، فسنرى انها تتعلق قبل كل شيء بالوصايا العشر: "لا تقتل، لا تزنِ، لا تسرق، لا تشهد على قريبك شهادة زور" (خر ٢٠: ١٣-١٦). وفي ٧: ١٠ كانت وصية خر ٢٠: ١٢ بمثابة نموذج

على الطريقة التي كان يستخدمها الفريسيون لنقض الشريعة الموسوية بحجة تقاليدهم.

ان موقف يسوع هو إذن في منتهى الوضوح. فالطهارة الحقيقية -وهي طهارة القلب- تقوم في حفظ الشريعة الموسوية، ولا سيما حين يتعلق الأمر بعلاقاتنا مع القريب. اما الباقي فليس هو سوى "تقاليد بشرية". وان اعلان المبادئ هذا سوف يوجه مسألة دعوة الوثنيين الى الخلاص. كما ان احكام الوصايا العشر تلتقي، في الواقع، مع احكام الشريعة الطبيعية التي يحملها كل انسان في قلبه (انظر روم ٢: ١٢-١٦). فإذا كان الوثنيون، إذن، يحفظون الشريعة الطبيعية، فذلك يعني ان قلبهم طاهر، حتى ولو لم يحفظوا كل هذه "التقاليد البشرية" التي ادخلها الشيوخ. فلا شيء يمنع من ثم ان نتوجه اليهم ونبشرهم بكلام الله. كما انه من الممكن أيضا ان نخالطهم، من دون ان تلحق بنا النجاسة بسبب التماس. وهذا ما سيقوم به يسوع بالفعل.

المرأة السورية-الفينيقية

(٧: ٢٤-٣٠)

ما أن أعطى يسوع هذا التعليم بشأن الطاهر والنجس، وإذا به يذهب الى منطقة صور، أعني إلى ارض وثنية (٧: ٢٤). وهناك سوف يشفي ابنة امرأة "يونانية الحضارة وسورية-فينيقية المنشأ" (٧: ٢٦)، فهي إذن وثنية.

هناك تفصيلان يشيران الى قصد مرقس، وهو ينقل الينا هذا الحدث. فابنة هذه المرأة، فيها، قبل شيء كل، "روح نجس" (٧: ٢٥) سوف يطرده يسوع (٧: ٢٩-٣٠). ومن ثم يعلن يسوع للمرأة: "دعي البنين أولا يشبعون. فلا يحسن

ان يؤخذ خبز البنين فيلقى الى صغار الكلاب" (٧: ٢٧). من الواضح ان "الخبز" الذي يتحدث عنه يسوع هنا، والذي سوف "يشبع" (انظر ٦: ٤٣) الاولاد، يرمز، في نظر مرقس، الى كلام الله الذي يجب أولا أن يعطى "للأولاد"، أي لبني إسرائيل، لليهود. غير ان "صغار الكلاب" اي الوثنيين، سيمكنهم مع ذلك ان يأكلوا منه الفتات، كما قالت المرأة ليسوع، ونالت تأييده. فالوثنيون سيتسنى لهم، إذن، هم أيضا، ان يستفيدوا من كلام الله، كما ستلمح الى ذلك الرواية الثانية لتكثير الخبز (٨: ١-١٠).

ومن الجدير بالاشارة الى ان يسوع، وللمرة الأولى، يجري شفاء وهو بعيد عن المريض. فهذا يعني، إذن، انه يستطيع ان يطرد الشياطين "عن بعد". ذلك لأن كلامه هو في غاية الفاعلية.

وهكذا يتجاوز يسوع الخوف من الاختلاط مع الوثنيين، متحديا الممنوعات التي وضعها الكتبة والفريسيون، لا بل يعتبرهم جديرين بأن يتلقوا بشرى الملكوت. انه يطرد روحا نجسا، مبينا، بهذا الشكل قدرته على قهر الشيطان واعوانه حتى في قلب العالم الوثني. انه يعترف بأن بمقدور الوثنيين أن يتلقوا فتات الخبز الساقط من مائدة أبناء الملكوت، أعني أن يتلقوا كلام الله الذي يمنح الحياة للأنفس. وهكذا ستمتد عظمة يسوع، الملك والنبي، إلى العالم الوثني.

شفاء أصم

(٧: ٣١-٣٧)

يترك يسوع منطقة صور ويعود، مرورا بصيدون، الى شاطئ بحر الجليل (٧: ٣١). وتدهشنا الملاحظة الدقيقة التي يضيفها مرقس: "مجتازا أراضي المدن

العشر" -ولم تكن تلك هي الطريق الاعتيادية للذهاب من صيدون الى بحيرة طبرية. فيسوع، في فكر مرقس، سيمارس رسالته في المدن العشر طالما انه مازال في ارض وثنية. انه سيشفي رخلاً أصم وأبكم. ولسنا هنا بازاء حالة اخراج شيطان، وإنما بازاء شفاء لا غير. انه يعمل، إذن، لدى الوثنيين، تماماً كما عمل، من قبل، لدى اليهود: يعلّم، يطرد الشياطين، ويشفي مرضى عاديين. ذلك ما كان قد فعله في كفرناحوم، في بدء خدمته (١: ٢١-٣١)، وهذا ما أتمه الاثنا عشر أيضاً، بأمره (٦: ١٢-١٣).

ولما كنا في أرض وثنية، يمكننا ان نعجب كيف يهتم يسوع، هنا أيضاً، بـ "السر المسيحاني": إنه يعمل بتحفظ، آخذاً الأصم بعيداً عن الجمع كي يشفيه (٧: ٣٣)، ومن ثم يوصي الحاضرين ألاّ يكشفوا المعجزة، وإن لم يلتزموا بذلك (٧: ٣٦). فهو حين شفى ممسوساً في جَراسة، إحدى المدن العشر أيضاً -أي في محيط وثني- كان قد أمره بالعكس أن يرجع الى ذويه ويذيع المعجزة (٥: ١٩). فمن المحتمل ان يكون مرقس قد أخذ هذه الرواية من مصدر أكثر قدماً، وبموجبه تمّ الشفاء في غرب البحيرة، في أرض يهودية.

إلا اننا بالتالي نجدنا دوماً ازاء السؤال ذاته الذي ينبغي أن نطرحه: من هو هذا الذي يستطيع أن يجعل الصم يسمعون والخرس ينطقون؟ (٧: ٣٧). فبفضل يسوع، ألسنا ازاء تحقيق لما سبق اشعيا فأعلنه عن الأزمنة المسيحانية: "حينئذ تنفتح عيون العميان، وآذان الصم تتفتح. وحينئذ يقفز الأعرج كالأيّل، ويهتف لسان الأبكم" (اش ٣٥: ٥-٦)؟

تكثير الخبز

الرواية الثانية (٨: ١-١٠)

هذه الرواية الثانية لتكثير الخبز تشبه، وبشكل مدهش، الرواية الاولى: فلها بالضبط البنية ذاتها، ولا تختلف أساسا سوى بالأرقام: يسوع سيكثر الأرغفة السبعة (٨: ٥) عوضا عن الخمسة (٦: ٣٨). والمدعوون هم أربعة آلاف (٨: ٩) عوضا عن خمسة آلاف (٦: ٤٤)، وسيجمعون في النهاية، لا اثنتي عشرة قفة من الكسر الباقية (٦: ٤٣)، وانما سبع سلال (٨: ٨). وكما سبق أن قلنا، نحن بازاء الحدث ذاته، وقد نقل وفق تقليدين مختلفين، ولكنهما متوازيان. وشاء مرقس أن يحتفظ بالروايتين التوأمين، وبقصد معين واضح.

لم يغادر يسوع وتلاميذه المدن العشر (٧: ٣١)، وبحسب نظرة مرقس، ما زلنا في أرض وثنية. يؤيد ذلك بعض التفاصيل في الرواية. ففي ٨: ٣ب، يقول لنا مرقس بأن الناس الذين سيحظون بالمعجزة "قد جاءوا من بعيد"(apo makrothenhèkasin). وفي العهد الجديد، كان من المعتاد ان يعتبر الوثنيون بمثابة اولئك الذين هم "في البعيد" (رسل ٢: ٣٩؛ ولا سيما ٢٢: ٢١؛ اف ٢: ١٣، ١٧). ولدينا ما هو أفضل، كون الصيغة التي استخدمها مرقس هنا، ترجع صدى سفر يشوع ٩: ٩: "قد قدم عبيدك من ارض بعيدة جدا [ek gès makrothen sphodra hèkasin]". وفي هذا السفر، كان الحديث عن سكان جبعون، أي وثنيين استخدموا حيلة كي لا يبيدهم العبرانيون (يش ٩: ٣-١٥)، وهكذا تسنى لهم أن يعيشوا في ما بينهم (٩: ١٦-٢٧). ولما استعاد مرقس، في روايته، الصيغة التي كان يقرأها في يش ٩: ٩، شاء أن يفهمنا

بالتالي ان الناس الذين سوف يحظون بتكثير الخبز، هم وثنيون سيكون بوسعهم أن يدخلوا ملكوت الله.

في رواية تكثير الخبز الأولى، كانت قد جمعت اثنتا عشرة قفة من الكسر، وهو رقم كان لابد أن يوحي بأسباط إسرائيل الاثني عشر. وهنا تجمع سبع سلال، وهو رقم يقابل عدد "الخدام" الذين اختيروا بين المسيحيين القادمين من الوثنية كي يخدموا الموائد (رسل ٦: ١-٦)، ولكنه يقابل بالأكثر عدد الشعوب الوثنية التي كانت محتلة أرض الميعاد قبل مجيء العبرانيين (رسل ١٣: ١٩).

إن قصد مرقس واضح بالكفاية. فبعد اليهود، هوذا الوثنيون الآن يحظون بمعجزة تكثير الخبز. إلا أن القصد العميق يبقى حتما هو ذاته: الخبز يرمز الى كلام الله الذي سيحمله يسوع وتلاميذه الى الوثنيين.

- ١٠ -

يسوع يعترف به ملكا ونبيا

(٨: ٢٧-٩: ١٣)

لقد سمع يسوع، إبان عماذه، صوتا كشف له أنه نصب ملكا على شعب الله الجديد (انظر مز ٢: ٧)، وأن عليه أن يذهب فيعلن حق الله (انظر اش ٤٢: ١-٤)، كما كان يفعل الانبياء في إسرائيل. ولكن الشيطان واعوانه، بحسب مفاهيم ذلك العصر، كانوا يملكون على العالم. فكان على يسوع، إذن، ان يطرد الارواح النجسة كي يخلع الشيطان ويوطد ملوكيته الشخصية. وبصفته نبيا، لم يتوقف عن الوعظ وتعليم الجماهير. ولكن هل كان بوسع الناس الذين شاهدوا يسوع يصنع هكذا، أن يدركوا انه كان ملكا ونبيا؟ كان بوسع قارئ مرقس أن يدركه، بما انه تعلم ذلك من قراءته مشهد العماذ. اما الآخرون؟ فلقد كان ذلك لهم من الصعوبة بمكان، حتى بالنسبة لاولئك الذين كانوا أكثر استعدادا تجاه يسوع. وهوذا مشهدان حاسمان سيعملان على رفع كل الترددات، أقله بالنسبة الى التلاميذ: ففي قيصرية فيلبس، يعترف بطرس أخيرا، وبشكل علني، بأن يسوع هو المسيح، أي انه ملك شعب الله الجديد، ولن يعارضه يسوع (٨: ٢٧-٣٠)؛ ولدى التجلي (٩: ٢-١٠) يصادق صوت سماوي على ذلك، وفي الوقت ذاته يشير اليه كونه النبي، وبوجه مطلق.

بطرس يعترف

بأن يسوع هو المسيح

(٨: ٢٧-٣٠)

هوذا يسوع وتلاميذه في الطريق نحو قيصرية فيلبس (٨: ٢٧)، في اسفل جبل حرمون، عند منابع الاردن. ويسأل يسوع تلاميذه ماذا يفكر الناس عنه، ومن ثم، ماذا يفكرون هم أنفسهم. وهوذا بطرس يجيبه: "أنت المسيح". فبطرس يعترف به، إذن، ملكا على شعب الله الجديد.

• فكرة الناس عن يسوع

لنحاول تحديد الوضع: كيف كان اليهود يتصرفون ازاء أعمال يسوع وأقواله؟

الكتبة والفريسيون معادون، وبشكل مكشوف (٢: ١-٣، ٦؛ ٧: ١ت). ذلك لأن يسوع لم يكن على وفاق مع تعليمهم، ولا مع اسلوبهم المتشدد والحرفي فوق القياس في تفسير الشريعة. وإذ يقولها يسوع بوضوح، يقررون، في قمة غضبهم، ان يميتوه (٣: ٦): انهم يرفضونه كنبي. وحين يطرد يسوع الارواح الشريرة، يتهمه الكتبة والفريسيون بأنه هو ذاته قد استولى عليه بعلزبول، وأنه يطرد الشياطين بفضل طاعته لرئيس الشياطين! (٣: ٢٢-٢٦): فهم إنما يرفضونه كملك. ولكي يؤمنوا بيسوع طلبوا آية من السماء، ولكنهم لم يطلبوها

إلا "ليجربوا" يسوع، كما فعل الشيطان من قبل، ولذا نرى يسوع يرفض (٨: ١١-١٣).

هناك آخرون، من دون أن يكونوا معادين، يبقون غير مبالين. هم اخوته واخواته (٣: ٢٠-٢١، ٣١-٣٥)، هم ذووه الأقربون وأهل قريته (٦: ١-٦أ). انهم يعرفون يسوع بالكفاية: كيف يمكنه أن يكون المسيح، بينما تقول التقاليد الشعبية ان ليس بوسع أحد أن يعرفه؟ لذا يبقون من دون ردود فعل تجاه تعليمه، كما تجاه معجزاته: إنهم لا يريدون أن يعترفوا به، لا نبيا، ولا ملكا.

ويبقى الشعب، تلك الجماهير التي لا اسم لها. ففي كل صفحة من الانجيل نراها تتهافت لتصغي إليه حين يتكلم، ولتحمل إليه الممسوسين والمرضى. إنها تزدحم حوله وبحماس. إلا أن يسوع يريد أن يحد من اندفاعها. وإذا ما علمها، كل مرة سنحت له الفرصة، إلا أنه يقوم بإخراج الشياطين ويجري الشفاءات في أماكن منعزلة، بعيدا عن الجماهير، ويوصي بعدم الكلام. انه يشاء، بطيب الخاطر، أن يعترف به نبيا، ولكن لا ملكا مشيحانيا، ذلك لأن هذا اللقب يلفه الغموض (انظر السر المسيحاني اعلاه: الباب ٤). وهكذا نفهم بأن يسوع، حين سأل التلاميذ ماذا يفكر الناس عنه، أجابوا: بعضهم يحسبونه يوحنا المعمذان قد عاد الى الارض، وآخرون يعتبرونه ايليا أو أحد الأنبياء (٨: ٢٨؛ انظر ٦: ١٤-١٥)، ولكن لا أحد يظن أن يكون، هو ذاته، المسيح، ذاك الملك على الملكوت الجديد.

• فكرة التلاميذ

بقيت حالة التلاميذ، أي اولئك الذين تبعوا يسوع منذ بدء خدمته، وقد سمعوه يعلم ورأوه يعمل. ولكن أية خيبة أمل! ومرقس، فيما يعطي الكلام ليسوع، يطيب له ان يشدد على غباوتهم. فحين يعلم يسوع بأمثال، نراهم لا يفهمون شيئا، ويسوع يؤنبهم بقسوة (٤: ١٣؛ ٧: ١٨). وعندما تنقض العاصفة على البحيرة،

يأخذهم الفزع إذ لا إيمان لهم بيسوع، فيوجه اليهم تأنيبا جديدا (٤: ٤٠). ونراهم مندهشين كون يسوع استطاع أن يهدئ الريح التي كانت معاكسة، بينما كان ينبغي لمعجزة الأرغفة أن تنيرهم، ولكن "قلوبهم كانت قاسية" (٦: ٥٢). ولما نسوا أن يأخذوا خبزا معهم، نراهم يأسفون ويضطربون وكأنهم لم يشهدوا تكثير الخبز على دفعتين! وهنا (٨: ١٧-٢١) يصبح مرقس اكثر حدية، إذ يعطي الكلام ليسوع بالذات: "ما بالكم تتجادلون لأنه لا خبز عندكم؟ ألم تدركوا حتى الآن وتفهموا؟ ألكم قلوب قاسية؟ ألكم عيون ولا تبصرون، وآذان ولا تسمعون؟" (أنظر ار ٥: ٢١). وحينذاك يذكرهم بعدد القفف والسلال التي جمعوها بعد معجزتي تكثير الخبز، ويأخذه العجب بعد فروغ الصبر: "ألم تفهموا حتى الآن؟".

وتأخذنا الدهشة حين نسمع بطرس يؤكد بعد بضعة أيام: "أنت المسيح" (٨: ٢٩)! فما الذي حدث حتى يكون بوسع بطرس -وقد لازمته الغباوة الى حد الآن، على شاكلة التلاميذ الاخرين- ان يتعرف بغتة على شخصية يسوع الحقيقية؟ هذا ما لا يقوله لنا مرقس، ولكن بوسعنا أن نفترض تدخلا إلهيا مكن بطرس من أن "يرى" المسيح في يسوع. وهذا ما قاله متى: "طوبى لك يا سمعان بن يونا؛ فليس اللحم والدم كشفا لك هذا، بل أبي الذي في السموات" (متى ١٦: ١٧).

ها قد عرف التلاميذ الآن أن يسوع هو المسيح، ذاك الملك للملكوت الجديد. إلا أن هذا سر يتوجب عليهم ان يحفظوه لأنفسهم وحدهم: "فنهاهم ان يخبروا أحدا بأمره" (٨: ٣٠). فأن تستمر الجموع في اعتباره نبيا، فذلك حسن. ولكن لا ينبغي أن تكتشف فيه ملكا: وإلا جعلت منه ملكا سياسيا، ملكا ينقذها من سلطة الرومان، وهذا ينافي رسالة يسوع.

• شفاء أعمى

بعد أن أكد مرقس على غباوة التلاميذ (٨: ١٧-٢١)، وقبل أن ينقل اعلان ايمان بطرس (٨: ٢٧-٣٠)، روى كيف أعاد يسوع البصر الى أعمى (٨: ٢٢-٢٦). هذه الرواية تثير الفضول. يضطر يسوع الى المحاولة، على دفعتين، كي يتم الشفاء. فهو يبدأ بوضع التفل على عيني الاعمى (انظر يو ٩:٦)، ثم يضع يديه عليه ويسأله إذا كان يبصر شيئا. ويجيبه الاعمى بأنه يبصر، ولكن الرؤية ليست واضحة بعد: "أبصر الناس فأراهم كأنهم أشجار وهم يمشون" (٨: ٢٤). وحينذاك يضع يسوع يديه ثانية على عينيه، "فابصر وعاد صحيحا يرى كل شيء واضحا" (٨: ٢٥).

ان الطابع الرمزي للرواية واقع لا يقبل الجدل. فالتلاميذ لم يكونوا قادرين ان يتعرفوا على شخصية يسوع الحقيقية، فهم انما لهم عيون ولا يبصرون (٨: ١٨). ومن الصعب أن "يرى" المرء، اعني ان يفهم من هو يسوع. وليس بوسع يسوع ان يحملنا على الايمان به إلا شيئا فشيئا: ونفهم ذلك من موقف التلاميذ. وسنحتاج الى عملية شفاء طويلة كي يتسنى لنا أن نقول ليسوع على مثال بطرس: "أنت المسيح".

التجلي

(٩: ٢-١٠)

في المشهد السابق اعترف بطرس أن يسوع هو المسيح، ملك شعب الله الجديد. ولدى التجلي سيؤيد صوت سماوي ويكمل اعلان الايمان الذي ادلى به بطرس: يسوع هو ايضا النبي الاعظم. والمشهدان متكاملان ولا يمكن فصلهما.

• تجلي يسوع وعماذه

ان رواية التجلي هي جواب على رواية عماذ يسوع: ففي الحالتين، يسمع صوت سماوي يعلن من هو يسوع. ونلاحظ الفرق على الفور. في العماذ كان الصوت ينادي بهذه الكلمات: "انت ابني، الحبيب، عنك رضيت" (١: ١١). فنحن، كما رأينا، ازاء مرجع من المزمور ٢: ٧ ومن اش ٤٢: ١: يتلقى يسوع وحيا بأنه ملك الشعب الجديد، وانه ذاك الذي يتوجب عليه ان يعلن حق الله للشعوب. اما لدى التجلي، فالصوت السماوي يعلن: "هذا هو ابني، الحبيب، له اسمعوا" (٩: ٧). فالصوت لم يعد يتوجه الى يسوع، وانما الى التلاميذ الثلاثة المميزين: بطرس ويعقوب ويوحنا (٩: ٢). فهم الذين يتلقون وحيا أو بالأحرى تأييدا حول شخصية يسوع الحقيقية.

وحين يتوجه الصوت السماوي الى التلاميذ الثلاثة الحاضرين، فهو لا يعود يقول: "انت ابني"، وانما "هذا هو ابني". وهكذا لا يبدو التلميح الى مز ٢: ٧، والى ملوكية يسوع من ثم، واضحا، لذا كان التغيير في الصيغة ضروريا. ومن المحتمل، من جهة اخرى، ان يكون مرقس شاء ان يعوض عن النقص في نص المزمور، فأدخل في الرواية تفصيلا يجهله كل من متى ولوقا. ففي ٩: ٤ يذكر الشخصين اللذين يترائيان الى جانب يسوع، ولكنه لم يتبع الترتيب الزمني الذي احترمه متى ولوقا، بل قال ان "ايليا مع موسى" ترائيا. فهو يريد، اذن، ان يركز على شخص ايليا على حساب شخص موسى. ألا يكون ذلك لأن ايليا، بحسب التقاليد اليهودية، كان ينبغي ان يأتي ليعد نهضة شعب الله (انظر ملا ٣: ٢٣-٢٤؛ وقد أستشهد به في مر٩: ١١-١٣)؟ فالاهمية المعطاة لشخص ايليا، يقصد بها، إذن، التلميح الى موضوع ملوكية يسوع.

في العماذ، كان الصوت السماوي قد واصل قائلا ليسوع: "الحبيب، عنك رضيت"، وهذا تلميح، كما سبق ان قلنا، الى اش ٤٢: ١، أي الى "خادم يهوه"

الذي عليه ان يحمل حق الله الى الأمم. ويقول الصوت الآن للتلاميذ: "الحبيب، اسمعوا له". فالتلميح الى اش ٤٢: ١ لا يكاد يظهر، إذ أستبدل بنداء أستعير من تث ١٨: ١٥ حيث يقول فيه موسى للعبرانيين: "يقيم الرب إلهك نبيا مثلي من وسطك، من اخوتك، **فله تسمعون**". وهكذا يصبح الصوت اكثر وضوحا ودقة مما في عماذ يسوع: فيسوع يشار اليه الآن بصفته هذا النبي، الشبيه بموسى، الذي كان الله قد وعد ان يرسله الى شعبه. وهو الذي يجب عليه ان ينقل الينا اقوال الله ذاتها: "اجعل كلامي في فمه، فيخاطبهم بكل ما آمره به" (تث ١٨: ١٨؛ انظر يو ١٢: ٤٩-٥٠). وسيتوجب علينا، إذن، ان نسمع كل ما سيقوله يسوع، طالما انه ينقل الينا اقوال الله ذاتها. ومن المعلوم جدا ان فعل "اصغى" يجب ان يفهم بمعنى مكثف: فليس هو فقط "سمع"، وانما ايضا "اطاع"، وبالتالي نفذ وطبق.

• يسوع، موسى الجديد

ان يكون يسوع موسى الجديد، فالمشهد برمته يوحي به فعلا، إذ يذكر بمشهد إبرام العهد في سيناء بحسب خر ٢٤ و ٣٤. فموسى يصعد الى جبل (سيناء) مع يشوع وحده، وبينما هو هناك، إذا غمامة -وتلك علامة واضحة على الحضور الالهي- تغطي الجبل (خر ٢٤: ١٢-١٨؛ ٣٤: ٤-٥). وهنا أيضا، يصعد يسوع على جبل، ومعه بطرس ويعقوب ويوحنا وحدهم (مر ٩: ٢)، وبينما هم هناك، إذا غمامة غطتهم بظلالها (٩: ٧). وحين نزل موسى من الجبل، كانت "بشرة وجهه قد صارت مشعة من مخاطبة الرب له"، وكان الاسرائيليون "يرون ان بشرة وجه موسى مشعة" (خر ٣٤: ٢٩، ٣٥). وهكذا هي الحال هنا، طالما ان يسوع "تجلى امام" التلاميذ (مر٩: ٢جـ)، او كما يقول متى ١٧: ٢ بشكل أكثر دقة: "اشع وجهه كالشمس". اما بخصوص الخيم الثلاث التي اراد بطرس ان يصنعها

(مر ٩: ٥)، فهي توحي بالمسيرة في الصحراء ابان الخروج، حين اضطر العبرانيون على العيش تحت الخيام.

وكان موسى على قمة سيناء قد تلقى الالواح التي كتبت عليها "الكلمات العشر" (خر ٣٤: ٢٨)، اي الوصايا العشر التي كان العهد القديم مؤسسا عليها. ويمكن الاعتقاد، من وجهة نظر مرقس، بأن يسوع تلقى وحيا أكثر اتساعا لما ينبغي ان تكون عليه الشريعة الجديدة للعهد الجديد. إلا ان مرقس بقي، حتى الآن، متحفظا جدا بشأن مضمون تعليم المسيح. ولقد عرفنا، بفضل مثل الزرع وتفسيره (مر ٤: ٣-٢٠)، بأن ملكوت الله يتكون من اولئك الذين يقبلون الكلمة التي يزرعها المسيح ويضعونها موضع التنفيذ، ولكننا نجهل بعد ما هو مضمون هذه الكلمة. ولن نطلع عليه إلا في الروايات التي تلي مشهد التجلي هذا.

اما الوحي الأكمل فيرمز اليه حضور ايليا وموسى "اللذين كانا يكلمان يسوع" (٩: ٤). لقد كانت الشريعة، في العهد القديم، قد أعطيت بوساطة موسى، وكانت رسالة الانبياء تقوم على تذكير بني اسرائيل بمتطلباتها. وهكذا نجد تعبيرا عن الوحي برمته بفضل هذه الصيغة: "الشريعة الانبياء" (متى ٥: ١٧؛ ٧: ١٢؛ ١١: ١٣؛ ٢٢: ٤٠). إلا ان مرقس لا يستخدمها ابدا، مع أنه يعطي هنا ما يُقابلها، اذ يجعل ايليا (وهو النبي الاكبر) وموسى (الشريعة) يتراءيان الى جانب يسوع. انه يوضح بأن هذين الشخصين كانا "يكلمان يسوع". ولم يكن ذلك بالتأكيد لقضاء الوقت! انهما يرمزان هنا الى الوحي الأكمل الذي تلقاه يسوع.

• السر المسيحاني

حين اعلن بطرس ايمانه في قيصرية فيلبس، كان يسوع قد أوصى تلاميذه ألا يقولوا شيئا عن كل ما جرى (٨: ٣٠). وهكذا الحال بعد المشهد الذي نحن بصدده. فيسوع يطلب من التلاميذ الثلاثة المميزين ألا يقولوا شيئا عما رأوا، الى

اليوم الذي يقوم فيه من بين الاموات (٩: ٩). فالجموع لا ينبغي ان تعرف بأن يسوع هو المسيح، وانه النبي الشبيه بموسى، وذلك تجنبا لكل حماس في غير مكانه.

الإنباء الأول بالآلام

(٨: ٣١-٣٣)

سبق ان قلنا ان انجيل مرقس يتألف من قسمين: في القسم الاول الذي ينتهي مع مشهد التجلي، نتعرف على شخصية يسوع الحقيقية،المسيح (الملك) والنبي. وفي القسم الثاني نجد عرضا وتفسيرا لهذه المفارقة: ينبغي له ان يكون الملك والنبي بالرغم من موته القاسي، وذلك لأنه ابن الله، ولأنه في حماية الله من ثم. إلا أن مرقس شاء أن "يربط" هذين القسمين بإحكام ، الواحد بالآخر: فبين المشهدين البارزين من القسم الأول، -إعلان إيمان بطرس والتجلي- أعطى مذاقا مسبقا عن القسم الثاني، حين جعل اول إنباء عن الآلام يتسلل مع عدد من أقوال المسيح المتعلقة بها (٨: ٣١-٩: ١). وهكذا هي الحال في القسم الثاني، حيث سيروي آخر طرد شيطان اجراه يسوع (٩: ١٤-٢٧) ليذكر بأحد المواضيع الكبرى من القسم الاول.

• أول إنباء عن الآلام

يعلن يسوع بأن على ابن الانسان ان يتألم كثيرا، وان تنبذه السلطات الدينية -تطابقا مع قول مز ١١٨: ٢٢-، وان يقتل ويقوم بعد ثلاثة ايام. انها المفارقة التي سيتوسع فيها في القسم الثاني من انجيله. ان لقب " ابن الانسان"، هو في الواقع، لقب ملوكي، بالرجوع الى دا ٧: ١٣-١٤. فإذا كان ينبغي ان يقتل ابن

الانسان، فكيف يمكنه ان يملك؟ هذه المفارقة عكسها اليهود بوضوح في يو ١٢: ٣٤: "نحن عرفنا من الشريعة ان المسيح يبقى للابد. فكيف تقول انت انه لابد لابن الانسان ان يرفع [اعني ان يصلب]؟". ويعطي يسوع ذاته الجواب: "سيقوم بعد ثلاثة ايام".

إلا ان بطرس الذي لا يفهم ماذا يعني "قام" (انظر ٩: ١٠)، يثور على الفكرة التي يمكن للملك بموجبها ان يقتل -ملك، لكم انتظره هو والتلاميذ الآخرون- وها هو يقولها ليسوع (٨: ٣٢ب). غير ان يسوع اجابه بقسوة: "انسحب ورائي! يا شيطان، لأن افكارك ليست افكار الله، بل افكار البشر" (٨: ٣٣). هوذا يسوع، إذن، يسمي بطرس "شيطانا" بمعنى "المحرب". ويبدو بديهيا التلميح الى تجربة المسيح من قبل الشيطان، في بدء رسالته، وهذا التلميح بعينه يساعدنا على فهمها بشكل أفضل. فالشيطان كان قد "جرب" يسوع حين عرض عليه ان يعطيه كل ممالك الارض، شريطة ان يسجد له. وها هي "التجربة" تتواصل هنا مع التغيير في الأشخاص: فالشيطان يمنح يسوع الملوكية على العالم، من دون ان يكون قد مر بالألم والموت. ويسوع يرفض، ويرتضي بالتالي ان يموت قبل ان يملك، طالما ان هذا هو مخطط الله. انه يجعل نفسه، إذن، "طائعا حتى الموت، موت الصليب" (فل ٢: ٨).

بعد هذا الاعلان الاول عن الآلام، يضع مرقس عددا من اقوال يسوع التي تدعو تلاميذه الى قبول صليبهم، كما سيفعل هو (٨: ٣٤). وسيتوجب عليهم، في زمن الاضطهاد، ان يرتضوا بفقدان الحياة من دون التنكر للمسيح (٨: ٣٥-٣٨). اننا بازاء توضيح لكلام يسوع الوارد في يو ١٣: ١٦: "ما كان الخادم اعظم من سيده". فإذا أراد التلميذ ان يكون ابن الملكوت، كان عليه ان يتبع يسوع - الملك، ويحمل صليبه وراءه، لا بل يفقد حياته.

• هل أعلن يسوع عن قيامته؟

لنفتح هنا قوسين يتعلقان بالفكرة التي يمكن ان تساورنا بشأن وعي يسوع، بصرف النظر عن انجيل مرقس الحالي. فلقد نقل لنا التقليد الانجيلي ثلاثة إنباءات اعلنها يسوع عن موته وقيامته: هنا، وفي مر ٩: ٣٠-٣٢، وفي مر ١٠: ٣٣-٣٤، بتفاصيل اكثر دقة بكثير. أما الإنباء الثاني، فقد صيغ على النحو التالي: "ان ابن الانسان يسلم الى ايدي الناس، فيقتلونه، وبعد قتله بثلاثة ايام يقوم". ونجد ان ما يوازيه في لو ٩: ٤٤ هو اكثر اقتضابا: "ان ابن الانسان سيسلم الى ايدي الناس". فلا ذكر، لا لموته ولا لقيامته. ونلتقي إذ ذاك بهذه الكلمة التي يكون يسوع قد قالها قبيل اعتقاله بلحظات: "أتت الساعة، وابن الانسان يسلم الى ايدي الخاطئين" (مر ١٤: ٤١؛ انظر متى ٢٦: ٤٣). ونلاحظ هنا صيغة الحاضر، كما في الإنباء الثاني الذي أوردناه منذ لحظة، مما يضعنا بشكل افضل في قلب الموقف، طالما ان يسوع متأهب لأن يسلم على يد يهوذا.

لم يكن يسوع في الواقع قد تلفظ إلا بالكلام الذي نقل في مر ١٤: ٤١ ومتى ٢٦: ٤٣ وايضا لو ٩: ٤٤. إنه قول يرتبط بشكل وثيق بموضوع "ابن الانسان" كما جاء في دا ٧. ففي الآيات ١٣-١٤ منه، نرى كمثل ابن انسان يبلغ الى الله حيث يتلقى "سلطانا ومجدا وملكا". وحين يعطي النبي تفسيرا لهذه الرؤيا، فهو يشرح عبارة "ابن الانسان" بالمعنى الجماعي: انهم "القديسون"، اعضاء الملكوت. بينما يقول لنا في الآية ٢٥ ان "القديسين سيسلمون الى يده"، أي بين ايدي الملك المضطهد. فحين تفسر الرؤيا بالمعنى الشخصي، كما فعل يسوع، كان من الطبيعي ان تدمج الآيات ١٣-١٤ مع الآية ٢٥، وان يقال: "ابن الانسان يسلم الى ايدي الخاطئين". ولما كان هذا القول قد استلهم دا ٧: ١٣-١٤، ٢٥، فمن الواضح أنه تضمن انتصار ابن الانسان النهائي، وهو يسوع بالتالي.

ان "اعلانات الآلام" الثلاثة التي ذكرناها اعلاه ليست في الواقع سوى توسع لهذا الاعلان، نظرا لما كان التقليد المسيحي يعرفه عن موت المسيح وقيامته.

مجيء الملكوت

(٩: ١)

بعد ان اعطى يسوع تلاميذه عددا من التحذيرات التي من شأنها ان تقيهم مخاطر الجحود، في زمن يحين زمن الاضطهادات، هوذا يتلفظ بالعبارات التالية: "الحق اقول لكم: في جملة الحاضرين ههنا من لا يذوقون الموت حتى يشاهدوا ملكوت الله آتيا بقوة". ولكلمة يسوع هذه اهمية كبرى، كونها تنيرنا حول الفكرة التي يحملها يسوع بشأن رسالته. فلدى عماذه الذي يحدد بداية رسالته العلنية، يتلقى يسوع وحيا بأن الله قد نصبه على الفور "ملكا" للملكوت الجديد. وها هو يعلن للحال، بشكل احتفالي: "حان الوقت واقترب ملكوت الله" (مر١: ١٥). ولا ننس انه ملكوت ينبغي له ان يوطد على الارض، بعد ان يكون الشيطان وكل القوى الشريرة التي تسيطر على العالم قد أخضعت، واصبحت عاجزة بالتمام. وهنا يعلن يسوع ان ملكوت الله هذا سيأتي بقوة، وقبل وفاة الكثيرين من الذين يسمعونه. لقد كان ينتظر، إذن، مجيء ملكوت الله على الارض، في مستقبل قريب جدا. وسنجد فيما بعد قولا آخر ليسوع بعين الاتجاه (١٣: ٢٨-٣٠).

القسم الثاني

موت الملك

في مر ٩: ١٤-٢٧ يبدأ القسم الثاني من الانجيل ويستمر حتى النهاية. انه يتوسع في هذه المفارقة: يسوع الذي نصب ملكا لشعب الله الجديد، سوف يموت قبل ان يكون قد اكمل رسالته. ألسنا بازاء فشل المخطط الالهي؟ وسيعطى الجواب عبر الاعتراف الايماني الذي سيعلنه قائد المئة الروماني، حين يعترف لدى موت يسوع على الصليب بأن "هذا الرجل كان ابن الله حقا" (١٥: ٣٩)، وهذا يعني أنه كان في حماية الله، بالرغم من الظواهر. انه اعلان خفي عن القيامة التي سيؤكدها اكتشاف القبر خاليا (١٦: ١-٨).

وكما في القسم الاول من الانجيل، هكذا يوجه الموضوعان الكبيران (يسوع-نبي و يسوع-ملك) كل التوسعات التي سيتضمنها هذا القسم الثاني. ولكن، عوضا عن ان يكونا معروضين، اثنين اثنين، وباتحاد وثيق، سنجدهما موضوع توسعين متتاليين.

فيسوع سيعلم تلاميذه بصفته نبيا (٩: ١٤-١٠: ٤٥، انظر ادناه الباب ٢)، ومن ثم سوف يموت بصفته ملكا (١٠: ٤٦-١٦: ٨،الابواب٣الى ٩).

-١-

آخر طرد للشيطان

(٩: ١٤-٢٧)

ان قسمي الانجيل مرتبطان احدهما بالآخر بشكل وثيق عبر "الكلمة-الكلاب". ولقد رأينا كيف ان موضوع القسم الثاني الأساسي وجد تعبيرا عنه في القسم الاول بشكل اعلان عن الآلام-القيامة (٨: ٣١-٣٣)، والذي كان قد اندرج ما بين اعلان ايمان بطرس في قيصرية "انت المسيح" (٨: ٢٩)، والتجلي الذي سمع خلاله صوت سماوي أكد للتلاميذ بأن يسوع هو، في الوقت ذاته، الملك المسيحاني والنبي الشبيه بموسى المعلن عنه في تث ١٨: ١٥-١٨ (مر ٩: ٧). كما ان حالات اخراج الشياطين التي اجراها يسوع في القسم الاول من الانجيل كانت تظهره بأنه الملك المسيحاني الذي جاء يوطد ملكوته، بجعل الشيطان واعوانه في حالة عجز. وإذا ما رويت حالة طرد واحدة في ٩: ١٤-٢٧، فذلك للتذكير بهذا الموضوع، و"ربط" القسم الثاني من الانجيل بالقسم الاول.

حين يترل يسوع من الجبل ويلتحق بجماعة تلاميذه، يجدهم في جدال مع الكتبة. وكان هذا الجدال قد أثار الحدث التالي: رجل جاء بابنه الى يسوع لكي ينقذه من شيطان مسه. ولما كان يسوع غائبا، راح الكتبة يتناقشون مع تلاميذه الذين لم يستطيعوا ان يطردوه. ومن هنا كانت، كما يبدو، سخرية الكتبة وتهكماتهم. اما يسوع، فبعد ان تحاور قليلا مع والد الصبي، بدأ بالتعزيم وإخراج الشيطان.

• رواية معقدة

نكتشف بيسر بأن هذه الرواية ينقصها التناسق. فبحسب الآية ١٧، يبدو ان الصبي وقد مسه "روح أبكم"، ولذا جاء به ابوه الى يسوع. وبالفعل، حين بدأ يسوع بالتعزيم، نراه يأمر الشيطان: "أيها الروح الاخرس الاصم، انا آمرك، اخرج منه ولا تعد اليه" (٩: ٢٥). اما في الآيات ١٨ و ٢٠ يبدو الصبي وكأنه يعاني بالأحرى من نوبة صرع: انه يزبد، يصرف بأسنانه، ييبس، يقع على الارض فيتمرغ ويزبد. هل كان الصبي اصم-ابكم، أم كان عرضة لنوبات صرع؟.. ونجدنا بازاء رواية تحتوي على تناقض مكشوف. ففي الآية ١٥ يقول لنا مرقس بأن الجمع كله (pas ho ochlos)، ما ان رأى يسوع نازلا من الجبل، حتى تسارع نحوه (prostrechontes) للسلام عليه. ولكن في الآية ٢٥، هوذا يسوع يرى جمعا (ochlos) يتقاطر عليه مسرعا (episuntrechei)، فيسرع يسوع الى انجاز عملية الطرد قبل ان يصل الجمع.

يبدو، إذن، ان مرقس دمج هنا روايتين مختلفتين: حالة إخراج شيطان تسبب في جعل الصبي اصم-ابكم، وانجزها يسوع بعيدا عن الجمع، لكي يحافظ على "السر المسيحاني"؛ الى جانب شفاء صبي مصاب بالصرع وسط جمهور كثيف. ان قوام هيكلية الرواية الحالية هو معجزة طرد الشيطان، وهي شبيهة بأول طرد كان قد اجراه يسوع في مجمع كفرناحوم، في بدء رسالته. فيسوع يأمر الروح النجس (١: ٢٥؛٩:٢٥)، فيخرج، وهو يصرخ ويهز المسوس (١: ٢٦؛ ٩: ٢٦). كانت رواية طرد الشيطان في الفصل الاول قد تلاها شفاء حماة بطرس، ووصفه مرقس آنذاك على النحو التالي: "دنا منها فأخذ بيدها وانهضها، ففارقتها الحمى" (١: ٣١). وهكذا الامر هنا، حيث تختم الرواية بهذا المشهد: "فأخذ يسوع بيده وأنهضه، فقام" (٩: ٢٧). فمن الواضح ان مرقس اراد ان يكشف لنا بأن يسوع يبدأ القسم الثاني من رسالته كما كان قد بدأ القسم الاول.

• ضرورة الايمان

هناك نقطة تميز هذه الرواية عن تلك التي رواها مرقس في ١: ٢٣-٢٦. ذلك ان طرد الشياطين يفترض الايمان. فحين علم يسوع بفشل تلاميذه، صرخ، وقد نفد صبره: "ايها الجيل الكافر، حتام ابقى معكم؟ وإلام احتملكم؟" (٩: ١٩). وحين يتوسل اليه والد الصبي: "إذا كنت تستطيع شيئا، فأشفق علينا وأغثنا"، هوذا يسوع يؤنبه على ايمانه الناقص: "إذا كنت تستطيع [ ]! كل شيء ممكن للذي يؤمن". وحينذاك يهتف الوالد قائلا: "آمنت! فشدد ايماني الضعيف" (٩: ٢٢-٤). وحين رجع يسوع الى البيت، بعيدا عن الجمع، سأله تلاميذه: "لماذا لم نستطع نحن ان نطرده؟"، فأجابهم يسوع: "هذا الجنس، لا يمكن إخراجه إلا بالصلاة " (٩: ٨-٢٩)، او بحسب النص المتاوي: "لقلة ايمانكم" (متى ١٧: ٢٠). فالصلاة، بحسب مرقس، كي تستجاب، تفترض الايمان لا محالة، اي اليقين من اننا سنحصل على ما نطلبه: "ولذلك اقول لكم: كل شيء تطلبونه في الصلاة، آمنوا بأنكم قد نلتموه، يكن لكم" (١١: ٢٤).

لقد كان الهدف، في نظر مرقس، من اخراج الشيطان، في يوم كفرناحوم، القيام بأول خطوة على الطريق الطويلة التي تؤدي الى معرفة شخصية يسوع الحقيقية، ولذا كانت تلك الخاتمة: فدهشوا جميعا حتى اخذوا يتساءلون: ما هذا؟ [...] حتى الارواح النجسة يأمرها فتطيعه!" (١: ٢٧). اما هنا فالوضع يختلف. فبعد اعتراف بطرس، وبعد مشهد التجلي، لم يعد هناك بعد مجال للسؤال: من هو يسوع؟ إذ كان على التلاميذ ان يعرفوا بأن الشيطان واعوانه قد اصيبوا بهزيمة. وكان ينبغي من ثم ان يكون لهم من الايمان ما يكفي لطرد الشيطان باسم يسوع. وهكذا يخيب التلاميذ انفسهم من جديد آمال يسوع؛ إذ يبدون قد نسوا اعتراف الايمان الذي ادلى به بطرس، كما نسوا مشهد التجلي: "ايها الجيل الكافر، حتام

ابقى معكم، وإلام احتملكم؟" (٩: ١٩). ذلك ان مرقس يهيئ قـــارئه منـــذ الآن للعثرة الاخيرة، حين سيتخلى كل التلاميذ عن يسوع ابان اعتقاله (١: ٥٠).

- ٢ -

تعليم يسوع

(٩: ٣٠ - ١٠: ٤٥)

لكم قال لنا مرقس، في القسم الاول من انجيله، ان يسوع كان يعلم، ولكن من دون ان يوضح ما هو مضمون هذا التعليم. وكنا نعتقد ان فضولنا سيشبع حين جعلنا مرقس نرى يسوع يعلم بالامثال (٤: ١ت)، وإن كنا بواسطتها قد عرفنا فقط ان ملكوت الله يتكون من اولئك الذين يقبلون الكلمة التي يزرعها المسيح في قلوبهم. لم يقل لنا مرقس بعد مضمون هذه الكلمة. وها قد حان الوقت كي يكون اكثر وضوحا. ففي اثناء التجلي، كان الصوت السماوي قد اعلن رسميا: "هذا هو ابني الحبيب، له اسمعوا" (٩: ٧). ويجب علينا ان نسمع يسوع، كما لو كان موسى جديدا ارسله الله (انظر تث ١٨: ١٥). فالوقت حان اخيرا، بالنسبة الى مرقس، كي يكشف لنا بوضوح عن الرسالة التي جاء يسوع ينقلها الينا من قبل الله.

اما بعد التجلي، فسنرى تبدلا في سياسة يسوع. انه يترك الجموع ويبدأ بالتفرغ من اجل تعليم تلاميذه. وتتبدل النبرة منذ ٩: ٣٠-٣١: "ومضوا من هناك فمروا بالجليل، ولم يرد ان يعلم به أحد، لأنه كان يعلم تلاميذه [...]". وتكاد أغلب المشاهد التي ستتوالى، وحتى بداية رواية الآلام، تخص على الاطلاق تلاميذ يسوع. فالجمع لن يظهر سوى ظهور قصير في ١٠: ١-٩ كي يناقش معه مشكلة الطلاق.

وخلال تعليم المسيح هذا، أقحم مرقس الاعلان الثاني والثالث عن آلام يسوع وقيامته (٩: ٣١ و ١٠: ٣٢-٣٤)، لكي يذكرنا بالمفارقة التي يترتب علينا ان نواجهها: فالملك المسيحاني سوف يقتل (انظر الشرح المعطى في ٨: ٣١، الباب ١٠).

على الأكبر أن يخدم

(٩: ٣٣-٣٧ و ١٠: ٣٥-٤٥)

• طموح الرسل

في القسم الأول من انجيله لم يكن مرقس رقيقا تجاه تلاميذ يسوع، والاثني عشر بنوع خاص. ولكي يظهر التميز الذي اتسم به اعتراف بطرس حين قال ليسوع "انت المسيح" (٨: ٢٩)، أي ملك شعب الله الجديد، فلقد طاب له، من باب التندر، ان يبرهن لنا ان التلاميذ، حتى اعتراف الايمان هذا، كانوا على درجة كبيرة من الغباوة، بالرغم من كل ما قاله يسوع وفعله. فلقد كانوا عاجزين عن استشفاف شخصيته الحقيقية (انظر الباب ١٠). ولن يكون مرقس اكثر رقة تجاههم في هذا القسم الثاني. فالاثنا عشر، وفقا للملامح التي رسمها لهم، ليسوا سوى طموحين كانوا يأملون ان يحصلوا على المقاعد الاولى في الملكوت الذي سوف يوطده المسيح على الارض. انهم طموحون، ولكنهم في الوقت ذاته جبناء، طالما انهم، ابان اعتقال يسوع، سيهربون كلهم ويتركونه لوحده (١٤: ٢٧، ٥٠). كلن ينبغي على الروح أن يستولي عليهم كي يغيرهم بالكامل. مرقس، لن يقوله لنا في انجيله، إلا ان لوقا هو الذي سيبينه حين سيكتب سفر أعمال الرسل. هل رفض

مرقس ان يصوّر لنا هذا الواقع الذي شدّد عليه بولس: "اعتبروا، أيها الاخوة، دعوتكم، فليس فيكم في نظر البشر كثير من الحكماء، ولا كثير من المقتدرين، ولا كثير من ذوي الحسب والنسب. ولكن ما كان في العالم من حماقة، فذاك ما اختاره الله ليخزي الحكماء؛ وما كان في العالم من ضعف، فذاك ما اختاره الله ليخزي ما كان قوياً؛ وما كان في العالم من غير حسب ونسب وكان محتقَراً، فذاك ما اختاره الله [...]" (١قور ١: ٢٦-٢٨).

فالاثنا عشر هم إذن طموحون. ولا يخشى مرقس أن يفهمنا ذلك في المشهد الاول (٩: ٣٣-٣٧) وفي المشهد الاخير (١٠: ٣٥-٤٥) من هذا المقطع؛ وهذا الطموح ذاته هو الذي سيمنح الفرصة ليسوع كي يعطي درساً لأولئك الذين يريدون ان يقودوا الآخرين: إذ يتوجب عليهم ان يخدموهم.

• على الرؤساء أن يخدموا

كان يسوع وتلاميذه، في المشهد الأول، سائرين نحو كفرناحوم، وكانوا يتجادلون في ما بينهم. وحين وصلوا الى البيت، سألهم يسوع عن الموضوع الذي كان وراء منازعاتهم. ويدرك القارئ ان يسوع يعرف ذلك جيداً، حتى ولو انه لم يسمع شيئاً: فما دام نبياً، فان له موهبة لقراءة ما في القلوب (انظر لو ٧: ٣٩). ويأخذ الخجل التلاميذ، ويترددون في الاجابة: لقد كانوا يتجادلون لمعرفة من هو الأكبر في ما بينهم؟!

بماذا كان يفكر التلاميذ حين طرحوا على انفسهم هذا السؤال؟ لا يقوله لنا مرقس هنا بوضوح، ولكنه سيصبح أكثر وضوحاً حين سيروي المشهد الثاني (١٠: ٣٥-٤٥) الموازي له. ذلك ان يعقوب ويوحنا، وهما اثنان من الاثني عشر، يطلبان من يسوع، وبكل برودة: "امنحنا ان يجلس احدنا عن يمينك والآخر عن شمالك في

بمجدك"، ومعناه في ملكوتك (١٠: ٣٧)[1]. انهما يطمحان، إذن، ان يصبح كل منهما بمثابة "رئيس وزراء"، مما يثير احتجاج الرسل العشرة الآخرين (١٠: ٤١): انهم يعتبرون ان لهم حقاً، بقدر يعقوب ويوحنا، ان يحصلوا على المقاعد الاولى في الملكوت المقبل.

والمشهد الذي يرويه مرقس في ٩: ٣٣-٣٧، يضعه لوقا فيما بعد، خلال العشاء الاخير الذي يتقاسمه يسوع مع تلاميذه (لو ٢٢: ٢٤-٣٠)، ولكن مع تفاصيل اكثر، مع ان البداية شبيهة ببداية رواية مرقس: "ووقع بينهم جدال في من يُعَدُّ اكبرهم؟" ويُظهر جيداً جواب يسوع ان الامر يتعلق بتنافسهم على المقاعد الاولى في الملكوت الآتي: "ان ملوك الامم يسودونها، واصحاب السلطة فيها يريدون ان يُدعَوا محسنين. اما انتم فليس الامر كذلك،" (لو ٢٢: ٢٥-٢٦). من جانب آخر، يقر يسوع، في تتمة جوابه، بأن هناك فعلاً اماكن لـ "قادة" سيتم توزيعها، وان الاثني عشر سيكونون اول المستفيدين: "وانا اوصي لكم بالملكوت كما اوصى لي أبي به [...] فتجلسون على العروش لتدينوا اسباط اسرائيل الاثني عشر" (لو ٢٢: ٢٨-٣٠). فاذا كان يسوع قد سبق واختار اثني عشر رسولاً (مر ٣: ١٤)، فلأنه كان يفكر من قبل بالملكوت الذي كان عليه ان يؤسسه على الارض، بمثابة امتداد لملكوت اسرائيل وفق مخطط الله. وهكذا في مر ٩: ٣٤، كما في لو ٢٢: ٢٤، كان التلاميذ يتنازعون في ما بينهم لمعرفة من هو الاكبر، وبالتالي من هو الذي ستكون له المكانة الاولى في الملكوت الآتي.

ويأتي جواب يسوع في منتهى الوضوح. فهو لا يؤنّب الاثني عشر على طموحهم، وانما يعطيهم القاعدة الذهبية التي يجب ان تلهمهم حين سيساعدونه على قيادة الملكوت الجديد: "من اراد ان يكون اول القوم، فليكن آخرهم جميعاً وخادمهم" (مر ٩: ٣٥). وبصيغة اكثر دقة، نقرأ في الرواية الموازية لدى

---

(١) بحسب متى ٢٠: ٢١ صيغ هذا الطلب، لا من قبل يعقوب ويوحنا، بل من قبل امهما، مما يبدو اقل ثقلاً، ولكنه ولاشك اقل اصالة ايضاً.

لوقا، وعلى لسان يسوع: "ان ملوك الامم يسودونها [...] اما انتم فليس الامر فيكم كذلك. بل ليكن الاكبر فيكم كأنه الاصغر، والمترئس كأنه الخادم" (لو ٢٢: ٢٦). وجوابا على سؤال يعقوب ويوحنا، سيعبر يسوع، بحسب مرقس، عن هذه القاعدة:" تعلمون ان الذين يعدون رؤساء الامم يسودونها، وان أكابرها يتسلطون عليها. فليس الامر فيكم كذلك. بل من اراد ان يكون كبيرا فيكم. فليكن لكم خادما ومن اراد ان يكون الاول فيكم، فليكن لأجمعكم عبدا" (مر ١٠: ٤٢-٤٤).

هذه هي، إذن، القاعدة الذهبية التي كان ينبغي ان يتبعها كل الملوك وكل الوزراء، وكل الذين قبلوا مهمة ما: "قاد" معناه ان "يخدم" المرء اولئك الذين يقودهم.

• يسوع اعطي القدوة

كان يسوع اول من عمل بهذه القاعدة الذهبية. فبعد ان اعلنها اضاف: "لأن ابن الانسان لم يأت ليخدم بل ليخدم ويفدي بنفسه جماعة الناس" (١٠: ٤٥). وابن الانسان، كما سبق ان قلنا، هو ذاك الذي تلقى التنصيب الملوكي، بحسب دا ٧: ١٣-١٤، فهو، إذن، يسوع ذاته. وفي الرواية الموازية بحسب لوقا، لا يقول يسوع هذا الكلام، وانما يقدم نفسه مثالا: "فمن الاكبر؟ أمن جلس للطعام أم الذي يخدم؟ اما هو الجالس للطعام؟ ومع ذلك فأنا بينكم كالذي يخدم " (لو ٢٢: ٢٧). ويلمح يسوع هنا ولا شك الى المشهد الذي يرويه يو ١٣: ٣-١٠: قبل عشائه الاخير مع تلاميذه، قام فأخذ يغسل ارجلهم -وتلك كانت الخدمة التي يطلبها سيد من عبده. ويفسر حركته هذه بقوله:"أتفهمون ما صنعت اليكم؟ انتم تدعونني المعلم والرب، وأصبتم فيما تقولون، فهكذا أنا. فاذا كنت انا الرب والمعلم قد غسلت أقدامكم، فيجب عليكم انتم ايضا ان يغسل بعضكم أقدام

بعض. فقد جعلت لكم من نفسي قدوة لتصنعوا انتم ايضا ما صنعت اليكم" (يو ١٣: ١٢-١٥). هل هو مثال تواضع؟ نعم ولا شك، ولكنه اكثر بكثير! فالذي يأمر، عليه ان يضع ذاته في خدمة اولئك الذين يأمرهم.

ولكن إذا ما وضع المرء ذاته في خدمة الآخرين، فقد يذهب به ذلك الى ان يهب حياته من اجلهم. فابن الانسان قد جاء "يفدي بنفسه جماعة الناس" (مر ١٠: ٤٥). و"ابن الانسان"، هو الملك المسيحاني. فيسوع، هو فعلا هذا الملك المسيحاني، الذي سوف يهب حياته، هو الاول، لصالح شعبه. ويعلن ليعقوب ويوحنا اللذين طلبا منه المقاعد الاولى في ملكوته: انكما لا تعلمان ما تسألان. أتستطيعان ان تشربا الكأس التي سأشربها، او تقبلا المعموذية التي سأقبلها؟" (١٠: ٣٨). انه يلمح ولا ريب الى آلامه القريبة. وبالفعل، ابان نزاعه في الجتسمانية، سيقوم يسوع بهذه الصلاة: "أبا، ياأبت، انك على كل شيء قدير، فاصرف عني هذه الكأس" (١٤: ٣٦). فالذين يريدون ان يكونوا وزراءه في ملكوته، يتوجب عليهم ان يكونوا مستعدين لأن يعطوا حياتهم من أجل الذين هم في عنقهم.

ويضيف يسوع بعد ان رد على يعقوب ويوحنا بالايجاب: "ان الكأس التي أشربها سوف تشربانها، والمعموذية التي أقبلها سوف تقبلانها، واما الجلوس عن يميني أو شمالي، فليس لي ان أمنحه، وانما هو للذين أعد لهم" (١٠: ٣٩-٤٠).ولقد سبق ان قلنا في مكان آخر[1] ما هي الدوافع التي تجعلنا نعتقد بأن التقليد المسيحي البدائي قد كرم يعقوب ويوحنا بصفتهما شهيدين بالمعنى العميق للكلمة.

---

(١) جوستان تايلور: اعمال الرسولين، مع ملحق للاب ماري-اميل بوامار، تفسير تاريخي (رسل ٩: ١-١٨ : ٢٢) في "دراسات بيبلية" (السلسة الجديدة، رقم ٢٣)، باريس ١٩٩٤. انظر الملحق ص٣٣٩-٣٧٩.

احتقار الثروات

(١٠: ١٧-٣١)

سيعرض يسوع، في تعليمه للرسل، الموقف الذي يجب ان يتخذه، تجاه الثروات، اولئك الذين يريدون ان يكون لهم نصيب في الملكوت. وها هو يفعل ذلك عبر ثلاثة محاور.

• الرجل الغني (١٠: ١٧-٢٢)

يتقدم رجل من يسوع ويسأله ماذا عليه ان يفعل لكي يحصل على الحياة الابدية. ويحيله يسوع أولا الى الوصايا العشر (خر ١٠: ١٢-١٦). وحين يؤكد له الرجل انه قد حفظها منذ حداثته، يضيف يسوع: "واحدة تنقصك، اذهب وبع ما تملك وأعطه للفقراء، فيكون لك كنز في السماء، وتعال فاتبعني". هل كان يسوع يقصد ان الشرط الضروري للدخول في الملكوت هو ان يبيع الانسان كل ممتلكاته ويعطيها للفقراء؟ قد يساورنا الشك في الامر. لقد ادرك متى جيدا المشكلة، ولذلك وضع على لسان يسوع: "إذا اردت ان تكون كاملا، فاذهب وبع اموالك [...]" (متى ١٩: ٢١). فبحسب متى، يسجل بيع الاموال ومنحها للفقراء درجة من الكمال في الحياة المسيحية. إلا ان هذه المشورة، حتى في صيغتها المرقسية، والتي يحتمل ان تكون اكثر أصالة، لا تتوجه الى الجميع. ذلك ان يسوع يختم نصيحته بالقول:" ثم تعال فاتبعني". ونجدنا بازاء الصيغة الكلاسيكية التي بها يدعو يسوع اولئك الذين يشاء ان يضمهم الى جماعة الرسل: بطرس واندراوس (مر ١: ١٧)، يعقوب ويوحنا (انظر ١: ٢٠)، لاوي- متى (٢: ١٤). فالمشورة لا تتوجه الى الجميع، وانما فقط الى اولئك الذين يحبهم يسوع (١٠: ٢١) بشكل يجعل منهم

"صيادي بشر" (١: ١٧). وبالتالي، أليس باسم الرسل فقط، سيقول بطرس فيما بعد: "ها قد تركنا نحن كل شيء وتبعناك" (١٠: ٢٨)؟.

والرجل الذي جاء للقاء يسوع كان غنيا؛ انه يعتبر التضحية المطلوبة كبيرة جدا، ولذا يتخلى عن الانضمام الى جماعة الرسل (١٠: ٢٢).

• خطر الثروات (١٠: ٢٣-٢٧)

وتتوضح فكرة يسوع في الآيات ٢٣-٢٧ لتشمل بالتالي كل الذين يريدون ان يدخلوا في الملكوت. ويبدو ان مرقس مزج هنا قولين فاه بهما يسوع في مناسبتين مختلفتين.

كان القول الاول مرتبطا ولا شك بمشهد الرجل الغني. ويبدو ان يسوع أجال النظر حوله فقال: "ما أعسر دخول ملكوت الله على ذوي المال!" (آ ٢٣). وتابع من ثم قائلا: "أن يمر جمل في ثقب الابرة، أيسر من ان يدخل غني ملكوت الله" (آ ٢٥). فالبرغم من هذه المبالغة الشرقية التي وردت في هذه الاية الاخيرة، لا يقول يسوع انه يستحيل على غني دخل الملكوت، وانما فقط ان دخوله امر عسير. ولماذا؟ وتجد فكرة يسوع الحقيقية تعبيرا لها في ٦: ٢٤ وفي لو ١٦: ١٣: لا "تستطيعون ان تعملوا [douleuein] لله والمال". فيسوع، انما يشجب ان يكون المرء عبداً للمال (وكأن المال مشخص!)، ذلك لأن الناس الذين يسعون إلى تحصيل مزيد من المال، سيتعرضون لتجربة استغلال الفقراء والضعفاء، أي اولئك الذين لا يعرفوا ان يدافعون عن انفسهم، وهكذا يقترفون المظالم بحقهم. وما ان اغتنوا، وإذا بهم يغلقون قلبهم تجاه بؤس العالم، ويصبحون من دون رحمة تجاه الفقراء. فالوصية الاولى في الملكوت هي: "احبب الرب الهك من كل قلبك"، إلا ان الوصية الثانية شبيهة بها: " احبب قريبك كنفسك"

(آح ١٩: ١٨؛ مر ١٢: ٢٩-٣١). ولكن كيف يمكننا ان نحب قريبنا إن نحن تركناه ينغمس في البؤس؟

اما القول الثاني، فهو لا يتعلق بشكل خاص بمخلفات الغنى. يؤكد يسوع اولا: "يا بني، ما أعسر دخول ملكوت الله!" (آ ٢٤ ب). ويتساءل تلاميذه بقلق:"فمن يقدر ان يخلص؟" (آ ٢٦)، فيما يجيب يسوع:"هذا شيء يعجز الناس ولا يعجز الله" (آ ٢٧). فالدخول في الملكوت امر عسير: ينبغي حفظ الوصايا العشر على الاقل (١٠: ١٩، وهو يستعيد نص خر ٢٠: ١٢-١٦) والتي يجعلها من ثم اكثر الزامية (متى ٥: ١٧-٤٨). هل نستسلم لليأس؟ لا، وانما علينا ان نمنح ثقتنا لله الذي يقدر ان يجعلنا اقوياء ضد ذواتنا.

ان ما يطلبه الله منا، قبل كل شيء، هو ان يكون لنا تواضع الاطفال الذين ينتظرون كل شيء من ابيهم (مر ١٠: ١٣-١٦). أليس الله" ابانا" (انظر متى ٦: ٩؛ لو ١١: ٢).

• مكافأة التجرد (١٠: ٢٨-٣١)

حين لفت بطرس الانتباه قائلا:"ها قد تركنا نحن كل شيء وتبعناك"، اجابه يسوع: "الحق اقول لكم: ما من احد ترك بيتا او اخوة او أخوات او أما أو ابا أو بنين أو حقولا من أجلي وأجل البشارة، إلا نال الآن في هذه الدنيا مائة ضعف من البيوت والاخوة والاخوات والامهات والبنين والحقول، مع الاضطهادات، ونال في الاخرة الحياة الابدية". يصعب علينا فهم هذا الجواب: فمن جهة، يبدو يسوع انه يعمم ما لم يكن يتعلق، في فكر بطرس، إلا بالرسل؛ ومن جهة اخرى، يبدو انه يميز مرحلتين في الملكوت: الزمن الحاضر والزمن الآتي، أي "الحياة الابدية". ان النص الموازي في متى ١٩: ٢٧-٢٩ يوضح الرؤية بشكل اكثر جلاء. فيسوع يعد الرسل الذين تركوا كل شيء ليتبعوه، انهم سيشاركونه في سلطانه الملوكي على دينونة

اسباط اسرائيل الاثني عشر. ذلك لأن ملكوت المسيح على الارض هو الذي سيفتتح "إبان التحديد". اما اولئك الذين تركوا كل شيء من اجله، فسيحظون بـ "ميراث الحياة الابدية"، حين سيسلم المسيح الملكوت الى ابيه، ولن يكون بالتالي سوى ملكوت سماوي (انظر ١ قور ١٥: ٢٢-٢٨)[١].

(١) لتفسير هذا النص البولسي، انظر ماري-اميل بولمار: "هل يمكن ان نتكلم بعد عن قيامة؟"، باريس، منشورات سيرف، ١٩٩٥، ص٤٧-٥٢.

- ٣ -

يسوع يستقبل كملك

(١٠: ٤٦-١١: ١٤)

منذ الآن سيهيمن موضوع "يسوع – ملك"، مع المفارقة النهائية: كيف يمكن ليسوع ان يكون ملكا طالما انه سيموت قتيلا بيد اعدائه؟

وخلافا لانجيل يوحنا، لا يذكر انجيل مرقس -وهكذا هي الحال أيضا مع انجيل متى ولوقا- سوى صعود واحد ليسوع الى أورشليم؛ ففيها سوف تستقبله الجموع كملك، ولكنها ستتركه من ثم، وفيها سوف يقتله اعداؤه.

• اعمى اريحا (١٠: ٤٦-٥٢)

بعد نزول يسوع وتلاميذه الى وادي الاردن، ها هم يتجهون نحو اورشليم، مجتازين مدينة اريحا الواقعة في سفح جبال اليهودية. وكان جمع غفير قد اجتمع، في انتظار عبوره: الكل يريد رؤية هذا النبي الذي عمت شهرته. ويروي لوقا من جهته، بانه كان زحام كثير حتى ان عشارا غنيا اسمه زكا، اضطر، بحكم قصر قامته، على الصعود الى شجرة ليلمح يسوع (لو ١٩: ٣-٤). وكان ضائعا بين الجمع اعمى قد جلس على حافة الطريق (مر ١٠: ٤٦). وما ان علم ان يسوع هو الذي يمر، اخذ يصرخ، ممتلئا من الامل:"رحماك يا ابن داود!" وإذا اطلق الاعمى عليه لقب "ابن داود"، فمعنى ذلك انه عرفه، لا بصفته من نسل داود، اول ملك في اسرائيل حسب، وانما بصفته وريثه ايضا، اي ذاك الذي ينتظر انه سوف "يعيد

الملك الى اسرائيل" (رسل ١: ٦). وسعى الناس الى اسكاته، الا انه راح يصرخ بالاكثر:"رحماك يا ابن داود!". وهوذا يسوع يستدعيه ويسأله ماذا يريد. ويجيبه الاعمى:"رابوني، ان ابصر". لم يعد يسميه بلقبه الملوكي، وانما بلقب "رابوني" اي "سيدي"، ذاك الذي يعلم. ففي بدء هذه الطريق الطويلة والأليمة التي ستوصل يسوع الى عذاب الصليب، يذكرنا مرقس، بلسان الاعمى المسكين، بالرسالة المضاعفة التي كان يسوع قد تلقاها من الله لدى عماذه (١: ٩-١١)، هذه الرسالة التي هيمنت حتى الآن على حياته كلها: انه ملك ونبي.

• الدخول الى اورشليم (١١: ١-١٠)

ما أن وصلوا الى بيت عنيا، على جبل الزيتون، حيث تشاهد اورشليم كلها، ارسل يسوع اثنين من تلاميذه ليجلبوا له جحشا صغيرا يمتطيه كي يدخل المدينة (١١: ١-٦). وتبدو رواية مرقس معقدة، بالرغم من بساطتها الظاهرية. يريد يسوع ان يكون دخوله الى اورشليم راكبا، لا حصانا لامعا، ولا حتى جحشا اعتياديا، وانما جحشا صغيرا. لماذا ارتضى بهذا الدخول المتواضع؟ ذلك لانه شاء، كما فهم متى (٢١: ٤-٥)، ان يكمل نبوة زك ٩: ٩: "هوذا ملكك آتيا اليك، بارا، مخلصا وضيعا، راكبا على حمار، وعلى جحش ابن أتان". فيسوع يهيئ، إذن، بنفسه دخوله الملوكي الى اورشليم. غير ان قارئ انجيل مرقس لم يعد يفهم شيئا! لماذا يكسر يسوع بغتة هذا "السر السيحاني" الذي طاب له ان يحيط نفسه به حتى الآن، والذي لكم طاب لمرقس أيضا ان يذكرنا به مرات عديدة؟ فيسوع لم يكن يشاء ان يدع الجموع ترى فيه المسيح، الملك المسيحاني، خشية إثارة حماس شعبي قد يجعل منه محررا سياسيا، وها هو ذاته الان يبدو راغبا في ان يعترف به ملكا، وبمثابة ذاك الذي سيحقق نبؤة زك ٩: ٩! ان مرقس، ومن دون أي شك، يعي جيدا هذه المسألة، ويريد ان يعطي لها حلا، ولكن بتحفظ. فما دام يسوع يعلم

مسبقا ان التلميذين اللذين ارسلهما، سيجدان، عند باب المدينة، جحشا صغيرا (وليس حمارا) لم يركبه احد قط، فمعنى ذلك انه يتصرف بصفة نبي. الا ان يسوع، بصفته نبيا، كان قد سبق وتطلع الى أنه، مع كونه ملكا، ومع كونه "ابن الانسان" (انظر دا ٧: ١٦-١٤)، ينبغي عليه "ان يفدي بنفسه جماعة الناس" (مر ١٠: ٤٥). فهو يعلم ان دخوله الملوكي هذا الى اورشليم لن تكون له مستتبعات سياسية: ذلك لان الجموع المتحمسة اليوم سوف تتخلى عنه غدا، وسيكون بوسع أعدائه ان يسلموه الى السلطة الرومانية (انظر مر ٩: ٣١-١٠: ٣٣).

وكل شيء يجري من ثم بحسب سيناريو كلاسيكي. حين يأتي ملك ما لزيارة مدينة من مدن مملكته، فما ان يتم الاعلان عن قرب وصوله، وإذا بالسكان يخرجون لملاقاته ويواكبونه الى داخل المدينة، وهم يلوحون بالاغصان ويطلقون هتافات على شرفه (٢ مل ٩: ١٣). وهذا ما سيجري تماما. فالجمع خرج "للقائه" (انظر يو ١٢: ١٣). وقطعوا اغصانا يلوحون بها (مر ١١: ٨)، واطلقوا صيحات قوية: "هوشعنا! تبارك الآتي باسم الرب! تباركت المملكة الاتية، مملكة ابينا داود! هوشعنا في العلى!". ويفهم قارئ مرقس، وهو يقرأ هذا المشهد، ان المأساة هي في حلقتها الاخيرة. ذلك ان هتافات الجمع اصبحت واضحة لا لبس فيها. وعبارة "هوشعنا" -وقد استعيرت من المزمور ١١٨- تعني بالعبرية "خلص"! فالجمع يهتف ليسوع بصفته المخلص الذي ارسله الله، والذي سوف يطرد الرومان ويبني من جديد مملكة اسرائيل. أليس هذا ما كان قد عرضه الشيطان على يسوع ابان "التجربة" (مر ١: ١٢-١٣)؟ أليست هذه هي التجربة "الاخيرة" للشيطان ضده؟ إلا ان يسوع، ومنذ البدء، كان قد حدد خياره. انه يجدده الان، حتى وإن أدرك بان الجموع التي اصابتها خيبة الأمل ستتركه، وان خياره سيكلفه الحياة.

-٤-

معارضو يسوع

(١١: ١١-١٢: ٤٠)

كان مرقس، في القسم الاول من انجيله، قد بين كيف ان يسوع تعرض لعداء الفريسيين والكتبة خلال خمس مجادلات تتعلق بالطريقة التي يجب ان تفسر بها الشريعة. وهؤلاء كانوا قد قرروا بالتالي أن يقتلوه (٢: ١-٣ :٦). وجرى ذلك كله في الجليل. وها نحن الان في اورشليم، وسيحدثنا مرقس عن خمس مجادلات جديدة تسبقها حركة للمسيح ذات قيمة رمزية، وسيصطدم يسوع خلالها مع اولئك الذين سيحصلون بالتالي على موته: انهم ليسوا الفريسيين، وانما عظماء الكهنة وكل الطبقة الكهنوتية. وموضوع الخلاف، لم يعد تفسير الشريعة بقدر ما هو هيكل اورشليم الذي كانت مسؤوليته تحت امرة عظماء الكهنة.

• طرد الباعة من الهيكل (١١: ١٥-١٨)

ما ان وصل يسوع اورشليم، وإذا به يدخل الهيكل، ولكن لما كان الوقت متأخرا، اكتفى بالنظر الى ما يجري فيه (١١: ١١). وفي اليوم التالي فقط سوف يطرد منه الباعة، ويقلب طاولات الصيارفة (١١: ١٥-١٦). هذا التصرف العنيف مليئ بالمعاني.

يقول لنا مرقس، بادئ ذي بدء، ان يسوع "اخذ يطرد الذين يبيعون ويشترون في الهيكل". انه يدرك ان المسيح يأتي لتحقيق نبوءة زك ١٤: ٢١:" ولا يكون بعد تاجر في بيت رب القوات في ذلك اليوم". فلقد أتت الازمنة الجديدة: فعبادة الله سوف تجد صفاءها الاول. وهيكل اورشليم لن يكون بعد سوى "بيت صلاة".

هوذا يسوع يؤكد ذلك، برجوعه الى نبوءة اش ٥٦: ٧، والتي يوردها يوضوح: "بيتي بيت صلاة يدعى لجميع الامم [الوثنية]". وهكذا تصبح الفكرة شمولية، لا سيما وان نبوة اشعيا هذه موجهة الى "ابناء الغريب المنضمين الى الرب ليخدموه" (اش ٥٦: ٧). وكان زكريا ذاته قد اعلن ان "جميع الذين أبقي عليهم من جميع الامم الزاحفة على اورشليم، يصعدون سنة بعد سنة ليسجدوا للملك رب القوات، وليعيدوا عيد الاكواخ" (زك ١٤: ١٦). ففي العالم الجديد الذي جاء يسوع ينشئه، سيكون للوثنيين ذوي الارادة الصالحة مكانهم، وبعين المقدار الذي لليهود.

وياخذ يسوع اخيرا على الذين طردهم من الهيكل انهم جعلوا من بيت الله، لا "بيت صلاة"، وانما "مغارة لصوص". والمرجع هو من ار ٧: ١١. كيف نفهم هذا القول؟ من الصعب الاعتقاد بان بوسع يسوع ان يصف باللصوص كل اولئك الذين كانوا يبيعون في الهيكل! وقد لا تمس العبارة سوى الصيارفة الذين بدأ يسوع يقلب موائدهم. ألم يقل يوما: "لا تستطيعون ان تعملوا لله وللمال" (مت ٦: ٢٤)؟ ونفهم انه، بحركة غضب، قلب الموائد التي تكدست عليها هذه الاموال المكروهة.

كان يسوع، في الجليل، قد اصطدم بالفريسيين والكتبة، كونه اعطى تفسيرا للشريعة يعارض تفسيرهم. وفي اورشليم، ومنذ اليوم الاول، هوذا يسوع يريد ان يطهر الهيكل، معلنا في الوقت ذاته بانه سيكون مفتوحا لكل الشعوب الوثنية. وفي الواقع، كان عظماء الكهنة مع الطبقة الكهنوتية، هم المسؤولون عن الهيكل وعن

العبادة التي تجري فيه. ويسوع بحركته العنيفة، تدخل في شؤونهم وصدمهم، وجعل منهم اعداء ألداء: "فسمع عظماء الكهنة والكتبة، فجعلوا يبحثون كيف يهلكونه" (مر ١١: ١٨أ). إلا انهم لم يشاءوا التصرف بشكل مكشوف، خوفا من الشعب الذي كان بعد متعلقا بيسوع، لا بل كان معجبا بتعليمه (١١: ١٨ب).

وتجدر الاشارة الى ان يسوع، بالنسبة الى مرقس، لا يتصرف هنا، بالتمام، بصفته ملكا، وانما بصفته نبيا: فالانجيلي يذكر بتعليمه في بدء الاية ١٧ وفي نهاية الاية ١٨.

• التينة اليابسة (١١: ١٢-١٤، ٢٠)

ان مشهد باعة الهيكل في انجيل مرقس مقحم مع مشهد التينة اليابسة. فيسوع، لدى ذهابه الى اورشليم كي يطهر الهيكل، احس بالجوع، ورأى من بعيد شجرة تين، وحين اقترب منها لم يجد فيها سوى اوراق، فلعنها (مر ١١: ١٢-١٤). وفي الغد حين عاد الى اورشليم، بعد ان قضى الليلة في بيت عنيا، تحقق التلاميذ من ان التينة قد يبست (١١: ٢٠). اي ان اللعنة التي اطلقها المسيح كانت فعالة. هذا المشهد يضعنا في حرج. فمرقس يرويه بمثابة اعجوبة صنعها يسوع، طالما انه يلحق به تعليما بشأن قوة الايمان وفاعلية الصلاة (١١: ٢١-٢٥). وعليه، نكون بازاء الحالة الوحيدة في الاناجيل التي نجد فيها المسيح يجترح اعجوبة "لصنع السوء" وليس "لصنع الخير" (انظر ٣: ٤)! ويرى كثير من المفسرين، وبحق، أن مرقس هنا (وحتى متى) حول الى قصة واقعية ما كان في الاساس مثلا شبيها بالمثل الذي نقرأه في لو ١٣: ٦-٩. ويبدو ان لوقا فطن لهذا الامر طالما انه حذف هنا مشهد التينة اليابسة. والاب لاكرانج الذي يعتقد بتاريخية الرواية، يعترف مع ذلك: "لا يمكن ان ننكر بان بوسع مثل ما ان يتحول، في تقليد

معين، الى رواية واقعية (كتابه: مرقس، ص ٢٩٨). وهكذا نجدنا بازاء اسلوب ادبي خاص لم يكن مرقس ولا قراؤه ليجهلوه.

ومهما يكن من امر، فللرواية بالتأكيد بعد رمزي. وبامكاننا ان نقارنها بالتهديد الذي كان يوجهه النبي هوشع (٩: ١٠-١٤) الى شعب اسرائيل غير الوفي تجاه الهه: "وجدت اسرائيل كعنب في البرية، ورأيت آباءهم كالباكورة في التين اول اوانها". فاسرائيل راح يسجد لآلهة الكذب. لذا، فعقاباً له سيصبح عقيماً: "لا ولادة ولا بطن ولا حَبَل [...] أعطهم رَحِماً عقيماً واثدءً جافة". وفي المثل الذي سيضربه المسيح فيما بعد (انظر مر ١٢: ١ت)، ستصبح الكرمة رمزا لشعب الله. وهكذا هي الحال هنا مع التينة. فلأنها لا تعطي ثمراً، فستيبس وتُقطع وتُلقى في النار (انظر متى ٧: ١٩؛ يو ١٥: ٦).

ويجد هذا التفسير تأكيداً له في الملاحظتين التاليتين. شطر مرقس (خلافا لمتى) الى قسمين مشهد التينة اليابسة، كي يُقحم فيه مشهد طرد الباعة من الهيكل، وذلك دليل على أنه يقيم صلة وثيقة بين المشهدين اللذين يرويهما. ومن جهة اخرى، أثبت حرفياً، في هذا المشهد الثاني، المرجع من اش ٥٦: ٧، بما فيه هذه العبارة "لكل الامم [الوثنية]" التي اهملها كلٌ من متى ولوقا. فبفضل هذين المشهدين، شاء مرقس، إذن، ان يشير الى موضوع عزيز على المسيحيين بشأن نبذ اسرائيل (اقلّه لفترة ما) كشعب الله، واستبداله بالوثنيين.

• سلطة يسوع (١١: ٢٧-٣٣)

لقد انتزع يسوع الحق في التسلط على نشاطات هيكل اورشليم، بعد ان كان من امتياز عظماء الكهنة، ولذلك كانت ردود فعلهم سريعة. ففي الغد، وبمعية الكتبة والشيوخ، ها هم يغتنمون فرصة وجود يسوع من جديد في الهيكل ليسألوه:"بأي سلطان تعمل هذه الاعمال؟" (١١: ٢٨). فبما ان عظماء الكهنة لم

يقلّدوه مثل هذا السلطان، فمن يا ترى قلّده اياه، بحيث استطاع ان يتجاوز على حقوقهم؟ كان ينبغي ليسوع ان يجيب، بشكل طبيعي، انه تلقى هذه الوكالة من الله الذي نصّبه ملكاً ونبياً لشعبه الجديد (انظر ١: ٩-١١). ولكنه، كي يبرهن على ذلك، كان عليه ان يتمم "علامة" آتية من السماء تؤكد صحة رسالته (انظر يو ٢: ١٨). وهذا ما رفضه يسوع، كما كان قد رفضه على الفريسيين من قبل (مر ٨: ١١-١٢). انه يؤثر ان يلعب لعبة، حين يلقي عليهم بدوره سؤالاً: "أمن السماء جاءت معموذية يوحنا ام من الناس؟" وبعبارة اخرى: مَن قلّد يوحنا السلطة بحيث انه انتزع الحق في اطلاق رتبة جديدة للتطهير؟ الله ام الناس؟ و لم يَدرِ عظماء الكهنة بماذا يجيبون. فإن اعترفوا بانها من الله، سيسألهم يسوع: لماذا لم يؤمنوا به إذن. وإن انكروا انها من الله، سيجلبون على انفسهم غضب الجمع الذي كان يعتبر يوحنا نبياً أرسله الله. انهم يحذرون إذن من الاجابة عن سؤال يسوع، ويكتفون بالقول:"لا ندري"! وحينذاك يرفض يسوع ايضاً الاجابة عن سؤالهم.

ويفهم القارئ، ومن دون اية صعوبة، بان بوسع يسوع ان يطالب بعين الدور الذي كان للمعمذان: فما دام مدركاً لحقه في التصرف كما فعل، فلأن الله قد جعله نبياً لشعبه الجديد.

• الكرامون القتلة (١٢: ١-١٢)

في المشهد التالي، هوذا يسوع يهاجم من خلال طرحه مثل الكرامين القتلة. انه يبدأ بالعودة الى نص اش ٥: ٢: "رجل غرس كرماً، وبنى برجاً في وسطه، وحفر فيه معصرة". ومن ثم، فيما ذهب هذا الرجل الى الخارج، آجر كرمه لكرّامين. ولما حان الاوان، ارسل بالتتابع ثلاثة خدم ليجنوا ثمار الكرم. إلا ان الكرامين أساءوا معاملتهم، البعض تلو البعض، حتى انهم قتلوا الاخير. وبالتالي ارسل اليهم رب الكرم ابنه الحبيب. غير ان الكرامين، وقد علموا انه الوارث، قتلوه،

ظانين انهم يرثون الكرم عوضه. ماذا سيعمل رب الكرم؟ سيأتي ويبيد الكرامين ويعطي الكرم لآخرين.

ان هذه العودة إلى اشعيا تكشف للحال هدف المثل، وهو في الواقع استعارة:"كرم رب القوات هو بيت اسرائيل" (اش ٥: ٧). فالله هو الذي غرسه. والكرامون الذين أُجّرَ لهم الكرم هم اليهود. والخدم المرسَلون هم الانبياء. والمرسَل الاخير، "الابن الحبيب"، هو يسوع ذاته الذي ناداه الله وقت عماذه: "انت ابني الحبيب" (مر ١: ١١). فيسوع هو إذن مَن سيقتله اليهود، وهم الذين سيبيدهم الله عقاباً. وسيُعطي الكرم حينذاك لآخرين، اي للوثنيين. لا يقول مرقس ذلك بوضوح، بينما شرحه متى: "لذلك اقول لكم: ان ملكوت الله سيُنتزع منكم ويعطى لامة [الوثنيين] تثمر ثمره" (متى ٢١: ٤٣). وهذا بالضبط ما كان مرقس يريد ان يلمح اليه حين أقحم مشهد طرد باعة الهيكل في رواية التينة اليابسة (انظر اعلاه).

• الجزية الواجبة لقيصر (١٢: ١٣-١٧)

في هذا المشهد، هوذا عظماء الكهنة يتأهبون للهجوم من جديد، وبطريقة ذكية. يُرسلون الفريسيين -وهم ذميون الى اقصى الحدود- في محاولة لوضع يسوع في مأزق. انهم يحرّضونهم كي يسألوه اذا كان من المسموح دفع الجزية لقيصر. والسؤال في حد ذاته خدعة. إذا أجاب يسوع بالايجاب، فسوف يخيب آمال الشعب الذي ينتظر تحريرا سياسياً: اعادة مملكة اسرائيل. وسيكون بوسع عظماء الكهنة حينذاك ان يهلكوا يسوع من دون ان يخشوا ردود فعل عنيفة من قبل الشعب (انظر ١١: ١٨؛ ١٢: ١٢أ). وإذا اجاب بالنفي، فسيكون بوسعهم ان يشكوه لدى السلطات الرومانية بصفته عنصر شَغَب، وسيتولى الرومان آنذاك مهمة تصفيته. وهنا ايضاً يبدي يسوع دهاءه، متجنباً أي جواب بوسعه ان يعرّضه للخطر

من جانب أو من آخر. هوذا يطلب أن يُؤتى اليه بدينار يحمل صورة الامبراطور الروماني، قيصر. ولما كانت هذه العملة تحمل صورة قيصر واسمه، خرج يسوع بهذه الخلاصة: "ادّوا لقيصر ما لقيصر، ولله ما لله". وإذ لم يكن هناك ردّ على هذا الطرح، لم يبق للفريسيين سوى ان ينسحبوا.

• مسألة القيامة (١٢: ١٨-٢٧)

يمثّل الصدّوقيون الطبقة الكهنوتية التي ينتمي اليها رؤساء الكهنة. انهم يأتون بدورهم ليطرحوا على يسوع سؤالاً محرجاً يتعلق بقيامة الموتى، وهم لا يؤمنون بها. وبحسب الشريعة الموسوية، حين يموت رجل تزوج من دون ان يخلّف ولداً، كان يقتضي على اخي هذا الرجل ان يتزوج امرأة اخيه ليقيم له نسلاً. وتخيّل الصدّوقيون حالة سبعة اخوة وجب عليهم ان يقترنوا بالمرأة ذاتها بحكم هذه الشريعة. ففي القيامة لمن ستعود هذه المرأة؟ ويجيبهم يسوع، بادئ بدء، بأن المسألة لن تطرح طالما لن يكون في القيامة من زواج، وانما سيكون البشر كالملائكة في السموات. ويضيف من ثم، مبرهنا على حقيقة القيامة، بان الله هو اله احياء وليس اله أموات. ويلتزم بالتالي بأن يحفظ في الحياة اولئك الذين يعترفون به إلهاً.

• الجمع يصغي الى يسوع (٢: ٢٨-٤٠)

ليس المشهدان التاليان مجادلة. فمرقس كان قد افتتح المجادلات بالاشارة الى كون عظماء الكهنة لم يجرؤا على تحدّي يسوع بشكل مكشوف، خوفا من الجمع الذي كان على الدوام معجباً بتعليمه (١١: ١٨). وها هو يختم هذه السلسلة من المشاهد التي تجري في الهيكل بهذه الاشارة: "وكان من الناس جمع كثير يصغي اليه

مسروراً (١٢: ٣٧ب). وازاء المجادلات السابقة، سيضع بالمقابل تعليماً ليسوع اكثر اثارة.

ففي ١٢: ٢٨-٣٤، هوذا احد الكتبة يطرح سؤالاً على يسوع، ومن دون سوء نيّة. انه يسأله عن الوصية الكبرى بين كل الوصايا. ويعيده يسوع الى نصين من الكتاب المقدس: نص تث ٦: ٤-٥ الذي يطلب منا ان نحب الله من كل قلبنا ونص اح ١٩: ١٨ الذي يأمرنا بان نحب قريبنا كأنفسنا. ولا توجد وصية اكبر من هاتين الوصيتين. ويصادق الكاتب على هذا الجواب، ويعلن له يسوع بانه غير بعيدٍ عن ملكوت الله. ومن ثم نجدنا في مناخ يتسم بالمجابهة:

هوذا يسوع يبادر بسؤال يجعل تعليم الكتبة موضوع شك. انهم يقولون ان المسيح يجب ان يكون ابنا لداود. إلا ان داود قد كتب ملمّحاً الى الملك المسيحاني:"قال الرب لسيدي: اجلس عن يميني.." (مز ١١٠: ١). "فالرب" هو الله و"سيدي" هو الملك المشيحاني المقبل. وداود حين يتكلم عنه، يشير اليه بصفته "سيده". فكيف يمكنه ان يكون ابنه؟ هذا المشهد الاخير يقطع المشاهد السابقة: فلسنا بازاء مجادلة يحاول فيها معارضو يسوع ان يسجّلوا عليه مأخذاً. ويحق لنا ان نتساءل: ألا يكون هذا المشهد صدى لمجادلات من نوع آخر تكون قد وضعت تلاميذ يسوع في مواجهة مع تلاميذ المعمذان. ألم يكن هؤلاء يدّعون بانه لا يمكن ان يكون يسوع ملك الملكوت الجديد، لانتفاء كونه سليلاً لداود؟ ويفترض مرقس بان يسوع سبق فاجاب بنفسه عن هذا الاعتراض باقامة الدليل على ان الملك المشيحاني لا يمكنه، بحسب المزمور ١١٠: ١، أن يكون ابناً لداود.

-٥-

نهاية عالم

(١٣: ١-٣٧)

• يسوع يعلن خراب الهيكل

فيما كان يسوع خارجاً من هيكل اورشليم، لفت احد تلاميذه انتباهه الى عظمة البنيان. وجاء جوابهُ: "اترى هذه الابنية العظيمة؟ لن يُترك هنا حجر على حجر من غير ان يُنقض" (مر ١٣: ١-٢). فيسوع ينذر إذن بخراب هيكل اورشليم.

ماذا كان المعنى العميق من هذه النبؤة؟ انها اعلنت انقلاباً جذرياً في العلاقات بين الله وشعبه. فالهيكل كان في الواقع مكان حضور الله، أي حيث كان ينبغي له ان يقيم (١مل ٨: ١٠-١٣). وفي حالة الخطر الاكبر، على الصعيدين الشخصي والوطني، كان الشعب يأتي لملاقاة الله في الهيكل ليتوسل اليه ان يبعد الكارثة (١مل ٨: ٣٠-٤٥).فكان خراب الهيكل يعني بالتالي نهاية هذا الحضور الالهي. وتلك علامة على كون الله قد رفض شعبه بسبب تمرداته (ار ٧: ١٤-١٥). ونجد الفكرة ذاتها -وقد عُبِّرَ عنها بحسب تقليد آخر- في التهديد الذي أطلقه يسوع ضد اورشليم التي تقتل الانبياء وترجم المرسلين اليها (متى ٣٩؛ لو ١٣: ٣٤-٣٥). وخاتمة هذا النص تقولها صريحة:"هوذا بيتكم يُترك لكم قفراً، فاني اقول لكم: لا ترونني بعد اليوم حتى تقولوا: تبارك الاتي

باسم الرب". ومعلوم ان "البيت" هو هيكل اورشليم، وان تخلي الله عن الهيكل هو علامة تخليه عن شعبه، وان العهد قد بطل (انظر حز ١٠: ١٨؛ ١١: ٢٢-٢٣) ما دام اسرائيل لا يعترف بالمسيح.

لقد اراد بعض المفسرين ان يشككوا في حقيقة نبوة المسيح هذه، ولكن من دون اسباب جادة. لقد كان هذا الموضوع في الواقع مألوفاً في التقليد النبوي. فاذا اراد الله ان يعاقب شعبه المذنب بعدم حفظه الشريعة الالهية، كان عليه ان يتركه... وهذا ما سبق واعلنه النبي ميخا (مي ٣: ١٢؛ ورجّع صداه ار ٢٦: ١٨). وهذا ما سيعلنه من بعده النبي ارميا (ار ٧: ١٢-١٥، ٢٦: ٤-٦) او النبي اوريا (ار ٢٦: ٢٠). ويا لها من نبؤة مخيفة طالما أنها كانت سبباً لمقتل اوريا، فيما لم يَنجُ ارميا من الموت الا بفضل تدخل احد اصدقائه (ار ٢٦: ٢٢-٢١).

فمن المحتمل جداً ان يكون لهذا الانذار ثقله الكبير في قرار عظماء الكهنة بقتل يسوع.

• مجيء ابن الانسان

خراب الهيكل.. ستسبقه مجموعة من العلامات الدالة (١٣: ٣-٢٣)، ومن ثم يتمّ مجيء ابن الانسان (١٣: ٢٤-٢٧). كيف تخيل مرقس سيناريو عودة المسيح.

يسبق هذه العودة عدد من العلامات الكونية:"تظلم الشمس، والقمر لا يرسل ضوءه، وتتساقط النجوم من السماء، وتتزعزع القوات في السموات" (١٣: ٢٤-٢٥). هل ينبغي ان نفهم بأن الكون الذي نعيش فيه سيصبح خراباً؟ بالتأكيد لا. نحن في الواقع بازاء ظواهر طبيعية: كسوف الشمس أو خسوف القمر، نيازك... وهنا ايضاً نجدنا ازاء احد المواضيع الكلاسيكية في التقليد النبوي: حين يتدخل الله ضد شعبه او من اجله، فالكون كله يتزعزع. هكذا نقرأ

في اش ١٣: ١٠، وبحسب الترجمة السبعينية:" لأن كواكب السماء ونجومها وكل جيش السماء لا تبعث نورها، والشمس تظلم في طلوعها، والقمر لا يضئ بنوره". وبحسب يوء ٣: ١-٤ يعلن الله انه سيرسل روحه على شعبه، ويضيف:" واجعل الايات في السماء وعلى الارض، دماً وناراً واعمدة دخان، فتنقلب الشمس ظلاماً والقمر دماً، قبل ان يأتي يوم الرب العظيم الرهيب". ولنا دليل على انه لا ينبغي ان نأخذ هذه الظواهر الكونية بالمعنى الحرفي: فلدى فيض الروح على تلاميذ يسوع الاولين، يوم العنصرة، سنرى بطرس يورد بشكل مكثيف نص يوئيل هذا، مقدماً له بهذه العبارات:"لكن هذا هو ما قيل بلسان النبي [...]" (رسل ٢: ١٦-٢١). وغني عن القول ان، في يوم العنصرة، لا الشمس ولا القمر أظلما!

ولنا ايضاً دليل آخر على ذلك: لو كان المسيح قد تصور هنا كارثة كونية، فلن نفهم معنى المشورات التي اعطاها في الايات ١٤-٢٣. يجب ان يسرع المرء الى الهرب دون ان يعود الى البيت لحمل امتعته. وإن كان ساكناً في اليهودية، فعليه ان يهرب الى الجبال. وكل ذلك يتعلق باجتياح سيدمّر اورشليم وهيكلها، وليس "نهاية العالم" كما نتخيلها غالباً.

وحينئذ يرى الناس "ابن الانسان آتيا في الغمام، في تمام العزة والجلال، (١٣: ٢٦). نحن هنا امام نص دا ٧: ١٣ يُستَشهَد به، ولكن مع تحوير ذي معنى. ففي دانيال، نجد "ابن انسان" ينطلق من الارض ليستقرّ بالقرب من الله الذي يقلّده الوظيفة الملوكية. اما هنا، فابن الانسان يترل من لدن الله كي يأتي الى الارض. فالامر يتعلق ولا شك بالمسيح الناهض والمرفوع الى يمين الله (مز ١١٠: ١). انه الملك المشيحاني الذي يأتي ليتسلّم ملكوته. ولكي يوطده، "يرسل ملائكته ويجمع الذين اختارهم من جهات الرياح الاربع، من اقصى الارض الى اقصى السماء" (١٣: ٢٧). هذا النص مكوّن، هو الاخر، من مراجع بيبلية تعلن عودة جميع اعضاء شعب الله المشتتين، اي الذين في الشتات. ففي زك ٢: ١٠ يدعو النبي

المسبيين الى العودة: "هيّا هيا اهربوا من ارض الشمال، يقول الرب، فاني قد شَتَّتُكم نحو اربع رياح السماء، يقول الرب". ونقرأ أيضاً في تث ٣٠: ٣-٥، وبحسب الترجمة السبعينية: "يشفي الرب خطاياك، ويرحمك، ويرجع فيجمعك من وسط الشعوب كلها حيث شَتَّتَكَ الرب الهك. ولو كان قد ابعدك من اقصى السماء الى اقصى السماء، يجمعك الرب من هناك، ومن هناك يأخذك، ويأتي بك الرب الهك الى الارض التي ورثها آباؤك [...]". ولقد سبق ان رأينا بان ملكوت المسيح، بحسب رؤية مرقس، يجب ان يتمّ على الارض، طالما ان عليه ان يأخذ مكان ملكوت الشيطان. فوجهة النظر هنا ما زالت ارضية. ولا شيء يشير الى ان الملائكة سوف يجمعون المختارين من زوايا العالم الاربع ليذهبوا بهم الى السماء. والرؤية تبقى في مناخ المرجعين البيبليين اللذين وَرَدا أعلاه: فالمقصود هو جمع الذين كانوا قد شُتِّتوا بعيداً عن ارض الميعاد.

• متى يحصل مجيء ابن الانسان؟

يجيب يسوع عن هذا السؤال بالتذكير بمثل التينة:"إذا لانت اغصانها ونبتت اوراقها، علمتم ان الصيف قريب، وكذلك انتم إذا رأيتم هذه الامور تحدث، فاعلموا ان ابن الانسان قريب، على الابواب" (١٣: ٢٨-٢٩). هذا الحدث سيتم، والتلاميذ احياء. وتدل التكملة على ذلك: " الحق اقول لكم، لن يزول هذا الجيل حتى تحدث هذه الامور كلها. وكان يسوع قد سبق فأكّدها لتلاميذه: "الحق اقول لكم: في جملة الحاضرين ههنا من لا يذوقون الموت حتى يشاهدوا ملكوت الله آتياً بقوة" (٩: ١). هل كان بوسع يسوع ان يكون اكثر وضوحاً؟ لا، لانه يضيف: "اما ذلك اليوم وتلك الساعة، فما من احد يعلمهما: لا الملائكة في السماء، ولا الابن، الا الاب" (١٣: ٣٢). فيسوع يجهل، إذن، اليوم الذي فيه، بعد ان يكون الهيكل قد هُدم، سيأتي هو، ابن الانسان، ليوطد ملكوت الله على الارض. ففي

انتظار هذا اليوم المليء بالسر، يجب ان نسهر كي نكون متأهبين لاستقبال الملـــك المشيحاني (١٣: ٣٤-٣٧).

- ٦ -

تأسيس الافخارستيا

(١٤: ١-٢٥)

• المؤامرة ضد يسوع (١٤: ١-٢، ١٠-١١)

قبل عيد الفصح بيومين، كان عظماء، الكهنة والكتبة يبحثون عن وسيلة يمسكون بها يسوع بحيلة ليقتلونه (١٤: ١). والحيلة كانت ضرورية، لان الجماهير التي تسارعت الى اورشليم للاحتفال بالعيد كانت غفيرة. ولما كانت وما زالت مؤيدة ليسوع (انظر ١١: ١١، ١٨؛ ١٢: ١٢، ٣٧)، كان اعتقاله اثارة للاضطرابات (١٤: ٢). وحينئذ يأتي يهوذا، احد الاثني عشر. ويلتقي بعظماء الكهنة، ويعرض عليهم امر تسليمه. وهؤلاء، فرحين، وعدوا بأن يعطوه مالاً إذا افلح. واخذ يهوذا يبحث عن فرصة مؤاتية (١٤: ١٠-١٢). وها نحن ازاء حل قريب للمأساة.

• إعداد الفصح (١٤: ١٢-١٦)

يسوع يعلم، ولكنه يتصرف وكأنه لا يعلم شيئاً. ففي اليوم الاول من العيد، اليوم الذي فيه يُذبح الحمل الفصحي، يرسل اثنين من تلاميذه لكي يُعدوا الغرفة وكل ما يلزم للاحتفال بالعشاء الفصحي (١٤: ١٢-١٦). وتجري الامور كما

لدى إرسال التلميذين اللذين أتيا بالجحش الصغير الذي عليه شاء يسوع ان يدخل اورشليم (١١: ١-٦).

ويعلم يسوع مسبقاً بأن التلميذين سيصادفان رجلاً حاملاً ماء (١٤: ١٣؛ انظر ١١: ٢)؛ وما عليهما سوى ان يدخلا وراءه في بيت، ويطلبا من رب البيت اين الغرفة التي ينبغي له ان يأكل الفصح فيها مع تلاميذه، وسيريهما اياها، جاهزة، معدّة (١٤: ١٤-١٥؛ انظر ١١: ٣). فكل شيء يجري كما سبق فتوقعه يسوع (١٤: ١٦؛ انظر ١١: ٤-٦). من الممكن ان يكون يسوع قد اتفق مسبقاً مع رب البيت. إلا ان مرقس لا يهتم كثيراً بهذا التفصيل. فما يهمّه هو ان يشير الى اللقاء بالرجل الحامل جرة ماء، وهذا امر غير مألوف.. فهذا العمل هو بالاحرى من اعمال النساء. وهكذا يتصرف يسوع هنا بصفة نبي، يعرف الامور الخفية، كما كان قد تصرف بصفة نبي لدى إرساله التلميذين ليأتيا بالجحش الصغير الذي عليه انجز دخوله الى اورشليم.

وفي المساء، اي بعد غروب الشمس، يأتي يسوع مع تلاميذه لأكل الحمل الفصحي (١٤: ١٧). وفي اثناء العشاء، نراه يتصرف ايضاً بصفة نبي، إذ يعلن مسبقاً عن خيانه احد التلاميذ: "ان واحداً منكم سيسلمني، وهو يأكل معي". وذلك تلميح الى مز ٤١: ١٠ "وحتى صديقي الحميم الذي اتكلت عليه فأكل خبزي، هو رفع عليّ عقبة". ويعلم يسوع ان كل شيء سيجري طبقاً لنبؤات العهد القديم. وخيمّ على التلاميذ اضطراب شديد، وراح كلٌ منهم يسأله:" أأنا هو؟ ومن دون ان يشير يسوع الى احد منهم بالتخصيص، نراه يؤكد كلامه قائلاً:" انه واحد من الاثني عشر، وهو يغمس يده في الصفحة معي".

وهوذا يسوع، استناداً من جديد الى أسفار العهد القديم، يعلن موته القريب:"فابن الانسان ماض [الى الموت] كما كُتِبَ في شأنه. ولكن الويل لذلك الانسان الذي يُسلَّم ابن الانسان على يده...". فابن الانسان هو الملك المشيحاني

الذي تكلم عنه دا ٧: ١٣-١٤. وهو وجه له، في آن واحد، قيمة شخصية وجماعية. إلا انه قبل ان يتقلّد الوظيفة الملوكية، سيُسلم بين ايدي المضطهِد (٧: ١٨، ٢٥). ولقد سبق يسوع مراراً، ووحّد بينه وبين ابن الانسان بحسب دانيال، والذي يلفه السّر. فهو يعلم، اذن، انه سوف يُسلَم الى ايدي اعدائه، وعلى يد احد اخصّائه (انظر مز ٤١: ١٠). ان يسوع هو الملك الذي يُسلم على يد احد اصحابه، وهو في الوقت ذاته النبي الذي يستبق الحدث مفسراً النصوص البيبلية.

• تأسيس الافخارستيا (١٤: ٢٢-٢٥)

هذا المشهد هو من أكثر المشاهد سريّة في حياة يسوع، وهو من اكثرها صعوبة في التفسير، سيما لأنه فسح المجال لعدد من التفاسير التي كان لها اثرها على المعطيات الانجيلية ذاتها.

لنشر للحال الى ان هذا المشهد، نُقِلَ الينا بحسب تقليدين مختلفين الى حد ما: التقليد الذي اعتمده مرقس ومتى، والتقليد الذي عكسه كل من لوقا وبولس في ١ قور ١١: ٢٣-٢٦. لن نتناول بالتحليل هنا سوى نص مرقس. غير ان النتائج التي سنتوصل اليها ستترك القارئ في حالة جوع، لذا سوف نعود في ملحق (انظر ادناه في آخر الكتاب) الى فحص تقليدَي لوقا/بولس، وكيف فُهِمَ هذا التقليد في القرون الخمسة الاولى من تاريخ الكنيسة.

• الكلام عن الخبز

"وبينما هم يأكلون، اخذ وبارك ثم كسره وناولهم وقال: خذوا هذا هو جسدي" (١٤: ٢٢).

ماذا يمكن ان يكون المعنى الذي ينطوي على هذا الكلام "السّري" بالنسبة الى التلاميذ؟ وبالنسبة الى مرقس؟ وبالنسبة الى يسوع ذاته؟ لنحاول التقدّم خطوة فخطوة.

٩

لنأخذ أولاً النص اليوناني كما ورد في مرقس. من المؤكد ان الضمير "هو" الذي يوّحد بين الصفة والموصوف، قد يشير الى ماهية جوهرية، ولكنه قد لا يشير ايضاً الا الى مجرد تشبيه كما في ١ قور ١٠: ٤. فبصدد الصخرة التي كانت تتبع العبرانيين في البرية، والتي كان يخرج منها الماء بغزارة (انظر خر ١٧: ٦)، هوذا بولس يصرّح "وهذه الصخرة هي المسيح". فبولس عنى ولا شك ان الصخرة كانت ترمز الى المسيح وتبشر به، وأن منه ستجري انهار ماء حي (انظر يو ٧: ٣٨). ومما يزيدنا اقتناعاً، هو ان اللغة الارامية التي بها لفظ يسوع هذا الكلام، لم تكن تستخدم فعل "كان"[١] في مثل هذه الجُمَل، وانما الضمير او حتى الضمير المستتر. فالترجمة (المؤقتة) من الارامية تعطي هذه الجملة: "هذا [هو] جسدي".

لنتقدم الآن خطوة الى امام. ان لفظة soma باليونانية يمكن ان تعني الجسد بكونه نقيضاً للنفس، ونجدنا للحال بازاء المعنى الفلسفي ومن ثم الثانوي. أما في اللغة الشائعة، فكانت تعني بالأحرى الكائن بكليّته، في علاقته بالعالم الخارجي. وإذا اضيفت اليها صفة التملك، فيمكن حينذاك ان تعادل الضمير. فالقاموس اليوناني - الفرنسي لـ Bailly يترجم عبارة to son sôma والتي نقرأها في رواية Euripide بلفظة "شخصك" اعني "انتَ". وفي الواقع هذا هو المعنى الذي يفرضه الاصل الارامي والذي يفترضه النص اليوناني. وتعاد صياغته في اغلب الاحيان بعبارة dèn (hû) gûphi. ولما كان الساميون لا يميزون بين النفس والجسد، فكانت لفظة gûpha تعني، إذن، الانسان في وحدته النفسية الجسدية، بصفته

---

(١) ينطلق المؤلف من اليونانية التي تستخدم الفعل في هذه العبارة -وهكذا الحال مع الفرنسية (est) من فعل être والانكليزية (is) من فعل to be. بينما تستخدم الارامية -ومن ثم العربية- الضمير: هذا هو جسدي (المعرب).

"شخصاً" ذا علاقة مع العالم الخارجي. وإذا أُلحق بهذه اللفظة حرف يدل على الشخص، كما هي الحال هنا، فسيعادل بالتالي ضمير المتكلم. فبالنسبة الى التلاميذ (كما بالنسبة الى مرقس) يكون كلام يسوع الذي تلفظ به بالارامية يعني بالتالي:"خذوا هذا [هو] أنا".

يشبّه يسوع نفسه، إذن، بالخبز الذي سيتناوله التلاميذ. لم يكن ذلك لهم ولا شك سوى تشبيه يدور حول فكرة الغذاء. فكان عليهم ان يفكروا في عدد من النصوص البيبلية التي كانت تلعب بوضوح على تشبيه كهذا، في ما يتعلق بكلام الله او حكمته. وعلى سبيل المثال، كان الله قد اعلن لشعبه، إبان المسيرة في الصحراء: "لا بالخبز وحده يحيا الانسان، بل بكل ما يخرج من فم يهوه"، أي -وكما توضحه الترجمة اليونانية السبعينية- "بكل كلمة تخرج من فم الله" (تث ٨: ٣). والنبي عاموص يعلن:"ها انها ستأتي ايام يقول السيد الرب: ارسل فيها الجوع على الارض، لا الجوع الى الخبز، ولا العطش الى الماء، بل الى استماع كلمة الرب" (عا ٨: ١١). وفي مثل ٩: ٥-٦، نجد الحكمة ذاتها تدعو البشر:"هلموا كلوا من خبزي واشربوا من الخمر التي مزجت. اتركوا السذاجة فتحيوا، اسلكوا طريق الفطنة". ونجد دعوة سفر الحكمة ذاتها في سفر بن سيراخ (٢٤: ١٩-٢١):" تعالوا اليّ ايها الراغبون فيّ واشبعوا من ثماري [...] الذين يأكلونني لا يزالون يجوعون، والذين يشربونني لا يزالون يعطشون". ونقرأ ايضاً في اش ٥٥: ٢-٣ نصاً من الهام حكمي:"لماذا تَزِنون الفضة لما ليس بخبز، وتتعبون لما لا شَبَعَ فيه؟ اسمعوا لي سمعاً وكلوا الطيّب، ولتتلذّذ بالدسم نفوسكم". فكما ان الخبز هو غذاء يمنحنا الحياة الطبيعية، هكذا كلام الله، او حكمته، انما هما غذاء يمنحنا الحياة الروحية.

ولكن ألم يَعِد الله بان يرسل كلمته للبشر كي يساعدهم على العيش وفق ارادته؟ ان نص اشعيا الذي اوردناه قبل قليل يتواصل بهذه الكمات: "لأنه كما ينزل المطر والثلج من السماء، ولا يرجع الى هناك دون ان يروي الارض ويجعلها تنتج

وتنبت، لتؤتي الزراع زرعاً والآكل طعاماً، فكذلك تكون كلمتي التي تخرج من فمي [انظر تث ٨: ٣١]: لاترجع اليّ فارغة، بل تُتِمّ ما شئت وتنجح فيما ارسلتها له" (اش ٥٥: ١٠-١١). وبالشكل ذاته، كان على الله ان يرسل حكمته الى البشر (حك ٩: ٩-١٠، سي ٢٤؛ ٨، ١٢). ولما كان يسوع هو الخبز الذي يعطينا الحياة الروحية، أفليس هو ذاته كلمة الله وحكمة الله التي حلّت في العالم؟

هكذا فهم التقليد اليوحناني كلمة يسوع هذه. ونعلم ان انجيل يوحنا لا يروي تأسيس الافخارستيا. الا ان يسوع، في الخطاب الذي فاه به في مجمع كفرناحوم، يكون قد صرّح: "انا خبز الحياة. من يُقبل إليّ فلن يجوع، ومن يؤمن بي فلن يعطش ابداً" (يو ٦: ٣٥). وعبارة "انا الخبز"، خبز الحياة، تستعيد صيغة يسوع القائل "هذا [الخبز] هو أنا". والتتمة تلمّح الى نص سي ٢٤: ١٩-٢١ الذي اوردناه اعلاه:" تعالوا إلي [...] الذين يأكلونني لا يزالون يجوعون، والذين يشربونني لا يزالون يعطشون". فالخبز يرمز، اذن، الى المسيح بصفته كلمة الله (او حكمة الله) التي حلّت بين البشر. ولن يكون عمل يوحنا سوى التوسّع في هذا الوحي، حين سيكتب في فاتحة انجيله:" في البدء كانت الكلمة [...] والكلمة صارت بشرا وسكنت بيننا" (يو ١: ١، ١٤).

ان تفسيراً كهذا لكلمة يسوع توكده ايضاً صلاة افخارستية عريقة في القدم، حفظتها لنا الديداكيه (تعليم الاثني عشر، نهاية القرن الاول). فعلى كسرة الخبز، كان يجب تلاوة هذه الصلاة:" نحمدك يا ابانا من اجل الحياة **والمعرفة التي جعلتنا نبلغ اليها** بيسوع، خادمك، (٩: ٢). وهكذا يوحي الخبز، إذن، بموضوع المسيح-الكلمة الذي جاء ليطلعنا على ارادة الله، بحيث إننا إذا تطابقنا معها، يمكننا ان نحصل على الحياة.

كان من الصعب ولا شك على التلاميذ ان يفهموا هذا آنذاك. ولكنهم سيفهمونه فيما بعد، حين يأتي الروح لينيرهم (يو ١٦: ١٢-١٣).

وهكذا يتضح بأن كلمة يسوع التي جاءت في مر ١٤: ٢٢، انما هي كلمة وحي. انه يعلن لتلاميذه بانه، وفق شكل لم يحدده، **كلمة الله**، او حكمته، الحاضرة في العالم. وحينئذ يصبح من اليسير ان نرى الى أي حد ينسجم كلياً فعل هذا الوحي مع خط انجيل مرقس. فلقد رأينا كيف ان مرقس، من اول كتابه حتى آخره، شاء ان يبرهن بأن يسوع كان، في الوقت ذاته، نبياً وملكاً. والنبي هو ذاك الذي ينقل الينا كلمة الله. والله هو الذي يضع في فمه كلماته الخاصة. فيسوع هو اذن أعظم من نبي، انه النبي الاعظم طالما انه "كلمة" الله ذاتها مُشَخَّصة.

• الكلام على كأس الخمر

بعد الكلام على الخبز، يفوه المسيح بكلمة جديدة على كأس الخمر، كما يروي ذلك مر ١٤: ٢٣-٢٤:

"ثم اخذ كأساً وشكر وناولهم، فشربوا منها كلُّهم، وقال لهم: هذا هو دمي، دم العهد يراق من اجلكم".

لنحاول هنا ايضاً ان نرى كيف استطاع التلاميذ ان يفهموا كلام المسيح. من الواضح اولاً انه لا يمكنهم ان يتصوروا بان الخمر قد أصبحت فعلاً، وبشكل فيزيائي، دم المسيح. وكانت الديانة اليهودية تمنع قطعياً شرب الدم: "واما الدم فلا تأكلوه، بل أرِقهُ على الارض كالماء" (تث ١٢: ١٦؛ ١٥: ٢٣). وكان هذا المنع الزامياً الى حد كبير بحيث اصبح احد التحريمات الاربعة المفروضة على الوثنيين المهتدين الى المسيحية، في "مجمع" اورشليم، كما ورد في رسل ١٥: ٢٠ت؛ فلقد كان عليهم ان يتجنبوا "ذبائح الاصنام، والدم، والميتة، والزنى" (١٥: ٢٩).

وكما كان الكلام على الخبز، كان لا بد ان يكون للكلام على الخمر بُعد رمزي. وكان بوسع لونه الاحمر ان يوحي ولاشك بالدم، كما نقرأ في

هذا القول الوارد في تك ٤٩: ١١: "غسل بالخمر لباسه، وبدم العنب ثوبه" (انظر تث ٣٢: ١٤؛ سي ٣٩: ٢٦؛ اش ٦٣: ٢-٣؛ رؤ ١٤: ٢٠).

ولكي نفهم هذه الرمزية، لنُعِدْ قراءة رواية إبرام العهد القديم على جبل سيناء، انطلاقا من خر ٢٤: ١-٨. هوذا الله قد اعطى موسى الوصايا العشر (خر ٢٠: ١ت)، وموسى "قصّ على الشعب جميع اقوال يهوه وجميع الاحكام"، وكان الشعب يقبلها معلناً: "كل ما تكلم به يهوه نعمل به". وحينئذ راح موسى "يُصعِد ذبائح سلامية من العجول للرب". وسُكِبَ قسم من الدم على المذبح، وهو رمز الحضور الالهي، والقسم الثاني رَشّ به موسى الشعب قائلاً:" هوذا دم العهد الذي قطعه يهوه معكم على جميع هذه الاقوال" (خر ٢٤: ٨). فحين يعلن يسوع:"هذا هو دمي، دم العهد، يراق من اجلكم"، فهو انما يريد ان يلمح الى موته القريب، موضحاً بان دمه المسفوك سيختم العهد الجديد بين الله وشعبه، كما كان دم الثيران قد ختم العهد الاول. فخمرة الكأس، بفضل لونها الاحمر، كانت رمزاً لدمه الذي سيسفك. وحين يشرب التلاميذ هذه الخمر، وهي رمز دم المسيح، يصبحون متحدين بشعب الله الذي كان قد تلقى الرش بدم الضحايا المقدّمة كذبيحة شركة.

وهكذا يصبح من اليسير ان نرى الى أي حد اتحدت، بشكل وثيق، الكلمات على الخبز والخمر في التقليد الذي تبعه مرقس. فلدى إبرام العهد القديم، كان الشعب قد التزم بالعمل بكل "كلمات" الله التي نقلها موسى (خر ٢٤: ٣). وفي مشهد التجلي، كان يسوع قد ادرك انه لم يكن نبياً حسب، وانما النبي الاعظم، موسى الجديد الذي اعلن عنه تث ١٨: ١٥-١٨:" له اسمعوا" (مر ٩: ٧). ويسوع، حين قال كلمته على الخبز، فقد أفهم تلاميذه انه هو كلام الله بالذات. ففي العهد الجديد، المختوم بدم المسيح، سيتوجب على التلاميذ أن يضعوا موضع

التنفيذ كل كلماته، كونها كلمات الله ذاتها. وذلك هو الشرط الاساس للعهد الجديد.

ان كلمات المسيح على الخبز والخمر تندرج في خط كل التوسعات التي سبقت: يسوع هو النبي الاعظم، وهو الملك المشيحاني. يبدو ذلك بديهياً في ما يتعلق بالكلام على الخبز كما اكدّنا اعلاه: فيسوع، بصفته نبياً، لا ينقل الينا كلام الله حسب، وانما هو ذاته هذا الكلام. وهذا يصح ايضاً في ما يتعلق بالكلام على الخمر، ولكن بشكل اكثر تحفظاً. لقد كان على يسوع ان يملك مكان الشيطان، بمعنى ان البشر سيسمعون تعليمه الذي يفضله سيختفي الشر من الارض. وكان العبرانيون، ابان ابرام العهد القديم، قد وعدوا علناً ان يحفظوا كلمات الشريعة؛ وهكذا هي الحال في العهد الجديد. ذلك بان يسوع، بابرام هذا العهد بدمه، فهو إنما يضمن امانة البشر لكلامه، ويضمن في الوقت ذاته ملكوته على الارض. وهكذا يتضح بان الكلمات على الخبز وعلى الخمر قد فاه بها يسوع، بصفته نبياً وبصفته ملكاً في آن واحد.

هذا التفسير الذي اعطيناه الآن للكلمات التي قالها يسوع على الخبز وعلى الخمر، يندرج بالتمام في الخط العام لانجيل مرقس. ولكن -وسيقولها القارئ متسائلاً- ألسنا بعيدين عن الطقس الافخارستي الذي كان يُمارس في الكنيسة الاولى، وبشهادة بولس بالذات! ذلك يعني ان الكنيسة قد تبعت تقليداً موازياً، هو تقليد كنيسة انطاكيا الذي عكسه بولس. ولا يسعنا ان نتلافى هذه المسألة. ولما كنا نريد ان نخصص صفحات يقتضيها هذا التوسع، نحيل القارئ الى الملحق في آخر الكتاب.

-٧-

الجتسمانية

(١٤: ٢٦-٥٢)

• يسوع ينبئ بضعف الرسل (١٤: ٢٦-٣١)

بعد نشيد "هليّل" اي المزامير ١١٥-١١٨ التي يُختَم بها العشاء الفصحي، يخرج يسوع وتلاميذه ليذهبوا الى جبل الزيتون. وفي الطريق يقوم يسوع بفعل نبوي حين يورد نص زك ١٣: ٧: "ستعثرون باجمعكم، لانه كُتب: سأضرب الراعي فتتبدد الخراف" (مر ١٤: ٢٦-٢٧). ومنذئذ ستتوالى الاحداث وفقاً لنبؤات العهد القديم.

هوذا بطرس يحتج: حتى لو عثر الكل، ولكن لا أنا! إلا ان يسوع ينبئه بانه سيكون قد انكره ثلاث مرات قبل ان يصيح الديك مرتين. ويحتج بطرس من جديد، ويَضمّ كل التلاميذ احتجاجاتهم الى احتجاجاته (مر ١٤: ٢٩-٣١).

• نزاع يسوع (١٤: ٣٢-٤٢)

يصل يسوع وتلاميذه الى موضع يسمى جتسمانية (١٤: ٣٢). وها هو يترك جماعة التلاميذ ويذهب ليصلي بعيداً، ولم يأخذ معه سوى بطرس ويعقوب ويوحنا. انه يقول لهم: "نفسي حزينة حتى الموت! امكثوا هنا وصلّوا". ويصف لوقا

(٢٢: ٤٤) هذه الكآبة بكثير من الواقعية: عَرَقُه يصبح وكأنه قطرات دم تتساقط على الارض. لنحاول ان نتخيل حالة يسوع النفسية في هذا الوقت الرهيب.

كان يسوع، منذ بدء حياته العلنية، ولأنه كان يعلم ان الله أقامه ملكاً للملكوت الجديد، قد اختص لنفسه صورة ابن الانسان الذي تكلم عنه دا ١٣-١٤ (انظر القسم الاول / الباب ٦). الا ان ابن الانسان هذا، قبل ان يملك، كان عليه "ان يُسلم الى ايدي" المضطهِدين، كما هو مكتوب في دا ٧: ٢٥. فيسوع يتوقع، اذن، ان عليه هو ذاته ان يُسلَم الى ايدي اعدائه. وهذا ما أعلنه لتلاميذه حين عاد اليهم للمرة الثالثة:"قد أتت الساعة، وها **ابن الانسان يُسلم الى ايدي الخاطئين**. قوموا ننطلق، ها ان الذي يسلِمُني قد اقترب" (١٤: ٤١-٤٢). ماذا يخفي له المستقبل يا ترى؟ إذا وقع بين ايدي عظماء الكهنة، فسيقتلونه بعد اتهامه بأنه نادى بخراب هيكل اورشليم (١٣: ١-٢). وسيتم رجمه بالتالي. الا ان بوسع عظماء الكهنة ايضاً ان يسلموه الى الرومان، متهمين اياه بانه طالب بملوكية لا يمكنهم ان يسامحوه عليها. ألم يرتضِ بأن ينادى به ملكاً، لدى دخوله اورشليم قبل ايام قليلة؟ (١١: ٩-١٠). وحينذاك سيُصلب. وسواء بالرجم ام بالصلب، فكلاهما عذابان قاسيان. ومَن ذا لا يُصاب بالكآبة حين يتخيل هذا المستقبل المليء بالآلام؟

ويسوع، كي يصف ضيقه، يورد المزمور ٤٢: ٦، ١٢: "لماذا تكتئبين يانفسي، وعليّ تنوحين"؟ إلا ان المزمّر يتابع قائلاً:" ارتجي الله، فاني ساعود احمده: الهي هو خلاص وجهي". فيسوع يعتقد ان بوسع الله، بالرغم من كل شيء، ان يخلّصه، ولذلك فهو يستغيث:" أبّا، يا ابتِ، انت على كل شيء قدير، فاصرف عني هذه الكأس" (١٤: ٣٦أ). نحن امام ابن يتوجه الى قلب ابيه؛ وهل يمكن لاب ان يسلم ابنه الحبيب لموت فظيع؟ من الواضح ان يسوع في الجتسمانية **لا يعلم** انه سوف يُصلب فعليا من قبل الرومان؛ وإلا فما معنى هذه الصلاة؟ هل نحن بازاء

مشهد ساخر؟ ان يسوع يؤمن حقاً بان الله، لو شاء، بوسعه بعدُ ان ينقذه من الموت. ولذا فهو يتوسّل الى ابيه ان يخلّصه. ولكن، إذا لم تكن تلك ارادة الله، فلتتمّ هذه الارادة:"لا ما أنا اشاء، بل ما انت تشاء" (١٤: ٣٦ب). انها كآبة تجاه موت فظيع يقترب، كما انه أمل بأن قد لا يكون كل شيء قد انتهى، وهو بالتالي خضوع لارادة الله، اية كانت. وهكذا يبدو يسوع "انساناً حقيقياً".

• الاعتقال (١٤: ٤٣-٥٠)

لم يكن يسوع قد فرغ من الكلام حين وصل يهوذا على رأس عصابة، مسلّحة بالسيوف والعصي، ارسلها عظماء الكهنة والكتبة والشيوخ. وبحسب مرقس (ومتى ايضاً) تكمن خيانة يهوذا في هذا: كان الذين جاءوا ليعتقلوا يسوع غير قادرين على التعرف عليه بين جملة التلاميذ. وكان يهوذا قد اتفق معهم بانه يدلّهم عليه من خلال السلام عليه بقبلة. إلا ان تفسيراً كهذا لا يبدو محتملاً قط. فيسوع لم يكن مجهولاً، سيما وانه كان قد أمضى اسبوعاً في اورشليم، في مجادلة علنية في الهيكل. وحتى لو كان الجمع الذي جاء ليعتقله يجهله، فلقد كان بوسعهم أن يبعثوا مرافقاً يكون قد رآه رؤية العين، ومن دون الاستعانة بخدمات يهوذا. ولذا نرى يوحنا يعرض الامور بشكل اكثر معقولية: حين علم يسوع ان عظماء الكهنة يريدون ان يمسكوه ليقتلوه، هوذا يغادر الى افرائيم حيث يختفي (يو١١: ٥٤). إلا ان يوحنا يوضح: "كان عظماء الكهنة والفريسيون قد امروا بأن يُخبر عنه كلُّ من يعلم اين هو لكي يمسكوه" (١١: ٥٧). وهذا ما سيفعله يهوذا:" وكان يهوذا الذي أسلمه يعرف ذاك المكان [جتسمانية] لكثرة ما اجتمع فيه يسوع مع تلاميذه" (يو ١٨: ٢). فيهوذا "خان" يسوع حين دلّ الذين جاءوا ليعتقلوه على المكان الذي يختفي فيه.

وفيما كانوا يعتقلون يسوع، إستلّ احد الحضور (هو بطرس بحسب يو ١٨: ١٠) سيفه وضرب به خادم رئيس الكهنة فقطع اذنه. وهنا تتوقف مقاومة التلاميذ. انهم -وقد اخذهم الخوف- تركوا يسوع الى مصيره الأليم وهربوا جميعهم (مر ١٤: ٥٠). وهكذا تحققت نبؤة يسوع:"ستعثرون بأجمعكم، لانه كتب: سأضرب الراعي فتتبدد الخراف" (مر ١٤: ٢٧).

وكان يسوع، قبل هربهم، قد لفت انتباه اولئك الذين جاءوا يعتقلونه:"أعلى لص خرجتم تحملون السيوف والعصي لتقبضوا عليّ! كنت كل يوم بينكم أعلّم في الهيكل فلم تمسكوني!". وها هو يسوع يسخر! انه يعلم جيدا ان عظماء الكهنة، إذا لم يعتقلوه حين كان يعلم في الهيكل، فلأنهم كانوا يخشون رد فعل عنيف من قبل الجمع (مر ١١: ١٨؛ ١٢: ١٢؛ ١٤: ١ب-٢).

• الشاب الذي هرب عريانا (١٤: ٥١-٥٢)

بحسب مر ١٤: ٥١-٥٢، هناك شاب (neaniskos) ترك، بين يدي الذين جاءوا يعتقلون يسوع، "الازار" (sindona) الذي كان يستره، وهرب عريانا بالتمام. وإذا كان مرقس (وحده) قد نقل هذا المشهد، فذلك لانه رأى فيه ولا شك بعدا رمزيا. فهذا الشاب يمثل يسوع الذي كان قد دفن في "ازار" (sindona) (١٥: ٤٦)، وهو ذاته الذي سيتراءى للنسوة صبيحة الفصح (١٦: ٥): فالامر يتعلق بشاب (neaniskos) وليس بملاك، كما هي الحال في متى ولوقا. ويوضح مرقس هنا بانهم "امسكوا" هذا الشاب، بينما أهمل استخدام هذه الاشارة بالنسبة الى يسوع في الاية ٥٣ (قارن مع متى ولوقا). فيسوع يترك هنا "الازار"، رمز الموت، ويهرب عريانا، ولكنه سيتراءى للنسوة مرتديا ثياب الظفر، "ذالك الثوب الابيض" الذي يرتديه الناهضون (انظر رؤ ٦: ١١؛ ٧: ٩، ١٣). ونفهم حينئذ لماذا لم ير مرقس من الضروري

رواية ترائيات القائم: طالما ان هذا القائم هو الذي سيتراءى للنســـــاء[1]، ويبشـــر القارئ بقيامته.

(١) ان روايات مر ١٦: ٩-١٦، حتى لو كانت "قانونية"، لم يكتبها مرقس ذاته.

- ٨ -

يسوع محكوم عليه بالموت

(١٤: ٥٣-١٥: ١٥)

• المحاكمة امام السنهدريم (١٤: ٥٣-٦٤)

ما ان اعتقل يسوع حتى اقتيد عند رئيس الكهنة الذي يجتمع حوله كل عظماء الكهنة السابقين، مع الشيوخ والكتبة. انهم يبحثون ضد يسوع عن شهادة تمكّنهم من قتله، و لم يجدوا.. ذلك لأن شهود الزور لم يتوصلوا الى الاتفاق في ما بينهم، حتى حين اتهموا يسوع بانه سينقض الهيكل، ويعيد بناءه في ثلاثة ايلم (١٤: ٥٥-٥٩). ويشير مرقس الى ان يسوع كان ساكتاً و لم يُجبْ بشيء عن هذه الاتهامات، على مثال عبد يهوه في اش ٥٣: ٧: " عومل بقسوة، فتواضع و لم يفتح فاه. كحمل سيق الى الذبح". وقام رئيس الكهنة بالتالي وسأل يسوع: "أأنت المسيح ابن المبارك؟" فأجاب يسوع:"انا هو، وسوف ترون ابن الانسان جالساً عن يمين القدير وآتيا في غمام السماء" (١٤: ٦١-٦٢). وحينئذ صرّح رئيس الكهنة: "ما حاجتنا بعد ذلك الى الشهود؟ لقد سمعتم التجديف!". وقرّ رأيهم جميعاً انه يستوجب الموت (١٤: ٦٣-٦٤).

على مَ يقوم تجديف يسوع؟ أن يدّعي كونه المسيح، أي الملك المشيحاني، فذلك لا يشكل تجديفاً، كما لا يُعدّ تجديفاً تمثلُهُ بابن الانسان في دا ٧: ١٣-١٤ الذي يبلغ بالقرب من الله ليحصل على الوظيفة الملوكية، ولا حتى تأكيده على ان

ابن الانسان هذا سيجلس عن يمين القدرة (أي عن يمين الله) بحسب قول المزمور ١١٠: ١: "قال الرب لسيدي: اجلس عن يميني [...]". وبقيت حالة واحدة للتحديف تقوم على سؤال رئيس الكهنة:"أأنت ابن المبارك؟"، أي: أأنت ابن الله؟"، فأجاب يسوع:" انا هو". وقد يكمن التحديف حين تُفسَّر صيغة "ابن المبارك" بالمعنى المطلق. وكان يسوع قد اعترف بمرجعيته الى عالم الله.

عرض مرقس الامور على هذا الشكل، ولكن ماذا حدث في الواقع؟ لقد شكّك العديد من المؤرخين في واقعية هذه المحاكمة، باقامة الدليل على ان المعقولية تنقصها، على الصعيد التاريخي، سيما وانها عقدت خلال الليلة الفصحية. ويبدو ان يوحنا الانجيلي كان اول من شكك في تاريخيتها (بالمعنى العصري للتاريخ). ويخيل الينا انه، إذ كان عارفاً بالرواية بحسب التقليد الازائي، ورواية لوقا بشكل خاص، راح يفكك عناصرها، واحداً فواحداً، ليقول لنا:"نعم، ان عظماء الكهنة هم الذين ارادوا، فعلاً، موت يسوع، ولكن ذلك لم يجرِ كما يروى غالباً". لنرَ، اذن، كيف يمكن ان تكون الامور قد جرت، في نظره.

يرفض يوحنا اولاً ان يكون يسوع، قبل ان يُسلَم الى بيلاطس، قد مثُل امام السنهدريم الذي يكون قد حكم عليه بالموت عقاباً له، لكونه جدّف إذ اعلن نفسه "ابن المبارك". ففي يو ١٨: ٣١ نرى بيلاطس يقول لاعضاء السنهدريم الذين جاءوا بيسوع اليه: "خذوه انتم فحاكموه بحسب شريعتكم". هل كان بوسعه ان يقول ذلك لأعضاء السنهدريم، لو كانوا قد حاكموا يسوع واصدروا الحكم عليه بالموت؟ ومن جهة اخرى، كان يوحنا قد سبق ووضع، في عيد التجديد (يو١٠: ٢٢ت)، كل العناصر التي تكوّن "محاكمة" يسوع، ولا سيما وفق الصيغة اللوقاوية التي تميز باعتناء بين المسألتين: هل يسوع هو المسيح؟ (لو ٢٢: ٦٧)، وهل يسوع هو ابن الله؟ (٢٢: ٧٠). ففي لو ٢٢: ٦٧، يبدو ان كل عظماء الكهنة والكتبة يسألون يسوع:"إن كنت المسيح، فقُل لنا"، ويجيب يسوع:"لو قلتُ

لكم لما صدّقتم". وهكذا الحال في يو ١٠: ٢٤-٢٥، نرى اليهود (والمقصود هو حتماً رؤساء الشعب اليهودي) يسألون يسوع: "إن كنت المسيح، فقل لنا صراحة"، ويجيبهم يسوع:"قلت لكم، ولكنكم لا تؤمنون". ومن ثم في لو ٢٢: ٧٠-٧١، نرى الجميع يسألون يسوع: "أفأنت ابن الله، إذن؟". وبموجب جوابه الذي اعتبروه أكيداً منه، حُكم عليه بالموت. ويفترض لوقا ان هذا هو ما جرى، من دون ان يقوله بالوضوح الذي قاله متى ومرقس. وهكذا هي الحال في يو ١٠: ٣١-٣٦: ارادوا ان يرجموا يسوع لانه جعل نفسه إلهاً بقوله انه "ابن الله". وهكذا تبدو الموازاة بين روايتي لوقا ويوحنا بديهية.

إلا ان الدليل على كون يوحنا "يفكك" المحاكمة امام السنهدريم، بحسب الازائيين، يكمن في يو ١٠: ٣١-٣٦. فيسوع ذاته يؤكد بان المجاهرة بكونه "ابن الله" لا يشكّل تجديفاً، ولا يستوجب الموت من ثم. انها تستند الى المزمور ٨٢: ٦ إذ ينادي الله رؤساء الشعب قائلاً لهم:" قد قلت: انتم آلهة، وبنو العليّ كلُّكم". ويخلص يسوع الى القول: إذا كان الكتاب يدعو "آلهة" اناساً عاديين، فكيف يمكن لليهود ان يقولوا له "انت تجدف" لانه صرح انه "ابن الله"؟ وبعبارة اخرى، لما كان لقب "ابن الله" لايفترض معنى مطلقاً، فليس من التجديف من ثم ان يسمي نفسه "ابن الله".

وإذا كان يوحنا قد شكك بمحاكمة جرت ليسوع امام السنهدريم، حكم عليه في خلالها بالموت، وسُلّم من ثم الى بيلاطس، إلا انه يعترف، من جهة اخرى، بأن اجتماعاً للسنهدريم قد تم، كان قد دعا اليه عظماء الكهنة والفريسيون، وعزموا في اعقابه على قتل يسوع (١١: ٤٧-٥٣)، ولكن هذا الاجتماع قد جرى باكثر من اسبوع قبل عيد الفصح (انظر ١١: ٥٥ و ١٢: ١وبغياب يسوع. فلم تكن تلك إذن "محاكمة" يسوع.

ويمكننا الان ان نرى كيف تشابكت المأساة بحسب يوحنا. كان يسوع، في كل عيد يهودي كبير، يصعد الى أورشليم بمقتضى الشريعة. وكان

يصطدم فيها بعداء "اليهود" الذين يريدون قتله، لانه كان يدعي انه مساو لله (يو ٥: ١٨؛ ٨: ٥٨-٥٩؛ ١٠: ٣١-٣٦). وبعد إقامة لعازر، كان عظماء الكهنة والفريسيون قد دعوا الى عقد السنهدريم. وعلى اقتراح من قيافا -وهو رئيس الكهنة الفعلي- تقرر قتل يسوع، إذ كان بوسع نشاطه ان يثير انتفاضة شعبية ضد الاستعمار الروماني، مما قد يحمل الرومان على الرد بمجيئهم وتدميرهم الامة والهيكل (يو ١١: ٤٧-٥٣). هناك، إذن، خوف من تدمير للهيكل يكون يسوع قد اثاره بشكل غير مباشر. وهكذا يعتقل عظماء الكهنة يسوع، ويقودونه الى قيافا، ويسلمونه من ثم الى السلطة الرومانية.

ليس هناك، إذن، تناقض واضح بين التقاليد الازائية والتقليد اليوحناني، بل بالعكس. وانما المسألة تكمن في ان التقليد الازائي الذي بموجبه لم يصعد يسوع الى اورشليم سوى مرة واحدة، شاء ان يجمع، في مشهد واحد، احداثا وزعها التقليد اليوحناني على فترة زمنية اطول. إلا ان التقليدين على اتفاق للتأكيد بان رؤساء الشعب اليهودي، وعظماء الكهنة بالاخص، هم الذين ارادوا موت المسيح.

ولماذا اراد عظماء الكهنة موت يسوع؟ هل لأنه قال عن ذاته انه "ابن الله" -وهي عبارة قد يكونون فهموها بالمعنى المطلق؟ هذا الدافع لعب دوره بالتأكيد، وهو مشهود له في التقليد الازائي (مر ١٤: ٦٢-٦٤؛ انظر اعلاه) كما في التقليد اليوحناني (يو ٥: ١٨؛ ٨: ٥٩-٥٩؛ ١٠: ٣١ت). ولكنه لا يبدو الدافع الوحيد او الدافع الاساس، وبخلافه نجدنا امام حجة واهية. فالدافع الاساس يكمن في موقف يسوع تجاه هيكل اورشليم، وهو موقف جلب عليه حقد عظماء الكهنة وكل الطبقة الكهنوتية الذين كان نشاطهم كله متمحورا حول العبادة فيه. لا شك ان يسوع لم يؤكد قط انه سيهدم بنفسه الهيكل. غير ان يوحنا والازائيين متفقون في الاقل على نقطة مهمة. فبحسب الازائيين، اعلن يسوع، والحق يقال امام تلاميذه فقط، بان هيكل اورشليم سيهدم ابان اجتياح لا يمكن ان يحصل في الواقع إلا من

قبل الرومان (انظر مر ١٣: ١ت). وبحسب يو ١١: ٤٨، هوذا عظماء الكهنة وكل السنهدريم يخشون، إذا ما تركوا يسوع من دون ان يوقفوا نشاطه، ان "يأتي الرومان ويدّمرون حَرَمنا وامتنا". فيسوع لن يهدم بنفسه الهيكل، ولكن الهيكل سيكون قد تعرض للهدم بسببه. إلا ان هناك ما هو اعظم: قبل اسبوع فقط، كان يسوع قد طرد باعة الهيكل، مبينا بذلك انه يريد ان يّجرد عظماء الكهنة من امتيازاتهم ومن معنى وجودهم. فبعد هذه "المعثرة"، اخذ عظماء الكهنة "يبحثون كيف يهلكونه" (مر ١١: ١٨؛ انظر لو ١٩: ٤٧). فما اعظم الشجاعة التي اتصف بها يسوع! لقد كان يعلم، ومن دون أي شك، انه بعمله هذا، سيجلب على نفسه حقد الطبقة الكهنوتية، وعظماء الكهنة بنوع خاص، وانه سيتعرض بالتالي للموت.

• المثول امام بيلاطس (١٥: ١-١٥)

في كل هذا المشهد، يبدو لقب "ملك اليهود" الذي يُطلَق على يسوع وكأنه ردّة (١٥: ٢، ٩، ١٢، ١٨، ٢٦). وسيهزأ به اعداؤه من ثم، حين سيدعونه هم "ملك اسرائيل" (١٥: ٣٢). انها محاكمة يسوع - الملك قد بدأت بالفعل. فسوف يُسلم الى الموت بصفته مشاغباً سياسياً، بينما نراه، بحسب يوحنا، يؤكد هو ذاته:"ليست مملكتي من هذا العالم" (يو ١٨: ٣٦).

واثر اجتماع جديد للسنهدريم (١٥: ١) -وليس هذا الاجتماع اكثر معقولية من الاول، خلال ليلة الفصح!- يُقاد يسوع امام بيلاطس. ويسأله بيلاطس إن كان هو ملك اليهود، فيجيب يسوع متهرباً: "هو ما تقول" (١٥: ٢). وفيما يبدو بيلاطس غير مقتنع بالاتهامات الموجهة الى يسوع، نراه يسعى الى انقاذه، مغتنماً ظرفا اعتقد انه ملائم. كانت العادة ان يُطلَق سراح سجين يَطلبه الجمع بمناسبة عيد الفصح. ولما كان بيلاطس عالماً باعجاب الجمع بيسوع، راح يسألهم إن كانوا يرغبون في ان يطلق لهم يسوع "ملك اليهود". إلا ان الجمع،

بتحريض من عظماء الكهنة، طلب اطلاق سراح بارأبا، ذاك الرجل المذنب بقضية قتل ابان فتنة كانت قد اتخذت طابعا سياسيا. وفي النهاية، إذ كان بيلاطس يرغب في إرضاء الجمع، اطلق برأيا وأسلم يسوع الى الجند كي يصلب.

في هذا المشهد، لم يبق من اعداء يسوع سوى عظماء الكهنة. فهم الذين يشكونه لدى بيلاطس (١٥: ٣)، وهم ايضا الذين يثيرون الجمع كي يطلب اطلاق برأبا، وليس اطلاق يسوع (١٥: ١١). فهم إذن ارادوا موت يسوع، وهم المسؤولون عنه من ثم. ما هو، يا ترى، مضمون الشكوى عليه؟ لقد اراد ان يكون ملكا –وتلك جريمة في نظر الرومان. لايقول مرقس هذا الامر بشكل صريح، إلا اننا نستشفه من كون بيلاطس لم يطرح على يسوع سوى سؤال واحد: "أأنت ملك اليهود؟" (١٥: ٢أ). على م يستند عظماء الكهنة كي يدلوا بهذا الاتهام؟ انه يستند، من وجهة نظر مرقس، الى المحاكمة التي جرت امام السنهدريم، طالما ان يسوع اعترف بأنه المسيح، أي ملك الملكوت الجديد (١٤: ٦١-٦٢). ويلاحظ لوقا المساواة بين لقبي "المسيح" و "الملك":"وجدنا هذا الرجل [...] يقول انه المسيح الملك" (لو٢٣: ٢). ولكن دخول يسوع العلني الى اورشليم –وقد ترك الجمع يهتف له بصفته ابن داود وملك اسرائيل– كان بالحقيقة كافيا جدا لبناء اتهام في غاية الخطورة، كونه بمثابة انطلاقة فتنة. وماذا سيجيب يسوع؟ انه في موقف صعب. فأن يجيب "نعم"، فذلك يعني انه يقبل اتهام عظماء الكهنة، بما فيه، بالتأكيد، من بعد سياسي، وهذا ما رفضه يسوع دوما. اما ان يجيب بـ "لا"، فمعنى ذلك انه يتخلى عن الرسالة التي تلقاها من الله: أن يملك عوض الشيطان (وليس عوض الرومان). وكما كان يجادل في هيكل اورشليم، هوذا يسوع يتخلص بذكاء حين يجيب: "هو ما تقول" (١٥: ٢ب)، وقد يفهم جوابه بمعنى "هو أنت ما تقول". وهكذا لا يجيب يسوع، إذن، لا بالايجاب ولا بالنفي.

ويدهشنا رد فعل الجمع: قبل اسبوع كان قد هتف ليسوع بصفته ملكاً (١١: ٧-١٠)، وها هو الآن، حين سأله بيلاطس "اتريدون ان اطلق لكم ملك اليهود؟، يرفض يسوع ويطالب بان يُصلب (١٥: ٩-١٤). ومثل هذا التحول في الرأي العام يسهل فهمه. فاليهود كانوا ينتظرون محررا سياسياً: "تباركت المملكة الآتية، مملكة ابينا داود" (١١: ١٠)، ويسوع يخيب كل امالهم، طالما انه، هو ذاته، تحت حكم الرومان، مكتوف الايدي (انظر ١٥: ١). وحتى لو اطلق بيلاطس سراحه، فسيشدّد عليه الرقابة. وهكذا بدا لهم يسوع الان بصفة دجال. وكان لا بد لحماسهم السابق ان يتحول الى كراهية، معتبرين انه غشّهم. لذا فهم يطالبون بصلبه. اما بيلاطس، فهو في الواقع يهزأ بكل شيء. فماذا يمثّل يسوع بالنسبة له؟ يهوديا كسائر اليهود، إن لم يكن يهودياً مختلاً. انه، مع اعتقاده بأن عظماء الكهنة يتصرفون بدافع من الحسد، وان التهمة التي صاغوها ضدّه ليست جادّة، فلقد قام بحركة طيبة، معتقداً انه وجد حلاً مرضياً حين عرض على الجمع فكرة اطلاق يسوع: ألم يكن هذا الجمع من جانبه فيما مضى؟ إلا انه اخطأ حين سألهم: "أتريدون ان اطلق لكم ملك اليهود؟". وهكذا أسهم في الكشف عن خيبة الجمهور الذي اشتد توتّره بالاكثر. وبالتالي ماذا تساوي حياة يهودي في نظر حاكم روماني؟ انها لا تساوي بالتأكيد خطر انتفاضة شعبية! وبيلاطس إذ "اراد ان يُرضي الجمع، اطلق لهم برأبّا، وبعدما جلد يسوع أسلمه ليُصلب" (١٥: ١٥).

-٩-

موت ملك اليهود

(١٥: ١٦-١٦: ٨)

سيروي مرقس تتمة الاحداث، آخذاً بالاعتبار الموضوع الرئيس بصدد ملوكية يسوع، دون ان يتاح له دوماً التميز بين الواقع وبين شكل من التنظير في الموضوع.

"ملك اليهود" موضوع سخرية

انهم اولاً الجنود الرومان الذين، قبل ان يقتادوا يسوع ليصلبوه، يسخرون بملوكيته التي ادّعاها (١٥: ١٦-٢٠أ). انهم يلبسونه الارجوان، وهو اللون الملوكي، ويضعون على رأسه أكليلاً ضفروه من الاشواك، واخذوا يقولون باستهزاء: "السلام يا ملك اليهود"، ويجثون امامه. وبعد ان صلبوه، وضعوا فوق رأسه علّة الحكم عليه:" ملك اليهود"(١٥: ٢٦).

كان يعقوب ويوحنا، من قبلُ، قد طلبا الى يسوع: "امنحنا ان يجلس احدنا عن يمينك، والآخر عن شمالك في مجدك" (١٠: ٣٧)، وكأنهما وزيران له؛ ونرى الآن لصّين صلبا معه، "احدهما عن يمينه، والآخر عن شماله" (١٥: ٢٧).

وكان الحاضرون يسخرون بيسوع (١٥: ٢٩-٣٢). ويصف لنا مرقس المشهد، مستعيداً ما حدث ابان المحاكمة امام السنهدريم. فلقد كانوا قد شكوا يسوع لتصريحه بانه سيهدم الهيكل (انظر ١٤: ٥٨)، وها هم المارة يقولون

بسخرية: "يا ايها الذي ينقض الهيكل ويبنيه في ثلاثة ايام، خلصّ نفسك فانزل عن الصليب". وكان رئيس الكهنة قد سأل يسوع إن كان هو المسيح، وردّ يسوع بالايجاب (انظر ١٤: ٦١-٦٢). وها هم الان عظماء الكهنة مع الكتبة يقولون باعلى حناجرهم:"خلّصَ غيره من الناس، ولا يقدر ان يخلّصَ نفسه! فليترل الآن عن الصليب، المسيح، ملك اسرائيل، لنرى ونؤمن".

وهكذا يُسخَر بملوكية يسوع. إلا ان الذين يسخرون لم يفهموا شيئاً من مخطط الله الذي جاء يسوع يحققه. فملوكيته على العالم ليس لها اي طابع سياسي. انه لم يأت ليقيم الملوكية لحساب اسرائيل (انظر رسل ١: ٦)، ولم يأت ليطرد الرومان من الارض المقدسة. بل جاء ليضع حدّا لسلطان الشيطان على العالم، ولينقض سلطان الشر، وهكذا يتضح انه بموته على الصليب غلب الشر. ولقد عبّر يوحنا بشكل جذاب عن هذه المفارقة حين جعل على لسان المسيح هذا القول: "اليوم دينونة هذا العالم، اليوم يُطرد سيد هذا العالم الى اسفل[1]. وانا إذا رُفعت عن الارض جذبت اليّ الناس اجمعين" (يو ١٢: ٣١-٣٢).

ويوحي مرقس، وإن لم يقلها حرفياً، بان كل هذه الاحداث المخيبة للآمال تجري وفقاً لمخطط الله، وفقاً للاسفار المقدسة. فالجنود يقتسمون ثيابه مقترعين عليها (١٥: ٢٤)، كما كان المزمور ٢٢: ١٩ قد أعلن:"يقتسمون بينهم ثيابي ويقترعون على لباسي". والمارة يهزأون بيسوع "وهم يهزون الرأس" (١٥: ٢٩)، كما كان المزمور ٢٢: ٨ قد أعلن:"جميع الذين يرونني يسخرون بي ويفغرون الشفاه ويهزون الرؤوس".

---

(١) هذه الترجمة التي يدعمها النص الغربي، يجب أن تُفضّل على الترجمة المنافسة التي تؤدي: "يُطرد سيد هذا العالم الى الخارج".

• شدة يسوع (١٥: ٣٣-٣٤)

قبل ان يموت يسوع، لفظ الكلمات الاولى من المزمور ٢٢: "الهي، الهي، لماذا تركتني؟" (مر ١٥: ٣٤؛ انظر متى ٢٧: ٤٦). ويعلم جيداً قارئ مرقس بأن هذا المزمور ٢٢ يتواصل ليؤكد الخلاص النهائي للمزمرّ: "[الله] لم يزدرِ بؤس البائس ولم يستقبحه، ولا حجب عنه وجهه، وإذا صرخ اليه كان سميعاً" (مز ٢٢: ٢٥). وقارئ مرقس يعلم ان يسوع يجب ان يقوم في اليوم الثالث (٨: ٣١؛ ٩: ٣١، ١٠: ٣٣). انه يعلم ان كل شيء لم ينته، وان الذي ينبغي ان يملك على الارض هو يسوع القائم.

ولكن ماذا عن يسوع بالذات؟ هناك سؤال يطرح نفسه اولاً: هل تلفظ يسوع في الواقع بهذه الكلمات؟ ليس ذلك اكيداً، طالما ان مرقس (ومتى بالاخص كما رأينا) اهتم بالتشديد على ان اللحظات الاخيرة من حياة يسوع قد تمّت وفقاً لما كتب عنه في المزمور ٢٢. وهكذا استطاع ان يضع على شفتي يسوع المنازع هذه الكلمات من المزمور. إلا ان مرقس اخذ على نفسه عناء الادلاء بهذا النص بصيغته الارامية اولاً، ومن ثم بترجمته اليونانية، وهذا دليل على الاهمية الفائقة التي يعلّقها عليه. وحتى لو كانت الصيغة الادبية لكلام يسوع قد استعيرت من المزمور ٢٢: ٢ (وهذا ليس بالمؤكد)، فان مرقس يعتقد يقينا بأن هذا الكلام يعبرّ واقعيا عن شدّة يسوع الكبرى ساعة موته. فيسوع يعلم ان الله قد اختاره لكي يوطّد في الارض ملكوتاً يُطرَد منه الشر. وهو يعلم انه كان قد زرع كلام الله الذي يمكّن البشر من ان يعيشوا، بشكل افضل، في سلام، بعضهم مع بعض. وكان قد اهتم بشكل خاص بتعليم تلاميذه، كي يتمكنوا من اعلان هذا الكلام بعد موته. وها كل شيء يبدو قد تهدم! وشعب الله الجديد الذي كان ينبغي ان يكون هو ملكه، لا يمكنه ان يبنى إلا مُطَعَّماً على شعب اسرائيل، وها هو شعب اسرائيل يرفض: فرؤساؤه الدينيون قد اجتمعوا هم الاولون ضد مخطط الله، و"الجمع" ايضاً أنكر

مَلِكُه في آخر الوقت. وتلاميذه بالاخص الذين اعتمد عليهم، اولئك الذين كوّنهم بنوع خاص ليواصلوا عمله، قد هربوا جميعاً، فزعين (١٤: ٥٠). ولم يبقَ، بالقرب من الصليب، سوى بعض النساء. ويسوع، في نظر مرقس، ألم يصل به المطاف الى الشك في رسالته: ألا يكون بالتالي سوى صاحب أحلام؟" الهي، الهي، لماذا تركتني؟".

• علامة رجاء (١٥: ٣٩)

لنواصل قراءة تتمة الانجيل: "لما رأى قائد المئة الواقف تجاهه انه لفظ الروح هكذا، قال: كان هذا الرجل ابن الله حقاً" (١٥: ٣٩). ما هو بالضبط مدلول هذه العبارة؟ فلَكَم فُهمت بشكل خاطئ، وكأنها تأكيد على الوهية المسيح. إلا انها بالتاكيد تلميح الى نص حك ٢: ١٨: "فإن كان البار ابن الله، فهو ينصره وينقذه من ايدي مقاوميه". لقد فهمها لوقا جيداً، ولكي لا يذهب قراؤه في متاهة، آثر ان يكتب:" حقاً هذا الرجل كان باراً" (لو٢٣: ٤٧). انه رأى جيداً ان نص حك٢: ١٨ هو الذي لمّحت اليه عبارة قائد المئة. فلسنا إذن بازاء تأكيد على ألوهية يسوع، وانما بازاء تعبير عن يقين: الله سوف ينقذ يسوع، البار، من ايدي مقاوميه. وبأية طريقة؟ ليس بإنزاله عن الصليب، كما سخر عظماء الكهنة، وانما وفق الرؤية المنفتحة التي تضمنتها تتمة نص الحكمة: "اما نفوس الابرار، فهي بيد الله فلا يمسها أي عذاب. في اعين الاغبياء يبدو انهم ماتوا وحُسِبَ ذهابهم مصيبة، ورحيلهم عنا كارثة، لكنهم في سلام. وإذا كانوا في عيون الناس قد عوقبوا، فرجاؤهم كان مملوءاً خلوداً (حك ٣: ١-٤). فيسوع سوف ينتصر بالتالي على الموت ايضاً.

لم يكن بوسع قائد المئة ولا شك أن يرجع الى نص حك ٢: ١٨. ولكن على مَ يكون قد استند حين تلّفظَ بهذه العبارة؟ هل لانه رأى يسوع قد مات بعد ان اطلق صيحة كبيرة (آ ٣٧ و ٣٩أ)؟ لا معنى لذلك. إليكم الاحتمال الذي يمكننا ان نقدمه:

فمرقس يضع على لسان قائد المئة عبارة لم يكن بوسعه ان يقولها، الا ان بوسع قارئه ان يدرك بان يسوع ذاته استطاع ان يقولها قبل موته. وعبارة قائد المئة هذه تأتي هنا لتصلح صرخة الشدة التي اطلقها يسوع.

• القبر الفارغ (١٦: ١-٨)

في القسم الاول من الانجيل، كان إعلان ايمان بطرس في قيصرية -وقد قال ليسوع: "انت المسيح" (٨: ٢٩)- قد وجد تأكيدا له في الصوت السماوي ابان التجلي (٩: ٧). تلك هي الحال هنا ايضاً: ان اعلان ايمان قائد المئة "كان هذا الرجل ابن الله حقاً" (١٥: ٣٩) قد وجد تأكيدا له في اكتشاف القبرْ فارغاً. هناك ثلاث نساء جئن الى القبر صباح الفصح: مريم المجدلية، ومريم ام يعقوب، وسالومة. وعوض جسد يسوع، يجدن "شاباً" (هو يسوع ذاته بالنسبة الى مرقس: انظر القسم الثاني/ الباب ٧) يقول لهن: لا ترتعبن! انتن تطلبن يسوع الناصري المصلوب. انه قام وليس ههنا، وهذا هو المكان الذي كانوا قد وضعوه فيه. فاذهبن وقلن لتلاميذه ولبطرس: إنه يتقدمكم الى الجليل، وهناك ترونه" (١٦: ٦-٧). فيسوع كان حقاً ابن الله، أي انه كان محميًّاً من قبل الله، ما دام الله قد انتزعه من الموت إذ اقامه.

ويُختَم انجيل مرقس باشارة صغيرة حيرّت كل المفسرين. "فالشاب" يحمّل النسوة الثلاث رسالة الى بطرس والتلاميذ الآخرين. ولكن ماذا قال لنا مرقس: "خرجن من القبر وهربن لما اخذهن من الرعدة والدهش، و لم يقلن لأحد شيئاً لأنهنّ كنّ خائفات" (١٦: ٨)! اليكم هدف مرقس كما يبدو لنا. في هذا القسم الثاني من انجيله، كما في القسم الاول ايضاً، بدا مرقس وكأنه طاب له أن يجعل وجه التلاميذ معتماً. فحين كلّمهم يسوع عن القيامة، لم يفهموا ماذا تعني (٩: ١٠؛ ٩: ٣١-٣٢). انهم لم يستطيعوا شفاء الطفل الأخرس بسبب قلّة ايمانهم (٩: ١٨، ٢٨-٢٩). وها هم يخافون ان يرافقوا يسوع الى اورشليم (١٠: ٣٢). وحين يلقى القبض على

يسوع في الجتسمانية "تركوه كلهم وهربوا" (١٤: ٥٠). ويبدو بطرس اكثر التزاماً، فيتبع يسوع من بعيد؛ ولكن ما ان وصل عند رئيس الكهنة، فاذا به ينكر معلمه ثلاث مرات: "اني لا اعرف هذا الرجل"، وقد خاف ولا شك ان يلقى القبض عليه هو ايضاً (١٤: ٦٦-٧٢). وحدهن فقط، مريم المجدلية ومريم الاخرى وسالومة، كانت لهن الشجاعة لاتباع يسوع حتى الصليب. وهن ايضاً، الان، كما فعل التلاميذ، يهربن لانهن خفنّ! الخوف والهرب، ذلك هو ردّ الفعل المؤلم الذي اتسم به موقف كل التلاميذ، ما ان اتضح لهم مصير يسوع.

ان مرقس يعتبر قرّاءه اذكياء، وهذه هي الرسالة التي شاء ان يبلغهم اياها. ففي القسم الاول من انجيله، كان قد طاب له ان يشدد على غباء التلاميذ الذين لم يتوصلوا الى فهم شخصية يسوع الحقيقية. وهوذا بطرس، على حين غرة، يعترف ان يسوع هو المسيح. ولا يمكن ان يتم ذلك إلا بفضل وحي الهي، كما قالها متى بوضوح، وكما يمكن ان يفهمها قارئ لبيب (انظر القسم الثاني/الباب ١٠). وهكذا هي الحال في القسم الثاني. فكل التلاميذ، من دون استثناء، وبضمنهم النسوة الثلاث اللواتي بَدَوْنَ اكثر امانة، كانوا تحت سيطرة الخوف، ولذلك هربوا. الخوف والهرب! هذا كل ما كان بوسع التلاميذ ان يقدموه ليسوع في ساعة موته على الصليب! ومع ذلك، كان ينبغي لقراء الانجيل ان يتحققوا من ان رسالة المسيح قد نُقِلَت بامانة "حتى اقاصي الارض" (رسل ١: ٨)، بفضل هؤلاء التلاميذ انفسهم الذين كان الخوف قد سمّرهم. ولم يكن بالامكان ان يتحقق كل ذلك، إلا بفضل تدخل الهي. فكان ينبغي لقدرة الله (او المسيح القائم) ان تقبض على التلاميذ لتمدّهم بالشجاعة والذكاء اللذين نَقُصاهم بشكل صارخ. انها معجزة الكنيسة الناشئة التي سيرويها لوقا في سفر اعمال الرسل. ويترك مرقس لقارئه الفرصة لفهمها، كما كان قد ترك لقارئه، من قبل، فرصة ليفهم بان بطرس لم يقوَ على الاعتراف بأن يسوع هو المسيح، إلا بفضل تدخل من الله.

القسم الثالث

شخصية يسوع

استعرضنا انجيل مرقس من خلال سعينا الى ابراز اقوال يسوع واعماله. وبوسعنا الآن أن نضع تآلفاً ووحدة في نتيجة قراءتنا، محاولين فهم الفكرة التي يكون مرقس قد كوّنها عن شخصية بَطله. إلا ان هذه الفكرة ستبدو لنا مختلفة، الى حد ما، عن الفكرة التي كانت للانجيلي يوحنا. وهذا يطرح مشكلة لا يمكننا تجاهلها.

• يسوع بحسب مرقس

لا يبدو يسوع، في انجيل مرقس، يعمل وكأنه إله. ويخيل الينا انه هو ذاته يعترف بذلك، حين طلب اليه رجل غني: "ايها المعلم الصالح، ماذا اعمل لأرث الحياة الابدية؟" وها هو يجيبه: "لِمَ تدعوني صالحاً؟ لا صالحَ إلا الله وحده" (مر ١٠: ١٧-١٨). ففي خاتمة هذا الجواب نلقى صدى للصيغة التي كان اليهود يعلنون بها ايمانهم التوحيدي: فالله واحد. ويسوع، بحسب مرقس، لا يعي أنه الله. وهذا ما يبينه لنا انجيله كله.

يمكننا ان نفهم ذلك منذ مشهد العماذ على يد يوحنا المعمذان (مر١: ٩-١١). فلقد علم يسوع في ذلك اليوم انه ملك الملكوت الجديد الذي كان يبشر به المزمور الثاني، وانه ايضاً النبي الذي يتوجب عليه ان يعرّف الناس بحق الله، وفق اش ٤٢: ١-٤. وبعدئذ، لدى مشهد التجلي (٩: ٢-٨)، سينلقى يسوع الوحي بكونه النبي الشبيه بموسى والذي وعد الله ان يرسله الى شعبه (تث ١٨: ١٥-١٨)[1]. فلو كان يسوع يعي انه الله، فما معنى مشاهد الوحي هذه؟ لقد فهم ذلك يوحنا الانجيلي، وهو الذي يعتبر يسوع على وعي تام من كونه الله. لذا فهو يجري تغييراً في معطيات مشهد العماذ: فيوحنا المعمذان هو الذي

(١) انه، بحسب انجيل لوقا، يتلقى وحيا يكشف له بأن عليه ان يمرّ بالموت: وهذا التقليد قد يكون اكثر اصالة وأكثر واقعية.

يتلقى وحيا بكون يسوع مختار الله، وهو الذي يكشف ذلك للجموع (يو١: ٣٢-٣٤). لنرجع ايضا الى مشهد التراع في الجتسمانية (١٤: ٣٢ت): يسوع يستشعر —وبأية علامات، كما قلناه لدى تعليقنا على هذه الرواية- بانه سوف يسلم الى موت رهيب، سواء كان بالرجم ام بالصلب، حتى انه يرفع الى الله هذه الصلاة "أبا، يا ابت، انك على كل شيء قدير، فاصرف عني هذه الكأس". فلو عرف، بعلم إلهي، أنه سوف يقتل بالفعل، فماذا يكون معنى هذه الصلاة؟ هل انها مجرد اخراج؟ ألم يعترف يسوع بانه لا يعرف كل شيء، وقد سبق وقال انه يجهل الوقت الذي يتم فيه الحدث الاواخري (الاسكاتولوجي) (١٣: ٣٢)؟ ويبدو يسوع اخيرا، في نظر مرقس، انه يعمل، لا بفضل قوته الالهية، وانما مدفوعا بالروح الذي تلقاه في العماذ (١: ١٢). وهذا الروح ذاته يمنحه القدرة على قهر الشيطان وطرد الارواح الشريرة (٣: ٢٨-٣٠). لماذا لا يقول مرقس انه يعمل بقوته الخاصة؟ ليس ليسوع، في نظر الانجيلي، الشعور بكونه الله، وإلا أصبحت المشاهد التي عددناها خالية من كل معنى. ولكنه في نهاية حياته فقط، اخذ يفهم تلاميذه، وبطريقة لغزية الى حد ما، انه يتطابق مع كلمة الله، مع حكمته: "وهذا، اي الخبز، هو أنا" (١٤: ٢٢). ونظرا الى السياقات التي سبقت العماذ والتجلي، يمكننا الاعتقاد بأن يسوع، في حوالي نهاية حياته، تلقى وحيا بانه، بطريقة ما، كلمة الله. وهذا ما كان مرقس ولا بد يعتقده على الاقل.

كيف فهم يسوع وحقق الدور الذي كان عليه ان يلعبه في مجمل المخطط الالهي؟ لقد علم، لدى عماذه، ان الله نصبه ملكا على ملكوت جديد (مز ٢: ٧)، وفي الوقت ذاته، نبيا يجب ان يعرف بحق الله (اش ٤٢: ١-٤). وكانت نبؤة دا ٧: ١١-١٤، في العهد القديم تعلن بأن على "ابن انسان" —ذلك الشخص الذي يلفه السر- ان يتلقى من لدن الله "سلطانا ومجدا وملكا"، وان تخدمه "جميع

الشعوب والامم والألسنة". وفي وقت مبكرّ، فهم يسوع ان بوسعه ان يختص هذا اللقب، كونه الملك المشيحاني، وقد اختصه في صيغة "ابن الانسان" (٢: ١٠).

ولكن كيف نفهم هذه الملوكية؟ ما هي طبيعة هذا الملكوت الذي نُصِّب عليه رئيساً؟ كان لابد هنا من اختيار عسير رجّع صداه انجيلا متى ولوقا في الرواية التي أورداها –وقد اضفي عليها طابع لاهوتي– بشأن تجربة المسيح من قبل الشيطان (متى ٤: ٨– ١٠؛ ٤: ٥–٨). في ذلك الزمان كان شعب الله مُستَعبَداً بشكل مضاعف. لقد كان، على الصعيد السياسي، فد فَقَد استقلاله، فوُجد تحت سيطرة الرومان الذين احتلوا فلسطين بكاملها لعشرات من السنين خلت. ويسوع، لكي يوطد ملكونه، هل كان يتوجب عليه ان يرئس حركة تحرير سياسية، فيطرد الرومان الى خارج الارض المقدسة؟ كان شعب الله ينتظر مثل هذا المحرر، حتى ان التلاميذ انفسهم رجّعوا صدى هذا الانتظار، حين سألوا يسوع يوم الصعود: "أفي هذا الزمن تعيد الملك الى اسرائيل؟" (رسل ١: ٦). الا ان شعب الله كان يعاني من عبودية اخرى: لقد كان مُستَعْبداً لقوى الشر، للشيطان الذي كان يسيطر على العالم، من خلال جيش كبير من الاروح الشريرة (انظر ١يو ٥:١٩). وكان الشر قد استولى على العالم، لان العالم لم يكن يعيش وفق الشريعة الالهية، تلك الشريعة التي كان هدفها الاول ان تنظم علاقات حسن الجوار بين البشر (انظر خر ٢٠ :١٢–١٧). وكان الشيطان، من قبل، قد افسد روح البشرية حين جعلها ترى في الشر خيراً (انظر تك ٣:١–٥؛ يو٨:٤٤)!. ويسوع، لدى عماذه، وفي الوقت الذي نُصِّب فيه ملكاً، تلقى مهمة اعلان حق الله (١ش ٤٢: ١–٤). انه، وقد أناره الله، يدرك ان رسالته ستقوم في انقاذ شعب الله، ليس من الاحتلال الروماني، وانما من قبضة الشيطان. وملكوته لن يكون "سياسياً"، بل "ادبياً"، روحياً". ولكي يوطده، لم يكن عليه ان يغلب الرومان، بل الشيطان واتباعه. هل ادرك يسوع، منذ البدء، كيف يمكن لملكوته ان يتوطد على الارض؟ بوسعنا ان نتردد في الاجابة.

فلدى قراءتنا انجيل مرقس، نجد تغييراً يكاد يكون جذرياً في تصرف يسوع. انه يبادر الى التبشير بان ملكوت الله قريب (١: ١٥). ونراه يتوجه الى الجموع، فيعلمها ويشفي مرضاها. ولما كان يطرد الشياطين، ألم تكن تلك علامة على أن مملكة الشيطان في حالة انهيار؟ لقد ظن يسوع ان اليهود سوف يفهمونه، وانه سيكفيه ان يعلن حق الله كي يتبعه الشعب. وعلى هذا النحو سيكون بوسع ملكوته على الارض ان يتوطد. إلا ان الواقع كان بخلاف ذلك. فالشعب كان ينتظر محرراً سياسياً. وها قد خابت آماله. والملكوت الذي ينادي به يسوع لم يعد يهمه. ولَكَم سعى يسوع ذاته الى تبديد كل التباس: ليتجنب كل حركة شعبية عارمة (انظر يو ٦: ١٤-١٥). انه ينجز شفاءاته العجائبية بعيداً عن الجمع، ويأمر بالسكوت عنها؛ انه "السر المسيحاني"! (انظر القسم الاول / الباب ٤). لقد اصابت الخيبة الجموع، ويسوع يدرك انه لن يقوى على إقناعها البتة. لا بل بدا له الافق كله مظلماً. وتعليمه، غالباً ما كان يناقض تعليم الكتبة والفريسيين الذين عزموا على قتله (٣: ٦). ومن جهة اخرى، وبحسب دا ٧: ١٣-١٤، ٢٦، ألا ينبغي على ابن الانسان ان "يسلم الى ايدي" اعدائه (مر ١٤: ٤١)؟ ولكن، إذا مات، مَن سيحمل المشعل؟ وهوذا يسوع يتخلى عن الجموع ويتفرغ لتثقيف فرقة صغيرة من التلاميذ:"ومضوا من هناك فمروا بالجليل، و لم يُرِد ان يعلم به أحد لانه كان يعلّم تلاميذه" (٩: ٣٠). فاذا مات، فسيكون بوسع هؤلاء ان يواصلوا عمله التعليمي.

وازاء سوء فهم الجموع، يتوقع يسوع إمكانية حل يقدمه الادب الرؤيوي في التقليد اليهودي: بوسع تدخل الهي ان يقلب الوضع القائم. ومرقس حمل الينا، بالفعل، قولاً ليسوع نقله الينا، بعيداً عن سياقه الاصلي: "الحق اقول لكم، في جملة الحاضرين ههنا من لا يذوقون الموت حتى يشاهدوا ملكوت الله آتيا بقوة" (٩: ١). وبعد فترة، يعلن يسوع لتلاميذه عن خراب هيكل اورشليم (١٣: ٢) الذي يسجل خاتمة النظام القديم. كما يعلن عن إبطال العهد القديم من قبل الله،

ويجيء نظام جديد، مع ابن الانسان الآتي بقوة، مُرسِلاً ملائكته ليجمعوا كل مشتتي اسرائيل، لكي يكوّنوا شعب الله الجديد (١٣: ٢٦-٢٧). متى سيتمّ ذلك؟ في حياة هذا الجيل بالذات (١٣: ٣٠؛ كما في ٩: ١)؟ إلا ان يسوع لا يعلم الوقت المحدد (١٣: ٣٢).

وتتوالى اخيراً الاحداث بسرعة. فيسوع، فيما يكسر "السر المسيحاني" الذي حافظ عليه حتى الان باعتناء، يدع المجال للجمع كي يهتف له بصفة ملك لدى دخوله الاحتفالي الى اورشليم (١١: ٧-١٠). هل كان ينتظر من لدن الله هذا التدخل القريب الذي طالما تمناه؟ غير ان مكوثه في المدينة المقدسة، كان من شأنه ان يعقّد الامور. أمّا موقفه من الهيكل، فكان مثار حقد الطبقة الكهنوتية. واخيراً عزم عظماء الكهنة والكتبة ان يبيدوه (١١: ١٨؛ ١٢: ١٢). ويعلم يسوع بأن موته قريب. وفي مساء احد الايام، وخلال عشاء، كشف لتلاميذه، وبطريقة خفية، كيف امكنه أن يطابق حياته مع كلمة الله، وكان ذلك من شأنه أن يؤكد مصداقية التعليم الذي سلّمه لهم. هوذا يُفهمهم ايضاً بان دمه سوف يسفك ذبيحة، لابرام العهد الجديد (١٤: ٢٤) بين الله وشعبه. ثم يذهب مع تلاميذه الى بستان، الى الجتسمانية. وها ان المصير الذي يتوقعه رهيب: سيُرجم بأمر من السلطات اليهودية او يُصلب على يد الرومان. ويتضايق يسوع فيصلي الى ابيه:"أبّا، يا ابتِ انك على كل شيء قدير، فاصرف عني هذه الكأس". وبالرغم من النبوات القديمة، ألا يمكن للمخطط الالهي ان يتحقق من دون ان تجري المأساة؟ ما زال يسوع يرجو ذلك بعدُ، إلا انه يضيف على الفور:"ولكن لا ما انا أشاء، بل ما انت تشاء" (١٤: ٣٦).

وفي الغد يلقى القبض عليه، و"يسلم الى ايدي" اعدائه. فهو بالتالي يسلم الى الرومان، فيصلبونه. ويُخيَّل الى يسوع ان كل شيء ينهار. والتدخل الالهي الذي كان بوسعه ان يوطد الملكوت "بقوة"، لم يَتمّ. وحين رأت الجموع اليهودية في

اورشليم انه أُسلم الى ايدي الرومان، اصطفّت الى جانب اعدائه. وبالاخصّ تلاميذه الذين كان قد اعدّهم وسلم اليهم تعليمه، اي كلمات الله، هربوا من شدة الفزع. لم يبقَ الى جانبه سوى بعض نساء ضعيفات، ولكن لَسْن هنّ اللواتي سيحفظن المشعل. وهكذا تلاشى، إلى غير رجعة الحلم برؤية ملكوت الله يتوطد على الارض! وهوذا يسوع في قمة اليأس الذي يعبر عنه مرقس حين يضع على لسانه مفتتح المزمور ٢٢: "الهي، الهي، لماذا تركتني؟" (١٥: ٣٤).

ولكن، هل حقاً انتهى كل شيء؟ هل كانت حصيلة رسالة يسوع فشلاً كاملاً؟ لا، على الاطلاق! بعد بضعة اسابيع، هوذا الروح -ويسميه سفر اعمال الرسل روح يسوع (رسل ١٦: ٧)- يستولي على التلاميذ، فيمنحهم القوة، وسيذهبون يعلنون البشرى السارة حتى اقاصي الارض (رسل ١: ٨). فيسوع زرع بذرة الملكوت -وهي كلام الله- في قلب رسله (مر ٤: ١ت). وهؤلاء الرسل، وقد تقوّوا بالروح، سيحملون هذا الكلام بالذات الى العالم اجمع. ان يسوع طيلة حياته الارضية، وضع اسس ملكوت الله؛ وسيمنح تلاميذه، بفعل الروح، قدرة على توسيع رقعته في الارض.

• يسوع بحسب يوحنا

أنْ يكون يسوع إلهاً، وأنْ يكون عالماً بذلك، فهذا ما يكاد يجاهر به انجيل يوحنا في كل صفحة. فمنذ الافتتاحية نجدنا مشدودين الى هذه النقطة:"في البدء كان الكلمة، والكلمة كان لدى الله، والكلمة هو الله [...] والكلمة صار بشراً فسكن بيننا [...]" (يو ١: ١، ١٤). وفي نحو خاتمة الانجيل، نجد الرسول توما يصرخ، وهو يشاهد يسوع القائم: "ربي والهي" (٢٠: ٢٨). وحين يقول المسيح لليهود: "قبل ان يكون ابراهيم، انا هو" (٨: ٥٨)، فهو انما يريد ان يؤكد لهم، لا وجوده المسبَق حسب، وانما ايضاً الحق في حمل الاسم الذي اوحي من قبلُ الى موسى: "انا هو" (انظر خر ٣: ١٤؛ انظر ايضاً يو ٨: ٢٤-٢٨). لِنَرَ كيف يروي

لنا يوحنا اعتقال المسيح: "وكان يسوع يعلم جميع ما سيحدث له، فخرج وقال لهم: مَن تطلبون؟ اجابوه: يسوع الناصري. قال لهم: أنا هو [...] فلما قال لهم: انا هو، رجعوا الى الوراء ووقعوا الى الارض" (١٨: ٤-٦). ان عظمة الاسم الالهي هي التي تطرح الى الارض اولئك الذين جاءوا يقبضون على المسيح (انظر يو ١٠: ١٧-١٨). في دا ٧: ١٣-١٤، يصعد ابن الانسان من الارض الى الله؛ وفي يو ٣: ١٣، هوذا ابن الانسان قد نزل من السماء طالما انه الكلمة المتجسّدة (انظر ٦: ٤١). انه نزل لكي يقول لنا ماذا رأى لدى الاب (٨: ٣٨). انه في الوقت ذاته في حضن الاب، وفي ما بيننا، لكي يحكي لنا ما يراه (١: ١٨). وحين سيترك هذا العالم، فذلك لكي يجد لدى الاب المجد الذي كان له من قبل ان يكون العالم (١٧: ٥). لقد خرج من الله، وسيعود يوماً الى الاب: "خرجت من لدن الاب وأتيتُ الى العالم. اما الان فاني اترك العالم وامضي الى الاب" (١٦: ٢٨). ومن السهل ان نكثر الامثلة.

يبدو لنا يسوع، بحسب يوحنا، انه كلمة الله المتجسدة الذي يخاطبنا ويعمل في وسطنا، اكثر بكثير مما يبدو انساناً شبيهاً بنا.

• وعي متدرج

هل كان الامر دوماً على هذا النحو في التقليد اليوحناني؟ بامكاننا أن نشك. فان معظم ذوي الاختصاص في الدراسات اليوحنانية يقرون بأن انجيل يوحنا لم يوضع دفعة واحدة، وان وراءه سابق تاريخ طويل. لقد كان هناك سؤال مطروح: هل كانت الوهية المسيح مُعلنَة منذ اقدم المستويات في تأليف الانجيل؟ لا يبدو الامر كذلك[1].

(١) كنا قد توسعنا في الاراء التالية، في كتابنا "موسى، أم يسوع؟" لوفان ١٩٨٨. ولكن يجب ان يؤخذ بعين الاعتبار ما كتبناه في الفصل الاخير منه.

فيسوع لم يكن يبدو أولاً الا بمثابة النبي الشبيه بموسى الذي تكلم عنه تث ١٨: ١٥-١٨. إلا ان نصوصاً من العهد القديم كانت تؤكد بان الله كان مزمعاً ان يرسل الى العالم حكمته (سي ٢٤: ٨؛ انظر مثل ٨: ٣١) او كلمته (اش ٥٥: ١٠-١١) لكي يعلّم البشر كيف يجب ان يعيشوا في العالم. ويسوع نفسه، ابان العشاء الاخير الذي تناوله مع تلاميذه، قد ماثل نفسه بشكل ما مع كلمة الله، هذه التي جاءت الى العالم (مر ١٤: ٢٢، وقد رجّع صداه يو ٦: ٣٥). فالتقليد اليوحناني لم يقم سوى بتنسيق هذه المعطيات المستقاة من العهد القديم، ولكنه تضمّن أيضاً كشفاً كبيراً أسَرَّ به المسيح. وقد قام هذا التقليد بذلك، مستنيراً بالروح، كما يلمّح إليه المسيح اليوحناني هو ذاته: "لا يزال عندي اشياء كثيرة اقولها لكم، ولكنكم لا تطيقون الان حملها، فمتى جاء هو، أي روح الحق، ارشدكم الى الحق كله" (١٦: ١٢-١٣). فما عسى يكون هذا "الحق كله" سوى التأكيد بان يسوع هو الله. وفي المنظار اليوحناني، لم يكن بوسع يسوع ان يكشف ذلك لتلاميذه، والا لكان أُتّهم بالتجديف، ورُجِمَ بالتالي.

من جهة اخرى، لدينا البرهان على ان هذا الوعي بالوهية المسيح، في الاوساط اليوحنانية، لم يتم الا تدريجياً، وفي وقت متأخر نسبياً (حوالي الاعوام ٨٠-٩٠). وهذه الالوهية، نراها معلنة بشكل واضح في آخر الرسالة الاولى ليوحنا: "**ونعلم ان ابن الله اتى، وانه اعطانا بصيرة لنعرف بها الحق. ونحن في الحق إذ نحن في ابنه يسوع المسيح، هذا هو الاله الحق والحياة الابدية**" (**١ يو ٥: ٢٠**). **فيسوع المسيح هو اذن "الاله الحقيقي". وهذا تأكيد واضح على الوهيته. ولكن لنقرأ يو ١٧: ٣: "والحياة الابدية، هي ان يعرفوك، انت الاله الحق وحدك، ويعرفوا الذي ارسلته يسوع المسيح**". هذان النصان مرتبطان احدهما بالاخر، كما تدل على ذلك مفرداتهما المشتركة (وقد وضعنا تحتها خطا). إلا ان نص الانجيل يناقض نص الرسالة. فبصدد الاله الحقيقي، يتضح انه لا يوجد

سوى اله واحد، وفقاً للتوحيد اليهودي. ويسوع المسيح ليس سوى مُرسَله الى العالم. فبالنسبة الى مسيحي من أصل يهودي، وحتى في مثل هذا الزمن المتأخر، أن يقال "يسوع هو الله"، اي ان انساناً هو الله، فذلك تجديف لا يُحتَمل. وقد ادّت مسألة معرفة ما إذا كان يسوع إلهاً ام لا، الى شقاق في الاوساط اليوحنانية عكسته الرسالة الاولى (١ يو٢: ١٨-١٩).

ومن المفيد أن نعلم ايضاً بان المسألة ذاتها كانت مطروحة في الاوساط البولسية. نقرأ في الرسالة الى طيطس:"نحن ننتظر السعادة المرجوة وتجلي مجد الهنا العظيم ومخلصنا يسوع المسيح الذي جاد بنفسه من اجلنا ليفتدينا من كل إثم..." (طي ٢: ١٣-١٤). ونجد ان لقب "الله" قد أُعطِيَ ليسوع، ومن دون معارضة. ولنقرأ من ثم هذا النص الاخر من ١طيم ٢: ٥-٦: "لان الله واحد، والوسيط بين الله والناس واحد، وهو انسان، اي المسيح يسوع الذي جاد بنفسه فدى لجميع الناس". فالسياق هو ذاته: المسيح جاد بنفسه من اجلنا. الا ان النص الثاني يُنكر ما اكدّه النص الاول: فبعد تشديده على التوحيد العزيز على اليهودية، يوضّح بان يسوع ليس سوى انسان. إلا ان هذين النصّين ليسا بالتأكيد من يد بولس، وانما من تلاميذه، وكلاهما متأخران (حوالي عام ٨٠). ففي الاوساط البولسية، كما في الاوساط اليوحنانية، كان احتجاج بشأن نسبة لقب "الله" الى المسيح.

• أي يسوع؟ بحسب مرقس ام يوحنا؟

هناك سؤال اخير يطرح ذاته: ايهما اكثر "واقعية"، هل هو يسوع بحسب مرقس، ام يسوع بحسب يوحنا؟ يسوع الانساني بحسب مرقس، ام المسيح في المجد، المحاط بهالة، كما قدمه لنا يوحنا؟ ان يسوع بحسب مرقس هو وحده يلتقي مع ما يقوله لنا عنه نشيد قديم نقله بولس في رسالته الى اهل فيلبي (٢: ٦-٨):

٦. فمع انه في صورة الله، لم يعد مساواته لله غنيمة.

٧. بل تجرد من ذاته، متخذا صورة العبد، وصار على مثال البشـــر وظـــهر في هيئة انسان.

٨. فوضع نفسه واطاع حتى الموت موت الصليب.

ملحق

في

الإفخارستيا

حين حلّلنا رواية تأسيس الافخارستيا في مر ١٤:٢٢ -٢٥، رأينا ان الموضوع يدور حول كشف مضاعف قام به يسوع يتعلق، من جهة، بشخصيته الحقيقية، ومن جهة أخرى بإقامة العهد الجديد المبرم بدمه. ويبدو ان هذا الحدث اصبح في كنيسة انطاكيا، بشهادة بولس ولوقا، بمثابة رتبة "سرّية" سوف تجد امتدادها في الكنيسة. هل كانت كنيسة انطاكيا التي جعلت منه سرّاً، غير أمينة لفكر المسيح؟ وكيف فهمت الكنيسة في القرون الخمسة الأولى هذه الرتبة السرّية؟ تلك هي الاسئلة التي لابد من ان نجيب عنها الآن.

التقليد الانطاكي

في رسالته الاولى الى القورنثيين (١١: ٢٣ -٢٦) اعطى بولس لقرائه رواية عن تأسيس الافخارستيا، موازية للرواية التي نقرأها في مر ١٤: ٢٢-٢٥، ولكنها تحمل نبرة مختلفة الى حد ما. فهو يبدأ روايته بهذه الكلمات: "تسلمت من الرب ما سلمته إليكم، وهو ان ..". فبولس لا يستنبط إذن شيئا، وانما جل ما يفعله هو انه يسلم ما تسلمه من الرب. وهناك إجماع في الاعتقاد بأن الأمر يتعلق بنص ليتورجي كانت تتداوله كنيسة انطاكيا.

• الكلام على الخبز

ولكي يتسنى لنا ان نقارن بين الروايتين، لنثبت، تباعاً، الكلام على الخبز كما نقرأه اولاً في مر ١٤: ٢٣ (مع الاحتفاظ بحرفية النص اليوناني)، ومن ثم في ١ قور ١١: ٢٣- ٢٤:

"وبينما هم يأكلون، بعد ان اخذ خبزاً، وبعد ان تلا البركة، كسر[هُ] واعطاهم [اياه] قائلاً: خذوا، هذا هو جسدي".

"الرب يسوع، في الليلة التي أُسلِم فيها، اخذ خبزاً، وبعد ان شكر كسر[هُ] وقال: هذا هو جسدي [إنه] من اجلكم. اصنعوا هذا لذكري".

وكلام يسوع على الخبز، نقرأه ايضاً في لو ٢٢: ١٩ب، وبصيغة تكاد تكون مطابقة: "هذا هو جسدي الذي يبذل من اجلكم، اصنعوا هذا لذكري".

فبحسب تقليد بولس/ لوقا تتميز هذه الرواية عن الرواية بحسب تقليد مرقس/متى، بعدد من التفاصيل، مما يُضفي عليها معنى مختلفاً الى حدّ ما.

+ ان فعل "كسر" لا تليه عبارة "واعطاهم [اياه]"، مما يجعله اكثر بروزاً. فأهمية الحركة التي تقوم في "كسر" الخبز، تظهر بالفعل في الصيغة التي استخدمها بولس من قبلُ في ١٠: ١٦ "الخبز الذي نكسره". وفي التقليد اللوقاوي ايضاً، كان يطلق على الليتورجيا الافخارستية عبارة "كسر الخبز" (لو ٢٤: ٣٥؛ رسل ٢: ٤٢؛ انظر رسل ٢: ٤٦؛ ٢٠: ٧، ١١).

+ وان لصيغة "هذا هو جسدي" ولا شك، عين المعنى الذي لها في نص مرقس: فليس المقصود، إذن، جسد المسيح بالتضاد مع نفسه، وانما شخصه بالذات. ذلك لأن الخبز المكسور يمثّل المسيح الذي سوف يموت في مستقبل قريب جداً. وهذا ما تقوله خاتمة النص في الآية ٢٦: "كلما أكلتم هذا الخبز وشربتم هذه

الكأس، تعلنون موت الرب الى أن يأتي". ونلاحظ ان بولس يكتب: "كلما أكلتم هذا الخبز"، وليس "كلما أكلتم جسدي"؛ فبالنسبة إليه، كما بالنسبة الى مرقس، لم يتحول الخبز فيزيائياً الى جسد المسيح، بل بقي كما كان: خبزاً. وهكذا نجدنا على مستوى الرمز.

+ يواصل بولس الكلام على الخبز بإضافة عبارة "[انه] من اجلكم"، او كما يوضحه لوقا بالأكثر: "الذي يبذل من اجلكم". فاذا كان المسيح مزمعاً ان يموت، فسيكون ذلك من اجل المسيحيين. والصيغة هنا تبقى غامضة الى حد ما؛ وغالباً ما نجدها لدى بولس في رسائل أخرى (١ تس ٥: ١٠؛ ١ قور ١: ١٣؛ غلا ٢: ٢٠ الخ ...). اما في ١ قور ١٥: ٣، وبصيغة مستمَدّة من الكرازة الاولى، يوضح بولس ان "المسيح مات من اجل خطايانا كما في الكتب" (انظر غلا ١: ٤). فلقد مات، إذن، كي يغفر الله لنا خطايانا.

+ ويضيف بولس أيضاً بمثابة خاتمة: "اصنعوا هذا لذكري". فالرتبة التي وضعها المسيح، سيترتب على المسيحيين ان يتبنّوها، ولذلك اصبح بوسع بولس ان يقول في الآية ٢٦: "كلما أكلتم هذا الخبز [...]".

لقد كان تعبير"هذا [الخبز] هو أنا"، بالنسبة الى المسيح، بمثابة إعلان هوية، كون الخبز رمزاً لكلام الله. وهذا التعبير ذاته اصبح، بالنسبة الى بولس ولوقا، تفسيراً لحركة رمزية، كما كان الأنبياء يفعلون في الماضي: يسوع يكسر الخبز، وهذه الحركة تُصوّر مسبقاً مصيره الشخصي؛ انه "سيُكسَر" ويُقتَل، وسيكون لهذا الموت قيمة خلاصية: "من أجلكم". وفيما احدث التقليد الانطاكي هذا التغيير، هل يكون قد ادخل عنصراً غريباً على فكر يسوع؟ لا، بالتأكيد. فلقد رأينا في التقليد المرقسي/ المتاوي، كيف كانت الخمر ترمز الى دم المسيح الذي "سيُراق" ذبيحة، كي يُختَم العهد الجديد. وهكذا لن يكون التقليد الانطاكي قد فعل سوى انه شمل "جسد" المسيح بما كان يسوع ذاته قد قاله عن دمه. ويُظهر نص بولس

ذلك بوضوح حين يحذف من كلام يسوع على الكأس الخاتمة القائلة "الذي يـــراق من أجل جماعة الناس". وكان بوسع هذا التقليد الانطاكي، في الواقع، ان يستند الى كلام يسوع الوارد في مر ١٠: ٤٥: "ابن الانسان لم يأت ليخدم بل ليخدم ويفدي بنفسه جماعة الناس"[١].

• الكلام على الكأس

لنثبت هنا ايضا، على التوالي، نص مرقس، ومن ثم نص بولس، لكي يتسنى لنا ان نقارنهما:

" ثم أخذ كأسا، وبعد ان شكر، ناولهم [اياها]، فشربوا منها كلهم، وقـال لهم: هذا هو دمي للعهد الذي يراق من أجل جماعة الناس".

"وكذلك [اخذ] الكأس بعد العشاء قائلا: "هذه الكأس هي العهد الجديـد بدمي، كلما شربتم منها، فاصنعوه لذكري".

ان الموضوع الرئيس لدى بولس، كما لدى مرقس، بالرغم من الاختـــلاف الطفيف بينهما في التعبير، هو موضوع العهد المبرم بين الله وشعبه، العهد المختـــوم بدم المسيح. فالنص الذي يثبته مرقس يلمح، كما سبق وقلنـــا، إلى خـــر ٢٤: ٨ والذي يروي إبرام العهد القديم في سيناء. اما النص الذي يورده بولس، فمع حديثـه عن العهد الجديد، يضيف تلميحا إلى ار ٣١: ٣١: "ها انها تأتي ايام، يقول الـــرب، أقطع فيها مع بيت إسرائيل عهدا جديدا". وعلى م يقوم هذا العـــهد؟ "اني اجعـــل شريعتي في بواطنهم واكتبها على قلوبهم" (٣١: ٣٣). وكما هي الحال في رواية خر ٢٤، يتعلق الأمر دوما، بالنسبة الى شعب الله، بحفظ الشريعة الالهية، أي الكلمـــات

---

(١) هناك العديد من المؤلفين يرفضون بالفعل ان ينسبوا هذا الكلام إلى يسوع.

العشر؛ إلا ان هذه الشريعة ستكون محفورة، لا على ألواح من حجر من بعدُ، وانما في قلب البشر بالذات، لكي يطبّقوها.

والصيغة التي يثبتها بولس (ولوقا): "هذه الكأس هي العهد الجديد بدمي"، فهي تبدو اقل دقة من صيغة مرقس (ومتى): "هذا [الدم] هو دمي للعهد". ويقال غالباً ان الصيغة البولسية هي أقدم من صيغة مرقس التي نُسّقت على غرار الكلام على الخبز. إلاّ ان هذه المقولة ليست اكيدة. لنَعُد الى النص كما يُقرأ في متى ٢٦: ٢٧-٢٨: "ثم اخذ كأساً، وبعد ان شكر، ناولهم [اياها] قائلاً: اشربوا منها كلكم، فهذا هو دمي للعهد [...]". وتبدو الواقعية هنا مدهشة: التلاميذ مدعوون الى شرب دم المسيح. وكان من شأن هذه الصيغة ان تصدم المسيحيين من أصل يهودي (وحتى من أصل وثني ايضاً)، نظراً إلى التحريم الكتابي بشأن شرب الدم (انظر القسم الثاني/الباب ٦). ألم يكن مرقس (أو مصدره)، بدافع التخفيف من هذه الواقعية، قد حوّل مكان هذا القول "اشربوا منها كلكم" إلى ما قبل عبارة "وقال لهم: هذا هو دمي للعهد [...]"، وجعلها في صيغة: "وشربوا منها كلّهم[1]"؟ أوَليس بدافع الهدف ذاته، غيّر التقليد الانطاكي النص الأصلي؟

يتوجب علينا الآن ان نرى كيف فسرّ التقليد المسيحي، في الاجيال الخمسة الاولى، هذه النصوص المتعلقة بتأسيس الافخارستيا. وسنبدأ أولاً بمساءَلة معطيات الليتورجيا، ومن ثم نصوص آباء الكنيسة بالذات.

---

(١) في انجيل مرقس تبدو الآية ٢٤ خارجة عن السياق، طالما انها جاءت بعد عبارة "فشربوا منها كلهم". وغالبا ما يستند المفسرون إلى هذه الظاهرة الادبية للافتراض بأن التقليد المرقسي القديم لم يكن يتضمن الكلام على الخمر كما جاء في الآية ٢٤. وكنّا نحن ايضا، ولفترة طويلة، قد تبنّينا هذه النظرية، إلا انها تبدو لنا الآن اقل احتمالاً.

المعطيات الليتورجية

ان "التقليد الرسولي" لهيبوليت الروماني، يقدم لنا، هو الآخـــر، الليتورجيـا الافخارستية، كما كان يُحتَفل بها في روما في النصف الاول من القـرن ٣. كـان يُحتفل بهذه الليتورجيا باليونانية، إلا اننا لا نملك منها سوى ترجمة لاتينية. وإليكـم نص "دعوة الروح القدس" (épiclèse)، وهي صلاة الطلب التي كانت تشـكّل القسم الرئيسي من هذه الليتورجيا[1]. وكان المترجم اللاتيني قد أدخل عليها جملتين تفسيريتين نضعهما بين قوسين [ ]:

"حينذاك سيحمل الشمامة الانجيليون التقدمة إلى الاسقف، وهـو يرفـع الشكر على الخبز كي يكون رمزا [باليونانية: antitypos] لجسـد المسـيح، وعلى كأس الخمر الممزوجة، كي يكون صورة [باليونانية: homoiôma] الـدم الذي سفك من اجل كل الذين يؤمنون به".

ونجد فيها، من دون عناء، نص الرواية الانجيلية كما نقرأها في مرقس: "بعـد ان اخذ خبزا، وبعد ان تلا البركة [...] قال [...] هذا هو جسدي [...] ثم اخـذ كأسا، وبعد ان شكر قال [...] هذا هو دمي للعهد، يراق من أجل جماعة الناس".

هكذا فسرت،إذن، كلمات المسيح بمعنى ان الخبز والخمر لا يتحولان ماديـا إلى جسد ودم المسيح، وانما يصبحان بالأحرى "صورة" (antitype) او "شـبه" جسد ودم المسيح. فليس هناك تحول مادي، وانما بالأحرى "مشابهة". لذا يلزم النص

---

(١) كانت تتلى بعد التذكير بكلمات المسيح التي بها أسس الافخارستيا. وسوف نسـتخدم، على مدى هذا العرض، هذه اللفظة "épiclèse" (وترجمتها "دعوة الروح القدس").

وقت التناول: "حين يكون [الاسقف] قد كسر الخبز، سيقول وهو يعرض كل قطعة: [خبز السماء في المسيح يسوع]". فالخبز الافخارستي ذاته لا يزال خبزاً.

و"القوانين الرسولية" (٦: ٣٠، ٢ و ٧: ٢٥، ٤) التي ترتبط بـ "التقليد الرسولي" لهيبوليت، تؤكد استخدام لفظة "antitypos" (صورة). وهذه اللفظة ذاتها مستخدمة في الشرق ايضاً، في حوالي نهاية القرن ٤، وعلى لسان كاتبين مختلفين. كتب مكاريوس من مصر (توفي عام ٣٩٠): "يُقرَّب في الكنيسة خبز وخمر، وهما صور [antitypoi] لجسده ودمه. واولئك الذين يقبلون روحياً ما يبدو خبزاً، فهم انما يأكلون جسد الرب[١]". وكتب اسطاثيوس الانطاكي: "بالخمر والخبز نعلن صور [ta antitypa] العناصر الجسدية [tôn sômatikôn] للمسيح[٢]. اما لفظة "شبه" (homoiôma)، فنجدها مثبتة لدى سيرابيون من Thmuis في مصر (توفي في نحو العام ٣٦٢): "قدّمنا لك هذا الخبز، وهو شبه [to homoiôma] جسد المولود الوحيد [...]؛ وقدّمنا لك الكأس، وهي شبه [to homoiôma] الدم [...]". ولنذكر ايضاً اوسابيوس القيصري (توفي عام ٣٣٩): "لقد اعطى، هو ذاته من جديد، لتلاميذه، رموز [ta sumbola] التدبير الالهي، وأمرهم ان يصنعوا صورة [eikona] جسده بالذات[٣]".

ونجد مثل هذه التعابير في الغرب ايضاً. فالليتورجيا الموزارابية (mozarabe) تحتوي على هذه الصلاة: "لقد أمرت بأن يُقرَّب لك [...] شبه [similitudinem] جسد ودم الرب، ابنك". وحين شاء ترتليانس ان يبرهن على حقيقة جسد المسيح، شرح الكلمات الافخارستية بالشكل التالي: "ولما اخذ الخبز

---

(١) موعظة ٢٧: ١٧؛ الآباء اليونان ٣٤، حقل ٧٠٥.
(٢) في الامثال ٩: ٥؛ الآباء اليونان ١٨، حقل ٦٨٤-٦٨٥.
(٣) Dem. Evang. ٨؛ الآباء اليونان ٢٢، حقل ٥٩٦.

ووزعه على التلاميذ، جعل منه جسده قائلا: هذا هـــو جســـدي، أي [صـــورة] (figura) جسدي. وفي الواقع، لن تكون هناك صـــورة، لـــو لم يكـــن الجســـد حقيقيا[1]". ويعطينا امبروسيوس[2] النص ذاته للصلاة الافخارستية الـــتي بموجبـــها تضحي التقادم المقربة صورة [figura] جسد ودم المسيح. ويدور الكلام ولا شك عن الخبز والخمر قبل تكريسهما. وهكذا هي الحال مع اوغسطينس الذي كتـــب: "سلم [المسيح] وأعطى صورة [figuram] جسده ودمه[3]".

فبأي معنى يصبح الخبز والخمر، بعد دعوة الروح القدس، "صورة" او شـــبها لجسد المسيح ودمه؟ لا يقول التقليد الرسولي لهيبوليت شيئا في هذا الصـــدد. إلا ان الايكولوجيا لسيرابيون هي اكثر وضوحا. ففي الفصل ١٣: ١، هناك صـــلاة اولى تقول هكذا: "قربنا لك هذا الخبز، وهو شبه [to homoiôma] جسد المولـــود الوحيد"؛ ومن ثم في الفصل ١٣: ١٥، هناك صلاة جديدة تعطينا المفتـــاح لفـــهم هذا "الشبه":

"ايـــها الالـــه الحـــق، ليـــأت كلمتـــك (logos) المقـــدس ويســـكن [epidèmèsato] في هذا الخبز، لكيما يصبح الخبز جسد الكلمة، ويســـكن في هذه الكأس، لكيما تصبح الكأس دم الحق".

ولأن الخبز، وهو لا ينفك خبزا، يقبل الكلمة، فلذلك يصبح "جسد" الكلمة. ولما كان العديد من الكتاب القدامى قد فهموا التجسد بكونه مجـــيء الكلمـــة في جسد، لذا نفهم كيف كان بوسع الخبز الافخارستي ان يمنح بمثابة "صورة" لجســـد المسيح: فالخبز الافخارستي وجسد المسيح يحتويان كلاهما على كلمة الله.

وسنرى الآن كيف ان مثل هذا المنظور للافخارستيا نجده في تقليد الآباء.

---

(١) ضد مرقيون ٤، ٤٠، ٣؛ CC١/ ٦٥٦.
(٢) في الاسرار: ٤.
(٣) في المزامير ٣: ١؛ الآباء اللاتين ٣٦، حقل ٧٣.

معطيات آباء الكنيسة

• يوستينس الشهيد (حوالي ١٥٠-١٦٠)

في الحوار ٧٠: ٤، نقرأ بوضوح ان رمزية الافخارستيا مرتبطة بالتجسد. فبعد ان أورد يوستينس نص اش ٣٣: ١٦ حيث نقرأ ان "الخبز يعطى له"، أضاف:

"انه يتحدث ايضا في هذه النبوة عن "الخبز" الذي أمرنا مسيحنا ان نصنع، تذكارا لما أصبح جسدا [eis anamnèsin tou sesômatopoièsthai auton] لمن يؤمنون به [...]، وعن الكأس التي، تذكارا لدمه، أمرنا ان نصنع بدافع الشكر".

ويصبح الموضوع أكثر وضوحا في ١ دفاع ٦٦: ١-٣:

"ذلك لأننا لا نتقبل هذه الأشياء وكأنها خبز اعتيادي [antos koinos] أو شراب اعتيادي، وانما:

كما انه بفضل كلمة (logos) الله
كان ليسوع المسيح مخلصنا الذي صار جسدا [sarkopoièthei]
جسد ودم من اجل خلاصنا،
هكذا الغذاء الافخارستي، بفضل صلاة خاصة،
يصبح الكلمة (logos) الذي يأتي منه
وقد تغذى، بالتمثل، دمنا ولحمنا منه
أي من يسوع الذي صار جسدا [sarkopoièthento]
يصبح (الكلمة) جسدا ودما
وهذا ما تعلمناه".

يبدأ يوستينس، إذن، فيؤكد اننا لا نعتبر الخبز والخمر الافخارستيين بمثابة خبز وخمر "اعتياديين". فالنفي لا يتناول كلمتي "الخبز" و "الخمر"، وانما صفة "الاعتيادي". وكما سنرى مرارا في النصوص المتأخرة، يبقى الخبز والخمر الافخارستيان خبزا وخمرا، ولكنهما لن يعودا اعتياديين: فلقد أضفي عليهما بعد جديد.

إلا ان تفسير لفظة "كلمة" (logos) بشأن الخبز والخمر، فهو من الصعوبة بمكان. ويتم تفسيرها في الغالب بكونها الكلمة التي قالها يسوع على الخبز والخمر. ولكن يجب ان نفهمها بالمعنى الكريستولوجي العميق (أي على مستوى لاهوت المسيح). فهناك، بالفعل موازاة شديدة، بين العبارات التي تتحدث عن التجسد، والعبارات التي تتحدث عن الافخارستيا. وهكذا يمكن ان نعتبر بأن للفظة "كلمة" (logos) معنى واحدا في مجموعتين من الجمل؛ فالأمر يتعلق، إذن، بكلمة الله، في كلتا المجموعتين. وان عبارة"الكلمة الذي يأتي منه" [logou tou par' autou]، لها ما يوازيها في ١ دفاع ٣٢: ٨ حيث ورد: "البشر الذين يسكن فيهم البذار الآتي منه، أي الكلمة" [to para tou Theou sperma, ho logos].

ويقيم يوستينس موازاة بين التجسد والخبز الافخارستي: فكما ان الكلمة (logos) جاء بجسد في وقت التجسد، هكذا جاء ايضا في الخبز الافخارستي. هناك، إذن، مشابهة بين "الجسد"، أو بالأحرى، بين جسد المسيح والخبز الافخارستي.

• ايريناوس اسقف ليون (توفي حوالي ٢٠٠)

هناك نصان متكاملان يجب أن نركز عليهما الانتباه. في الاول (ضد الهرطقات ١٨: ٥)[1]، يدافع ايريناوس عن الفكرة التي بموجبها ينبغي ان يكون لأجسادنا ("اللحم")، نصيب في الحياة الابدية: "كيف يمكنهم ان يقولوا ان الجسد (اللحم) يذهب الى الفساد وليس له نصيب في الحياة، في حين انه قد اغتذى بجسد الرب ودمه؟ ويتابع ايريناوس:

"أما بالنسبة لنا، فان طريقتنا في التفكير تلتقي مع الافخارستيا، والافخارستيا بدورها تؤيد طريقتنا في التفكير. ذلك لأننا نقدم له ما هو له، معلنين بارتياح شركة الجسد والروح واتحادهما: فكما ان الخبز الذي يأتي من الارض، لم يعد، بعد ان تلقى مناداة الله [دعوة الروح القدس]، خبزا اعتياديا [koinos artos]، وانما افخارستيا مكونة من عنصرين، أحدهما ارضي والآخر سماوي، هكذا أجسادنا التي تشارك في الافخارستيا، لن تكون قابلة الفساد طالما ان لها رجاء القيامة".

ويعود ايريناوس الى الموضوع ذاته الذي عبر عنه يوستينس: بعد دعوة الروح القدس، لن يعود الخبز خبزا اعتياديا، ولكنه ما يزال خبزا، خبزا خاصا، مكونا من عنصرين، أحدهما ارضي والآخر سماوي. فالعنصر الارضي هو ولا شك الخبز الذي، كما قلنا، لم يفقد خاصية الخبز. فما هو إذن العنصر السماوي؟ ويجيب ايريناوس، في كتابه "ضد الهرطقات" (٥: ٢،٢)، مدافعا عن الفكرة التي بموجبها

---

(١) الترجمة التي نثبتها هنا مأخوذة عن طبعة الكتابين الرابع والخامس لايريناوس بعنوان "ضد الهرطقات" والتي تمت بادارة ادلان روسو في سلسلة "المصادر المسيحية" (الأعداد ١٠٠ و ١٥٢)، باريس ١٩٦٥ و ١٩٦٩.

ينبغي "لجسدنا" ان يشارك في الحياة، طالما انه يتلقى جسد المسيح ودمه. لنثبت فقط بداية برهانه:

"فإذا كانت الكأس التي مزجت، والخبز الذي أعد يتلقيان كلمة الله ويصبحان افخارستيا، اعني دم المسيح وجسده، وإذا كان جوهر جسدنا يتقوى بهما ويثبت ..."

ويواصل ايريناوس في ما بعد:

"وكما ان خشب الكرمة المغروس في الارض، في الوقت المناسب، أعطى ثمرا، وحبة الحنطة التي سقطت في الارض وفسدت، نبتت بفضل روح الله واصبحت مفيدة للبشر، وكلاهما، بعد ان تلقيا كلمة الله، اصبحا افخارستيا، أي جسد ودم المسيح، هكذا ايضا اجسادنا التي تغتذي بهما، ما أن وضعت في الارض وفسدت فيها، وإذا بها تنهض في الوقت المناسب، لأن كلمة الله تمنحها القوة".

فالعنصر السماوي المضاف الى العنصر الارضي، في الخبز الافخارستي، هو إذن كلمة (logos) الله. ولذلك يستطيع ايريناوس ان يقول: بوسعنا ان "نأكل ونشرب كلمة الله، خبز الخلود" (٤: ٣٨، ٢).

وانطلاقا من يو ١: ١، ١٤ يتصور ايريناوس التجسد على مثال يوستينس: المسيح أصبح ما أصبح، بالكلمة (logos) التي جاءت في "الجسد"، لا بل في جسد (ضد الهرطقات ٣: ١٨، ١، ٧). هناك، إذن، وجه شبه بين الخبز الافخارستي وبين جسد (أو بشرية) المسيح: فكما ان جسد المسيح، مع بقائه "جسدا"، تلقى كلمة الله، هكذا يتلقى الخبز الافخارستي، من بعد دعوة الروح القدس، كلمة الله فيه، مع بقائه خبزا. ويمكننا بالتالي ان نقول ان الخبز الافخارستي هو "صورة" لجسد المسيح، طالما انه تلقى كلمة الله فيه، تماما كما هي الحال بالنسبة الى جسد المسيح.

لا غرو ان ايريناوس لم يقل قط ان الخبز الافخارستي هو "صورة" جسد المسيح؛ ومن المحتمل ألا تكون هذه الصيغة واردة في الصلوات الليتورجية في زمانه.

• كليمنتس الاسكندري (توفي قبيل عام ٢١٥)

إليكم ما كتبه كليمنتس، في كتابه "المربي"[١]، في مقطع يتحدث فيه عن استخدام الخمر الذي لم يحتقره المسيح ذاته:

"وبالفعل، وبطريقة المماثلة، يمزج الخمر بالماء[٢]، كما يمتزج الروح مع الانسان: فالواحد يغذي من اجل الايمان، وهو المزيج (الماء والخمر)؛ والآخر يقود إلى عدم الفساد، وهو الروح؛ ومزيج الاثنين بدوره، اعني الشراب والكلمة، يسمى الافخارستيا، وهي نعمة ينبغي الشكر على جمالها: فالاشتراك فيها بالايمان يقدس الجسد والنفس، هذا المزيج الالهي، أي الانسان، وقد شاءت ارادة الله أن يمتزج فيه، وبشكل سري، الروح والكلمة[٣]. ويصح فعلا القول بأن جعل الروح متحدا بالنفس، وهو الذي يسندها، كما جعل الجسد متحدا بالكلمة، هذا الجسد الذي بسببه "صار الكلمة جسدا".

ليس من السهل فهم فكر كليمنتس الاسكندري. لنتوقف هنا فقط على الجملة التي تتعلق بالافخارستيا: "مزيج الاثنين، أعني الشراب والكلمة، يسمى الافخارستيا". "فالشراب" ليس سوى مزيج الخمر والماء اللذين سيصبحان افخارستيا. وإذا تحدث كليمنتس عن "مزيج"، فلأن الخمر تبقى خمرا، فتأتي الكلمة

---

(١) ٢: ٢٠ كليمنتس الاسكندري: المربي، الكتاب الثاني. النص اليوناني وترجمته بقلم كلود موندسيرت، الحواشي بقلم هنري-ايرينيه مارو (المصادر المسيحية، عدد ١٠٨)، باريس ١٩٦٥. ونحن نثبت هنا ترجمة كلود موندسيرت.

(٢) تلميح إلى عادة سكب قليل من الماء في الخمر، ابان الافخارستيا.

(٣) يشير مارو بخصوص هذا النص: "انه مزج ثلاثي، وعلى ثلاثة اصعدة مختلفة: الماء والخمر، المادة الافخارستية والكلمة، الافخارستيا والانسان".

(logos) لتضاف إليها، كما يقول كتاب الايكولوجيا لسيرابيون من Thmuis الذي استشهدنا به اعلاه، وكما سيقوله ايضا اثناسيوس الاسكندري في النص الذي سنورده بعد نصوص كليمنتس. ومن جهة أخرى، يتجه فكر كليمنتس نحو موضوع التجسد، عبر الرجوع إلى يو ١: ١٤: الكلمة صار جسدا. وهكذا نلتقي من جديد بفكرة يوستينس وايريناوس.

وسيضيف كليمنتس فيما بعد (٢: ٣٢):

"لأنكم تعلمون انه اخذ هو ايضا خمرا؛ وكان هو ايضا انسانا؛ لا بل بارك الخمر قائلا: [خذوا واشربوا: هذا هو دمي]؛ فمن وراء دم الكرمة، عنى الكلمة (logos) الذي أريق من أجل الكثيرين لمغفرة الخطايا، وهو المنبع المقدس للفرح".

• اوريجانس (توفي حوالي عام ٢٥٣)

لا عجب إذا وجدنا الافكار عينها قد عبر عنها اوريجانس، خليفة كليمنتس على رأس مدرسة الاسكندرية. فلقد كتب في تفسيره لانجيل متى:

"إذا كان كل ما يدخل الفم يذهب إلى البطن ومن ثم يطرح به إلى الخارج (انظر مر ٧: ١٩)، فهكذا الغذاء الذي قدسته كلمة (logos) الله والصلاة (انظر ١ طيم ٤: ٥): في ما يتعلق بالمادة ذاتها، فهي انما تذهب إلى البطن ويطرح بها إلى الخارج، أما الصلاة التي اضيفت إليها، وفق مماثلة الايمان، فتصبح مفيدة. وان ما يفيد الذي يأكله، ليس مادة الخبز، وانما الكلمة (logos) التي نطق بها، شريطة ألا يكون المرء غير جدير بالرب. وهذا ما يمكننا ان نقوله عن الجسد

بصفته صورة ورمزا [tupikou kai sumbolikou]. وبالإمكان ان نقول أشياء أخرى كثيرة عن الكلمة الذي صار جسدا وغذاء حقيقيا"[1].

ويواصل اوريجانس في إقامة الموازاة بين الكلمة الذي صار "جسدا" (يو ١: ١٤)، وبين الكلمة الذي اصبح "غذاء حقيقيا". وهكذا يتضح ان هناك تشابها بين الافخارستيا والتجسد.

• اثناسيوس الاسكندري (٢٩٥-٣٧٣)

هوذا اثناسيوس، في عظته للمعمذين الجدد -وقد وردت أقواله لدى اوطاخيوس بطربرك القسطنطينية[2]- يحمل المفهوم ذاته الذي كان لايريناوس:

"لنأت إلى إتمام الأسرار. هذا الخبز وهذه الكأس، طالما لم تتسل عليهما صلوات وأدعية، فانهما مفرغان [psila]. ولكن ما ان أصعدت الصلوات الكبرى والأدعية المقدسة، ينزل الكلمة في الخبز والكأس، ويتم جسده".

فبعد دعوة الروح القدس، يبقى الخبز خبزا، ولكن الكلمة يأتي فيه فيصبح "جسد" الكلمة. ولنضف بأن التجسد، في نظر اثناسيوس، يقوم في كون كلمة الله "اخذ جسدا"؛ انظر المقالة في التجسد ١: ٣؛ ٨: ٢ (المصادر المسيحية، عدد ١٩٩، ص٢٦٠، ٢٩٠) وما بعدها.

هناك، إذن، موازاة بين التجسد والافخارستيا: وفي كلتا الحالتين، نرى ان الخبز أو الجسد يتلقيان كلمة الله.

---

(١) تفسير لمتى ١٥: ١٤؛ GCS: ١٠، ص٥٨.
(٢) موعظة عن الفصح والافخارستيا المقدسة، الآباء اليونان ٨٦، حقل ٢٤٠١.

• افرام السرياني (٣٠٦-٣٧٣)

الطريقة التي يتحدث بها مار افرام تلتقي بطريقة اثناسيوس. انه يقول في موعظته (٤: ٤):

"اخذ يسوع بيديه خبزا، هو خبز اعتيادي في البداية، وباركه [...] ووزعه على تلاميذه [...] فالخبز دعاه جسده الحي، وملأه من ذاته ومن الروح [...].

خذوا كلوا في الايمان، ومن دون تردد، لان هذا هو جسدي. فمن يأكله بالايمان، يأكل في نفسه النار والروح. اما إذا أكله أحد وهو يشك، فهو يضحي له خبزا اعتياديا".

يبقى الخبز، إذن، قبل دعوة الروح القدس، خبزا "اعتياديا". وبعد دعوة الروح القدس، لا يزال خبزا، ولكنه ليس خبزا اعتياديا طالما انه مليء بالمسيح (الكلمة؟) والروح. اما أن يبقى الخبز الافخارستي خبزا، فذلك أمر بديهي طالما اننا إذا اخذناه من دون ايمان، لن يعود سوى خبز اعتيادي. ذلك لأن الايمان بحضور المسيح والروح فيه، هو الذي يجعل منه جسد المسيح[١].

• قورلس الاورشليمي (توفي عام ٣٨٧)[٢]

---

(١) لامي، الجزء ١، حقل ٤١٦.

(٢) قورلس الاورشليمي: التعاليم الاسرارية، مقدمة، تحقيق النص مع الهوامش بقلم اوكيست بييدانييل من جمعية المصلين(Oratoir). ترجمة بيير باري، من كهنة سان سولبيس (المصادر المسيحية، رقم ١٢٦ مكرر)، باريس ١٩٨٨. ونحن نثبت ترجمته لأقوال قورلس. هناك عدد من المؤلفين يشكون في نسبة هذه التعاليم إلى قورلس، وينسبونها إلى خلفه يوحنا الاورشليمي (٣٨٧-٤١٧)؛ انظر مناقشة هذه المشكلة في ص ١٧٧-١٨٧ من الكتاب المذكور، فضلا عن الهامش التالي.

الفكرة التي عبر عنها قورلس الاورشليمي، في "التعاليم الاسرارية"، تبدو متراوحة بين شكلين من أشكال تصور الافخارستيا.

لنر أولا نصين تبدو فيهما فكرة قورلس قريبة من الفكرة التي عبر عنها المجمع التريدنتيني:

"حين اعلن هو ذاته وقال عن الخبز [هذا هو جسدي]، فمن يجرؤ بعد على التردد؟ وحين أكد هو ذاته، وبشكل قاطع، وقال [هذا هو دمي]، فمن يشك بعد ويقول انه هذا ليس دمه؟ ففيما مضى، وبمحض إرادته، حول الماء إلى خمر في قانا الجليل، فلماذا لا يكون جديرا بالتصديق حين حول الخمر إلى دم؟" (٤: ١-٢).

"لقد أخذت التعليم وأنت على يقين ثابت: فما يبدو خبزا ليس خبزا، وإن كان خبزا في طعمه، وإنما جسد المسيح؛ وما يبدو خمرا، وإن كان هذا طعمه، لكنه دم المسيح" (٥: ٩؛ انظر ٤: ٦).

يبدو واضحا التعليم الذي ترمي إليه هذه النصوص: بعد دعوة الروح القدس ومجيئه (انظر ٥: ٧)، تبقى "أشكال" (أو "ظواهر") الخبز والخمر اللذين نراهما ونذوقهما، ولكن في الحقيقة، لم يعد هناك خبز أو خمر، لأنهما قد تحولا إلى جسد وإلى دم المسيح، كما تحول، في السابق في قانا، الماء إلى خمر.

إلا ان المشكلة في الواقع ليست بهذه السهولة[١]. لنشر أولاً إلى تحفظ نقرأه في ٤: ٣:

(١) يشير اوكيست بييدينييل (ص١٨٦) بأن "التعاليم" في نظر ج. كواستن يحتمل انها "أعدت وقيلت مرة اولى من قبل قورلس، ولكن أعيد النظر فيها على يد خلفه يوحنا". وهذا ما يفسر، إلى حد ما، الاختلاف بشأن "واقعية" الافخارستيا التي نلاحظها ما بين النصوص التي اثبتناها أعلاه، وهي من يد يوحنا، وبين النصوص التي سنثبتها أدناه، وهي من يد قورلس.

"لذا فبيقين مطلق، نشترك بشكل ما [ôs] في جسد المسيح ودمه".

وسيوضح قورلس، فيما بعد، قصده من عبارة "بشكل ما"، عبر الرجوع إلى نص يو ٦: ٥٣-٦٦:

"كان المسيح، من قبل، قد قال في حديثه مع اليهود: [إن لم تأكلوا جسدي وتشربوا دمي، ليست لكم حياة فيكم". ولم يكن سماعهم هذه الأقوال بشكل روحي [pneumatikôs]، ولذا تشككوا وتراجعوا، ظانين ان المخلص يدعوهم إلى أكل جسماني [sarkophagian]" (٤: ٤).

فحين يدعونا لمسيح إلى اكل جسده، يجب ان نفهم هذه العبارة بالمعنى الروحي وليس المادي.

وبالفعل، هوذا قورلس يتكلم على شاكلة كل الكتاب الذين استعرضناهم حتى الآن، مع هذا الاختلاف الوحيد، وهو ان مجيء الكلمة (logos) على الخبز وعلى الخمر، أستبدل بمجيء الروح القدس. وعلى هذا النحو يقيم، في ٣: ٣، موازاة بين الخبز الافخارستي وبين الزيت الذي كانوا يدهنون به المعمذين الجدد، بعد ان يكون المحتفل قد تلا عليهم دعوة الروح القدس:

"كما ان الخبز الافخارستي، في الواقع،
من بعد دعوة الروح القدس
لم يعد مجرد خبز [artos litos]
وانما [هو] جسد المسيح،
كذلك ايضا هذا العطر المقدس،
من بعد دعوة الروح القدس،
لم يعد مفرغا [psilon]
أو عاديا [koinon]، كما يمكن ان يقال،
وانما عطية المسيح
إذ اصبح، بحضور الروح القدس، فاعلا بلاهوته".

ان ما يلفت النظر هو ان قورلس، كي يشرح طبيعة الزيت الحقيقية ("العطر") المستخدم لمسح المعمذين الجدد، لم يجد افضل من الاستعانة بالخبز الافخارستي. فمن الواضح جدا، في نظره، ان زيت المعمودية يبقى على الدوام زيتا، ولكنه زيت تغلغلت فيه قوة الروح القدس. وهكذا الأمر بالنسبة إلى الخبز الافخارستي. انه لم ينفك عن كونه خبزا، ولكنه لم يعد "مجرد" خبز، وانما خبز ممتلئ كليا من قوة الروح.

ويردد قورلس، في الواقع، أفكار ايريناوس، وللتأكد من ذلك، يكفي ان نضع بالتوازي بداية النص التالي مقابل نص ايريناوس (٤: ١٨، ٥):

قورلس	ايريناوس
كما ان في الواقع	كما ان في الواقع
الخبز الافخارستي	الخبز الذي [يأتي] من الارض
من بعد دعوة الروح القدس	بعد ان تلقى دعوة الروح القدس
لم يعد مجرد خبز	لم يعد خبزا اعتياديا
وانما جسد المسيح	وانما افخارستيا
	مكونة من عنصرين
	ارضي وسماوي

وتجدر الاشارة الى ان عبارة "الخبز الاعتيادي" (artos koinos) التي استخدمها ايريناوس، نجدها لدى قورلس بشأن زيت المعمودية. ومن جهة أخرى، بالنسبة إلى قورلس، كما إلى ايريناوس، الكلمة (logos) هو الذي يتلقى الخبز الافخارستي، كما يقول ذلك في ٤: ٥: "في العهد الجديد، هناك خبز سماوي وكأس خلاص يقدسان النفس والجسد؛ فكما ان الخبز قد جعل للجسد، هكذا الكلمة ينسجم جيدا مع النفس".

وهناك نص آخر في ٥: ٢٠ يبرهن على بقاء قورلس في الخط العام. فلقد كتب فعلا بشأن التناول الافخارستي: "فحين تذوقون، فإنكم لا تذوقون خبزا او خمرا، وانما صورة [antitypos] جسد المسيح ودمه". انها اللفظة المستخدمة في "التقليد الرسولي" لهيبوليت، كما رأينا أعلاه. فالخبز والخمر ليسا سوى انعكاس او صورة لجسد المسيح ودمه.

• ثئودوريه، اسقف Cyr (٣٩٣-٤٦٠)

في مقالة كتبها حوالي ٤٤٧ ضد المونوفيزيين[1]، تخيل ثئودوريه حوارا بين معارض أسماه ايرانيست، وبين ممثل للايمان القويم. كان ايرانيست يؤكد بأن جسد المسيح، بعد الصعود، قد تحول إلى طبيعة إلهية. وكان يبرهن على ذلك من الافخارستيا حيث، بعد دعوة الروح القدس، تتحول رموز جسد ودم المسيح (والمقصود الخبز والخمر) إلى طبيعة أخرى هي الطبيعة الالهية. وها هو ثئودوريه يؤكد العكس:

"بعد التقديس، لا تفقد الرموز السرية (والمقصود الخبز والخمر) طبيعتها الذاتية [oude ... tès oikias existatai physeos]، طالما انها تبقى في جوهرها الاول [menei gar epi tès prôteas ousias]، وفي ظاهرها وشكلها، مرئية وملموسة كما في السابق [...]، فما عليك إلا ان تعيد الصورة إلى نموذجها القديم، كي ترى الشبه! إذ يجب ان تكون الصورة بالفعل شبيهة بالواقع".

---

(١) الآباء اليونان، رقم ٨٣، حقل ١٦٥ت.

وهكذا تفرض النتيجة ذاتها: يجب التسليم بأن جسد المسيح لا يزال قائما بعد الصعود. ويعود ثئودوريه إلى هذه الفكرة في نهاية الحوار إذ يشرح لإيرانيست لماذا دعا المسيح الخبز "جسدا" والخمر "دما":

"القصد واضح للذين تلقوا التنشئة. فلقد شاء ألا يتعلق الذين يشتركون في الأسرار المقدسة بطبيعة ما يرون، وانما، بفضل تغيير الاسماء، ان يكون لهم الايمان بأن هذا التحول يتم بفعل النعمة. فهو حين سمى جسده الطبيعي "حنطة" و "خبزا"، كما سمى ذاته "كرمة"، فهو إنما كرم الرموز التي ترى، إذ سماها "جسدا" و "دما"، وهذا لا يعني انه غير طبيعتهما [ou tèn physin metabalôn]، وانما أضاف النعمة إلى الطبيعة".

وهكذا يتضح ولا شك، بالنسبة الى ثئودوريه، بأن عنصري الخبز والخمر، من بعد الصلوات التي تتلى عليهما، لن يفقدا جوهرهما الخاص أو طبيعتهما، وانما يصبحان "جسد" و "دم" المسيح، لانهما تلقيا عنصرا جديدا يسميه ثئودوريه "النعمة".

• الذهبي الفم، المجهول (بعد ٤٥١)[1]

ان فكرة استمرار طبيعة الخبز الافخارستي، نجدها مؤكدة ايضا بوضوح، في رسالة نسبت خطأ إلى القديس يوحنا الذهبي الفم، ويبدو انها كتبت بعد مجمع خلقيدونية (٤٥١). والمقصود منها إثبات وحدانية شخص المسيح، بالرغم من وجود الطبيعيتين فيه، الالهية والانسانية:

"وبالفعل، قبل ان يقدس الخبز، نسميه خبزا؛ ولكن ما ان قدسته النعمة الالهية، بواسطة الكاهن، يتخلى عن اسم "الخبز" ويصبح أهلا لأن يتلقى تسمية

(١) الرسالة إلى سيزير؛ الآباء اليونان، رقم ٥٢، حقل ٧٥٨.

"جسد" الرب، حتى وإن بقيت فيه طبيعة الخبز [etiamsi natura panis in ipso permansit]، ونؤكد بأن ليس هناك جسدان، وانما جسد الابن وحده؛ وهكذا (في التجسد)، ما أن اقامت الطبيعة الالهية في الجسد، لن يكون هذان العنصران سوى ابن واحد، شخص واحد".

• البابا جيلاسيوس الاول (٤٩٢-٤٩٦)[1]

لنثبت أخيرا ما كتبه البابا جيلاسيوس الاول، في مقالة لدحض خطأ المونوفيزيين، وللتأكيد بالتالي على ان في المسيح طبيعتين، الالهية والانسانية. واليكم هذا النص بالكامل، بالرغم من طوله:

"بالتأكيد، ان أسرار جسد ودم المسيح اللذين نتناولهما، هي أمور إلهية؛ ولذا نصبح بهما مشاركين في الطبيعة الالهية؛ ومع ذلك، فإن جوهر الخبز والخمر أو طبيعتهما تستمر. فما يحتفل به في فعل الأسرار، انما هو، بالتأكيد، صورة وشبه جسد المسيح ودمه. ولذلك يبدو من البديهي أن نرى في المسيح الرب ذاته، كل ما نراه ونحتفل به ونقبله في صورته، أي: كما تتحول هذه الأشياء [اعني الخبز والخمر]، بفعل الروح القدس، إلى هذا الجوهر الالهي، وإن احتفظت طبيعتها بخواصها، فهي تشير ايضا إلى ان هذا السر الأساسي [اعني التجسد]، فيما تجعلنا حاضرين فيه بفاعلية وقوة، يقوم في انه لا يوجد سوى مسيح واحد، وهو واحد لأنه تام وحقيقي، مع احتفاظ الطبيعتين بخواصهما".

---

(١) في الطبيعتين؛ ١٤؛ الأباء اللاتين، ملحق ٣، حقل ٧٧٣-٧٧٤. والترجمة التي نثبتها هنا مأخوذة عن ب. باتيفول: "دراسات في التاريخ واللاهوت الايجابي"، باريس ١٩٠٥، ص٣٣٠.

يريد جيلاسيوس، إذن، ان يبرهن على ان في المسيح طبيعتين. وقمة الأدلة التي يضعها في المقدمة هي: في سر جسد ودم المسيح، هناك عنصران، أحدهما إلهي، طالما اننا، بتناولنا اياهما، نصبح مشاركين في الطبيعة الالهية؛ والآخر ارضي، طالما ان جوهر أو طبيعة الخبز والخمر ما زالا قائمين. إلا ان ما نحتفل به في سر الافخارستيا، فانما هو صورة وشبه جسد المسيح ودمه. ويخلص جيلاسيوس بالتالي إلى القول بأنه ما دام ينبغي ان تتناسب الصورة مع ما تمثله، فلا بد، إذن، من ان تكون في المسيح طبيعتان، طبيعة إلهية وطبيعة بشرية.

إلا ان قوة البرهان كلها تكمن في هذا التأكيد الذي بموجبه، وبفضل عمل الروح القدس، يحتوي الخبز والخمر الافخارستيين، وفي الوقت ذاته، على جوهرهما الخاص (أي على طبيعة الخبز والخمر التي لا تتبدل)، وعلى الطبيعة الالهية.

المجمع التريدنتيني

تؤكد كل هذه النصوص من التقليد الآبائي ان الخبز، بعد دعوة الروح القدس، يبقى خبزا: اعني ان جوهره الطبيعي لا يتغير. فلا يمكن من ثم ان نتكلم عن تحول فيزيائي، مادي، للخبز الذي يكون قد اصبح جسد المسيح. ولكن كيف نفهم آنذاك التحديدات المجمعية التي تؤكد العكس، باستخدامها عبارة "الاستحالة الجوهرية" [transsubstantiation]؟ فلقد سبق مجمع اللاتران الرابع عام ١٢١٥ أن قال: "لقد استحال جوهريا الخبز في الجسد، والخمر في الدم". وأكد المجمع التريدنتيني، وبشكل اكثر وضوحا: "يعلن هذا المجمع المقدس: بتقديس الخبز والخمر تم التغيير [conversionem] (او التحول) من كل جوهر

[totius substantiae] الخبز إلى جوهر جسد المسيح ربنا، ومن كل جوهر [totius substantiae] الخمر الى جوهر دمه. ومثل هذا التغيير [conversio] تسميه الكنيسة الكاثوليكية المقدسة، بحق وبشكل مناسب، [convenienter et proprie]، "استحالة جوهرية".

لكي نفهم هذه التحديدات المجمعية، يتوجب علينا ان نستعيد هنا تاريخ الجدالات الافخارستية التي قامت في الغرب خلال القرون ٩-١٢، مع امثال باسكال ردابيرت، راثرام، بيرانجير، لانفرانك. ففي الغرب، كما رأينا اعلاه، كانت اللفظة التي استخدمت غالبا للتعبير عن علاقة الخبز الافخارستي بجسد المسيح، هي لفظة "صورة" [figura]. ذلك ان الخبز، بعد دعوة الروح القدس، يصبح "صورة" جسد المسيح. ويتضح لنا للحال الخطر الذي كان يخفيه هذا التعبير. فاذا لم يكن الخبز والخمر سوى "صورتين" لجسد المسيح ودمه، تكون الافخارستيا قد أفرغت من كل "واقعية" (veritas, res ipsa). وبمقدار ما أهملت في الغرب، شيئا فشيئا، الموازاة بين الإفخارستيا والتجسد -وكانت هذه الموازاة تحافظ على مبدأ حضور الكلمة (logos) الفعال في الخبز والخمر الافخارستيين-، فإن كون الخبز والخمر "صورتين" لجسد المسيح ودمه لم يكن قط كافيا للتعبير عن خصائص الافخارستيا. ومن هنا تنامى الميل، اكثر فاكثر، إلى افتراض تحويل حقيقي من الخبز والخمر إلى جسد ودم المسيح، باضفاء معنى وجوديا لفعل الكينونة في صيغة "هذا هو جسدي"[1]. وهكذا نجد ان تحديدات مجمع اللاتران الرابع والمجمع التريدنتيني قد سجلت التعبير الاكثر مطلقية عن رد الفعل ضد اولئك الذين لم يكونوا يرون في

(١) من المحتمل ان يكون هذا الميل قديما جدا. فلقد رأينا بأن لفظة "صورة" [figura]، في زمن امبروسيوس من ميلانو، كانت تقال عن الخبز والخمر قبل تلاوة دعوة الروح القدس.

الخبز والخمر الافخارستيين سوى مجرد "صورة" لجسد المسيح ودمه، صورة خالية من كل "حضور حقيقي".

وهذا ما فهمه جيدا لاهوتي هولاندي هو ادوار شكيلبيكس[٢]. فبعد ان درس بتدقيق كل جلسات المجمع التريدنتيني، حصل على الاقتناع بأن هدف المجمع كان، قبل كل شيء، التأكيد على حضور المسيح في الاعراض الافخارستية. و للتأكيد على هذا الحضور، لجأ آباء المجمع إلى النظرية الارسطوطالية التي تميز في الكائن بين الجوهر والاعراض (وإن لم تستخدم كلمة "اعراض") والتي كانت مقبولة بشكل مألوف لدى الفلاسفة المسيحيين في ذلك العصر. ومن هنا جاءت نظرية "الاستحالة الجوهرية" التي يستبدل بموجبها جوهر الخبز والخمر -أو الواقع القريب منه- إلى جوهر جسد ودم المسيح، في الوقت الذي تبقى الأشكال الفيزيائية على حالها. ولكن ما ان تركنا جانبا هذه الفكرة الارسطوطالية، أليس من الضروري ان نعبر، بشكل آخر، عن سر حضور المسيح في الافخارستيا؟

لنعد، إذن، إلى التقليد الآبائي الذي استعرضناه أعلاه. فهو يقبل بأن كلمة الله المتجسدة في المسيح، بفضل صلاة المحتفل (دعوة الروح القدس) تصبح حاضرة في الخبز الافخارستي. فالمسيح، إذن، بصفته كلمة الله، حاضر حقا في الخبز الافخارستي. فلا مكان "للاستحالة الجوهرية"؛ وانما، وبكل بساطة، يصبح الخبز رمزا فاعلا. فكما ان الخبز المادي يغذي جسدنا، هكذا يغذي الخبز الافخارستي نفسنا، لانه يحتوي على كلمة الله بكل فاعليتها. وهكذا نعود إلى نص تث ٨: ٣ والذي كثيرا ما أوردناه: "ليس بالخبز وحده يحيا الانسان، بل بكل كلمة تخرج من فم الله".

---

(٢) "حضور المسيح في الافخارستيا"، ترجمة عن الهولندية بقلم م. بيزنزيرات، باريس ١٩٧٠.

ونجدنا حينذاك، بازاء توسع متناسق في التقليد المسيحي. فأغلب النصوص التي استعرضناها أعلاه تقيم توازيا بين الافخارستيا والتجسد كما فهمه يو ١: ١، ١٤: ذلك ان كلمة الله (المتجسدة) حاضرة في الخبز كما هي حاضرة في جسد المسيح. وهكذا يصبح من اليسير علينا ان نرى كيف يلتقي هذا المفهوم عن الافخارستيا مع المفهوم الذي اقترحناه في ما يتعلق بـ مر ١٤: ٢٢. ففيه يعلن يسوع: "هذا [الخبز] هو أنا". وكما ان الخبز يرمز إلى كلام الله، فإن يسوع يرى ذاته، إذن، في هذا الكلام. ولقد رأينا ان يو ٦: ٣٥ كان قد استعاد هذا الموضوع، في سياق حكمي، بصيغة "انا خبز الحياة": فالخبز يرمز إلى الحكمة أو إلى كلام الله. ومن هنا كانت التوسعات في لاهوت المسيح بحسب يوحنا: "في البدء كان الكلمة والكلمة كان لدى الله، والكلمة هو الله [...] والكلمة صارت جسدا وسكنت بيننا [...]". اما التقليد الآبائي، فلقد مزج هذه العناصر المختلفة؛ فهناك أوجه شبه ما بين الافخارستيا والتجسد: ان كلمة الله (المتجسدة) حاضرة في الخبز الافخارستي كما هي حاضرة في "بشرية" المسيح.

إلا ان الافخارستيا لا تتعلق بالخبز حسب، وانما ايضا بالخمر وكلمة المسيح "هذه [الخمر] هي دمي للعهد، المسفوك من أجل جماعة الناس" (مر ١٤: ٢٤). ومن المؤكد انه لم يكن بوسع التلاميذ ان يتخيلوا يسوع يعطيهم، ماديا، دمه ليشربوه، كما لم تكن تلك نية المسيح. فكما هي الحال مع الكلام على الخبز، هكذا كان يجب ان يفهم الكلام على الخمر بمعنى رمزي: فالخمر قد اصبحت رمز دم المسيح الذي كان مزمعا ان يراق ذبيحة لإبرام العهد الجديد بين الله وشعبه (خر ٢٤: ٨). انه رمز **فاعل** هو الآخر. فالعهد كان يفترض، من جانب الشعب، طاعة مطلقة للشريعة الالهية، للوصايا العشر، للكلمات العشر. فالمسيح، كلمة الله، حاضر في الخمر الافخارستي كما هو حاضر في الخبز. ولدى اشتراكنا بهذا الكلام، فانما نعيش منه، وهو يعمل فينا ويجعلنا قادرين على ان نكون أمناء للعهد.

فهرس الكتاب

مقدمة المعرب ٧
مقدمة المؤلف ١١
توطئة ١٣
آية بمثابة مقدمة ١٧
آية المقدمة ١٩
● إنجيل يسوع ١٩
● مسيح" لقب "ملوكي" ٢٠
● ابن الله ٢٣
● معنى مر ١: ١ ..... ٢٩
القسم الاول: من هو يسوع ؟ ٣١
١- يوحنا المعمدان (١: ٢-٨) ٣٣
● يسوع تلميذ المعمدان ٣٣
● يسوع معمّد بالروح القدس ٣٤
٢- عماذ يسوع (١: ٩-١١) ٣٥
● معنى المشهد ٣٥
● كيف جرى الحدث؟ ٣٩
٣- التجربة والتلاميذ الأولون (١: ١٢-٤٠) ٤٢
التجربة ٤٢
● الشيطان ٤٣
● التجربة ٤٥
● الانتصار ٤٦
التلاميذ الأولون ٤٦
● صيادون من مرتبة اجتماعية معينة ٤٦
● البعد الرمزي للرواية ٤٧
● دعوة بطرس واندراوس ٤٩
٤- يوم كفرناحوم النموذجي (١: ٢١-٣٤) ٥١
● يسوع يعلّم (١: ٢١-٢٢) ٥١
● إخراج شيطان (١: ٢٣-٢٨) ٥٣
● حماة بطرس (١: ٢٩-٣١) ٥٥
● أشفية في المساء (١: ٣٢-٣٤) ٥٦

● اليوم الأول ٥٧
٥- يسوع في الجليل (١: ٣٥-٤٥) ٥٩
يسوع يترك كفرناحوم ٥٩
شفاء ابرص ٦٠
٦- المجادلات الخمس (٢: ١-٣: ١٢) ٦٣
● شفاء مقعد (٢: ١-١٢) ٦٣
● دعوة لاوي (٢: ١٣-١٤) ٦٦
● يسوع والخطأة (٢: ١٥-١٧) ٦٦
● يسوع والصوم (٢: ١٨-٢٢) ٦٧
● يسوع والممنوعات (٢: ٢٣-٢٨) ٦٨
● يسوع وراحة السبت (٣: ١-٥) ٦٩
● الفريسيون ضد يسوع (٣: ٦) ٧١
● تهافت الجموع (٣: ٧-١٢) ٧١
● اختيار الاثني عشر (٣: ١٣-١٩) ٧٢
٧- يسوع ملك ونبي (٣: ٢٢-٣٥) ٧٤
● يسوع يخلع الشيطان عن العرش (٣: ٢٢-٣٠) ٧٤
● تلاميذ يسوع - النبي (٣:٣١-٣٥) ٧٧
● "اخوة" و"أخوات" يسوع ٧٨
● أم يسوع ٨١
٨- يسوع يعلم ويشفي (٤: ١-٥: ٤٣) ٨٣
يسوع يعلم بأمثال ٨٣
● مثل الزرع (٤: ٣-٢٠) ٨٤
● مثلان آخران (٤: ٢٦-٣٢) ٨٨
طرد الشياطين وشفاءات ٨٨
● تسكين العاصفة (٤: ٣٥-٤١) ٨٨
● ممسوس جراسة (٥: ١-٢٠) ٩١
● شفاء متروفة (٥: ٢٤-٣٤) ٩٢
● ابنة يائيرس (٥: ٢١-٢٤، ٣٥-٤٣) ٩٣
● يسوع مرفوض في الناصرة (٦: ١-٦) ٩٤
٩- اليهود أولا، ومن ثم الوثنيون (٦: ٧-٨: ١٠) ٩٧
بعثة الاثني عشر للرسالة ٩٨
تكثير الخبز ٩٩
الرواية الاولى (٦: ٣٠-٤٤) ٩٩
● المقدمة (٦: ٣٠-٣٤) ٩٩
● تكثير الخبز ١٠٠
● هل كثر يسوع الخبز في الواقع؟ ١٠٣
السير على الماء ١٠٦

الطهارة الطقسية ١٠٩
● رتب التطهير ١٠٩
المرأة السورية-الفينيقية ١١١
شفاء أصـــم ١١٢
تكثير الخبز ١١٤
١٠- يسوع يُعترف به ملكاً ونبياً (٨: ٢٧-٩: ٣٥) ١١٦
بطرس يعترف ١١٧
بأن يسوع هو المسيح ١١٧
● فكرة الناس عن يسوع ١١٧
● فكرة التلاميذ ١١٨
● شفاء أعمى ١٢٠
التحـــلي ١٢٠
● تجلي يسوع وعماذه ١٢١
● يسوع، موسى الجديد ١٢٢
● السر المسيحاني ١٢٣
الإنباء الأول بالآلام ١٢٤
● أول إنباء عن الآلام ١٢٤
● هل أعلن يسوع عن قيامته؟ ١٢٦
مجـــيء الملكوت ١٢٧
القسم الثاني: موت الملك ١٢٩
١- آخر طرد للشيطان (٩: ١٤-٢٧) ١٣٢
● رواية معقّدة ١٣٣
● ضرورة الايمان ١٣٤
٢- تعليم يسوع (٩: ٣٠-١٠: ٤٥) ١٣٦
على الأكبر أن يخدم ١٣٧
● طموح الرسل ١٣٧
● على الرؤساء أن يخدموا ١٣٨
● يسوع اعطى القدوة ١٤٠
احتقار الثروات ١٤٢
● الرجل الغني (١٠: ١٧-٢٢) ١٤٢
● خطر الثروات (١٠: ٢٣-٢٧) ١٤٣
● مكافأة التجرد (١٠: ٢٨-٣١) ١٤٤
٣- يسوع يُستقبل كملك (١٠: ٤٦-١١: ١٤) ١٤٦
● اعمى اريحا (١٠: ٤٦-٥٢) ١٤٦
● الدخول الى اورشليم (١١: ١-١٠) ١٤٧
٤- معارضو يسوع (١١: ١١-١٢: ٤٠) ١٤٩
● طرد الباعة من الهيكل (١١: ١٥-١٨) ١٤٩

- التينة اليابسة (١١: ١٢-١٤، ٢٠) ١٥١
- سلطة يسوع (١١: ٢٧-٣٣) ١٥٢
- الكرامون القتلة (١٢: ١-١٢) ١٥٣
- الجزية الواجبة لقيصر (١٢: ١٣-١٧) ١٥٤
- مسألة القيامة (١٢: ١٨-٢٧) ١٥٥
- الجمع يصغي الى يسوع (٢: ٢٨-٤٠) ١٥٥

٥- نهاية عالم (١٣: ١-٣٧) ١٥٧
- يسوع يعلن خراب الهيكل ١٥٧
- مجيء ابن الانسان ١٥٨
- متى يحصل مجيء ابن الانسان؟ ١٦٠

٦- تأسيس الافخارستيا (١٤: ١-٢٥) ١٦٢
- المؤامرة ضد يسوع (١٤: ١-٢، ١٠-١١) ١٦٢
- إعداد الفصح (١٤: ١٢-١٦) ١٦٢
- تأسيس الافخارستيا (١٤: ٢٢-٢٥) ١٦٤
- الكلام عن الخبز ١٦٤
- الكلام على كأس الخمر ١٦٨

٧- الجتسمانية (١٤: ٢٦-٥٢) ١٧١
- يسوع ينبئ بضعف الرسل (١٤: ٢٦-٣١) ١٧١
- نزاع يسوع (١٤: ٣٢-٤٢) ١٧١
- الاعتقال (١٤: ٤٣-٥٠) ١٧٣
- الشاب الذي هرب عرياناً (١٤: ٥١-٥٢) ١٧٤

٨- يسوع محكوم عليه بالموت (١٤: ٥٣-١٥: ١٥) ١٧٦
- المحاكمة امام السنهدرين (١٤: ٥٣-٦٤) ١٧٦
- المثول امام بيلاطس (١٥: ١-١٥) ١٨٠

٩- موت ملك اليهود (١٥: ١٦-١٦: ٨) ١٨٣
- "ملك اليهود" موضوع سخرية ١٨٣
- شدة يسوع (١٥: ٣٣-٣٤) ١٨٥
- علامة رجاء (١٥: ٣٩) ١٨٦
- القبر الفارغ (١٦: ١-٨) ١٨٧

القسم الثالث: شخصية يسوع ١٨٩
- يسوع بحسب مرقس ١٩١
- يسوع بحسب يوحنا ١٩٦
- وعي متدرج ١٩٧
- أي يسوع؟ بحسب مرقس ام يوحنا؟ ١٩٩

ملحق في الافخارستيا ٢٠١
- التقليد الانطاكي ٢٠٣
- المعطيات الليتورجية ٢٠٨
- معطيات آباء الكنيسة ٢١١
- المجمع التريدنتيني ٢٢٥

٢٧٢
ب ٩٢٨ بوامار، ماري – اميل
يسوع الذي من الناصرة / ماري – اميل
بوامار؛ نقله الى العربية بيوس عفاص
.. بغداد : شركة الديوان، ٢٠٠٢.
ص؛ ٢٤سم.
١ – الكتب السماوية أ. بيوس عفاص
(مترجم) ب. العنوان
م.و
٢٠٤ / ٢٠٠٢

المكتبة الوطنية (الفهرسة اثناء النشر
رقم الايداع في دار الكتب والوثائق ببغداد ٢٠٤ لسنة ٢٠٠٢